

العلامة الفقيه الشيخ
محمد إسماعيل كركاش
حياته وأثره

مفرد الطبع محفوظ

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٧/٣٣٠٩)

٩٢٢.١

الخوام، محمد

العالم الفقيه الشيخ محمد أديب كلكل حياته وأثاره/ محمد

رياض الخوام. - عمان : ، ٢٠٠٩ .

() ص.

ر.أ.: (٢٠٠٩ / ٧ / ٣٣٠٩).

الواصفات : / الفقهاء المسلمون // التراجم /

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا
المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

دارُ عبادة

عمان - الأردن

العالم الفقيه الشيخ

محمد ابي بكر

حَيَاتُهُ وَآثَارُهُ

تأليف
الدكتور محمد رياض الخوام

دارُ عِبَادَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم من أئمة الهدى ومصابيح الدجى إلى يوم الدين، وبعد:

فمنذ حين من الدهر، وأنا أحاول اغتنام فرصة لأكتب عن سيدي وأستاذي فضيلة الشيخ العالم الفقيه محمد أديب كلكل - شفاه الله وعافاه من الأوصاب والأسقام - مع اعتقادي بقصور قلبي، وقلة مدادي، ونفاد مؤنوتي للقيام بهذا العمل، فالشيخ - نور الله أيامه - عالم تعددت فنونه، وتنوعت علومه، فهو في الفقه ابن بجدة، وفي الحديث أبو عذرتها^(١)، وفي علوم العربية (خليل دهره)، وفي الأصول نسيج وحده، وفي التربية والسلوك (جنيد) عصره، ما عرفناه إلا ربانياً، وما عهدناه إلا قرآنياً، وما ألفيناه إلا محمدياً، في قاله وفعله وحاله، وفي خاصه وعامه، وحله وترحاله، لا يفتر عن النصح والإرشاد، ولا يني عن التوجيه والسداد، ولا يمل من الوعظ والإمداد، دأبه العلم درساً وتدريساً وتأليفاً، وهجيراً^(٢) تفقد أحوال طلابه وإخوانه أفراداً ولفيفاً.

عرفته منذ كنت في السنة الخامسة من المرحلة الابتدائية حين دفعني والدي - بل الله ثراه بوابل رحماته - في إحدى الإجازات الصيفية إلى المدرسة المحمدية الشرعية الكائنة فوق سطح المسجد الشرقي في حي الحاضر للدراسة فيها، بدلاً من اللعب في الحارة، ففوجئت بهذا الأستاذ الأب الحاني والمدرس الناجح، والمربي الكامل وبسرعة عجيبة تعلقت به كما تعلقت به غيري من الطلاب الذين يقوم بتدريسهم، فكنا نعيش في الفصل أجهل الأوقات مع حديثه

(١) كناية عن يراد بهما العالم بالشيء المتقن القوي الحجة.

(٢) أي دأبه وعادته.

وظرفه، وروحه، مع الخوف منه - لأن روحه فيها جلال - والميل نحوه - لأنها لا تنفك عن جمال - ولقد أحسن الظن بي حين دعاني إلى «دار المشايخ» وكانت يومها دار الفاضل عبد الله الحاتم نزيل المدينة المنورة، المتوفى في حماة مسقط رأسه - رحمه الله - فرغبنا بالدروس المدرسية من حساب، ولغة عربية... إلخ، واشتريت دفترًا خاصاً لأكتب ما سأدرسه في «الدار» وهرعت إليها حاملاً حباً وشوقاً وخوفاً، فوجدت نفسي أصغر القوم، فانزويت قليلاً وجلست في الصف الأخير، فإذا به - سدّد الله أمره - يتهلل وجهه ويقول: أهلاً بضيفنا الجديد، تعال إلى هنا لترى السبورة تماماً، وأجلسني في الصف الأول، وبدأ يشرح درساً في النحو، كان عن المبتدأ والخبر، ومن هذه الجلسة حفظت عبارة (الظلم مرتعٌ وخيمٌ) وإعراهما، وبعد الانتهاء أكرمتُ مع إخواني بكأس من الشاي، ثم تمنيت أن أبقى مع بقية الطلاب الذين هم أكبر مني سنّاً، لحضور درس بعد صلاة المغرب، لكن الشيخ - وفقه الله - أشار إليّ أن الدرس انتهى، وشجعني على حضور الدرس الثاني في يوم آخر لم أعد أذكره، وأوصاني يومها بالمواظبة على الصلوات جماعة، وتوالت الدروس، وتوثقت العروة، فرأيتني واحداً من تلامذته ومريديه، متابعاً دروسه، ومنشداً في حلقات ذكره ما يختاره لي من قصائد، مردّداً له دائماً قول الشاعر:

لو قال مَتِّ مَتِّ سمعاً وطاعةً وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحبا

علقتُ به روحي، وسكن له قلبي، وارتبطت به أفكاري، فصار شغلي وشاغلي، أرى فيه الوالد العطوف، والأم الرؤوم، والأخ الكبير المواسي، أخبره عن كل أحوالي، وأطلعه على كل سرائري حتى خواطري، وهو لا يزال لنا هادياً - يرعاني بأبوته، ويوجهني بحكمته، ويشجعني دائماً على تحصيل العلم ومذاكرته، ويعدني بأنه سيرسلني إلى الأزهر الشريف بعد حصولي على الإعدادية - ولم أزل في هذه الحال منتظماً في سلوكه، منجذباً إلى روحه، حتى أملت بنا ملهمات فساقنتني الأقدار إلى ديار غير تلك الديار، فمكثت خمساً وعشرين سنة بعيداً، تائهاً

- فيما أحسب - في صحار وقفار، فلم يقرّ لي في غربتي هذه قرار، فصارت روحي بذلك مريضة، ونفسي كئيبة، وخواطري عجيبة، وأدركت أن لا علاج لما أنا فيه إلا بالرجوع إلى مراتع الصبا ومرابع الوفا، والسقيا من كأس الصفا، ولكن كيف وأين ومتى؟ فالغربة قاسية، والرياح هوجاء عاتية، واللقا متعذر، والاجتماع متعسر، ولسان حالي يقول:

تركتُ هوى سُعدى ولىلى بمعزل وعدتُ إلى مصحوبٍ أول منزل
ونادتنى الأشواقُ مهلاً فهذه منازلُ مَنْ تهوى رويدك فانزل

وبينما أنا كذلك أتجرّع الحسرات، وأعض الأنامل، إذ دارت المياسير، ولاحت التباشير، فظهر لي من شيخي - أمدّ الله في عمره - شارق القبول مبشراً بالقرب والوصول، قائلاً - لي في رسالة -: مهما ابتعدت الأجسام وتناوت الديار، فالأرواح متآخية، بإذن ربها متلاقية، والقلوب نقية بفطرة خالقها، وكأني به يريد قول الروّاس رحمه الله:

وَمَنْ كَانَ مُحْسَبًا عَلَيْنَا بِنِيَّةٍ سَلِيمَةٍ تَمْطُرُ لَمْ يَزَلْ بِحَسَابِنَا

فطرت فرحاً، وهمت طرباً، وقلت في نفسي: ما أنا إلا ثمرة من ثماره، ونبته من غرسه في بستانه، فحالي كما قال البحري:

وما أنا إلا غرسٌ نعمتك التي أفضتَ لها ماء النوالِ فأورقا

فهلا رددت له - الآن - بعض حقوقه وما أكثرها؟ في زمن غاض فيه الوفاء، وهلا أبنتَ طريقته ومنهجه لإخوانك المسلمين - فما أنفعها - في زمن قلّت فيه مثل هذه المناهج والريادات، فشمرت عن ساعد الجدد، ورحت أستجمع ذكرياتي، أسجلها في وريقات أنتظر الفرصة لأبدأ الكتابة، ونظرت حولي إلى إخواني ممن تردّدوا إلى حلقات الشيخ وقد تناوت بيننا الديار محاولاً الاتصال بهم، آملاً أن أظفر منهم بأخبار عن الشيخ ومعلومات قد لا أعرفها فلم يتيسر الأمر ورحت إلى خزانة المعلومات العالمية (الإنترنت) فوجدت فيها أربع مقالات علمية يتحدث فيها أصحابها عن الشيخ، فكان سروري عظيماً وشكري لهم - مع

بعدي عنهم - جزيلاً وهي:

١ - مقالة بعنوان «تجربتي مع الشيخ» للأستاذ غالب بن أحمد المصري - رعاه الله - يحمل درجة الماجستير في الآداب الإنجليزية.

٢ - مقالة بعنوان «الأستاذ الشيخ محمد أديب كلكل كما عرفته» للدكتور مرهف بن عبد الجبار سقا - حفظه الله - المتخصص بعلوم القرآن والتفسير.

٣ - مقالة بعنوان «من ذكرياتي مع الشيخ» للأستاذ عوض بن محيي الدين قناني - حفظه الله - المدرس لمادة اللغة الإنجليزية في مدارس حماة والكويت.

٤ - مقال بعنوان «الشيخ الذي عرفت ذاتي عندما عرفته» للأستاذ عماد مفيد زغرات، الذي يحضر الآن للحصول على درجة الماجستير في الفقه المقارن.

ثم عثرت على مقالة تعدّ وثيقة علمية متميزة لأن شيخنا الجليل كتبها بخط يده عن أسرته ونشأته وتكوينه العلمي ومنهجه، وعنوانها بـ«اللمحة» وتمثلت لفرحي بها المثل القائل: كل الصيد في جوف الفرا^(١)، وحمدت الله على أن هياً لي السبل بوجود المادة العلمية الوفيرة الموثقة التي تكفي لقيام عمل علمي يتصل بحياة الشيخ وآثاره، وشكرته سبحانه وتعالى لانصراف الصوارف عني والشواغل - وما أكثرها - فالطريق - إذن - أصبح لاحقاً ممهداً للكتابة، لاسيما أن بشائر التوفيق لاحت، وأمارات التيسير أضاءت، وقد قالوا: علامة الإذن التيسير.

تدفعني - فوق هذا وذاك - إلى الكتابة عن شيخنا الأسباب الآتية:

١ - إبراز عالم من علماء حماة المشهورين المعاصرين، ممن جمعوا بين الشريعة والحقيقة، والرواية والدراية، فهو ممن اتسعت دائرته في العلوم والفنون، وحياته العلمية، ومؤلفاته

(١) مثل يضرب في الواحد الذي يقوم مقام الكثير لعظمه، والفرا: الحمار الوحشي مقصور أصله الهمز أي: الفراء.

تشهد له بذلك .

٢ - أن للشيخ آراء شرعية رجّحها على غيرها لقوة دليلها، فكم من رأي أيّده بالأدلة الناصعة؟ وكم من قول ضعّفه بالحجج القاطعة؟ لذا فمن الواجب العلمي بيان هذا الجانب، ليفيد منه الباحثون المختصون فيما بعد، وفي ذلك إثراء لمكتبة العلوم الشرعية.

٣ - أن الشيخ يمثل مرحلة تاريخية، يجب أن يؤرخ لها، فمن نظرة سريعة على كتاب واحد من كتبه وهو إتحاف السائل تبدو المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع، مع تقديم الحلول الشرعية لها، ناهيك عن حياته العلمية التي تعدّ سجلاً حياً يبرز الحركة العلمية النشطة في هذه البلدة الطيبة، وكل ذلك يفيد في رصد الحركة العلمية في هذه المرحلة التي تمر بها سورية عامة.

٤ - أن للشيخ منهجاً علمياً متزناً نافعاً، وطريقاً تربوياً متميزاً ناجعاً، وفي بيانه بصورة واضحة فوائد جمة، ومنافع عظيمة، يستفيد منها الدعاة والمربون، فيبتعدون بسلوكه عن المزالق، وينأون بهديه عن المهالك.

٥ - أن العلماء الأولياء العارفين الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة باتوا في هذا الزمان كالكبريت الأحمر لندرتهم، فلعل الحديث عن واحد منهم كأستاذنا حفظه الله يدفع بغيرهم ممن التزم بجانب دون آخر - وما أكثر هذا الصنف اليوم - أن يستكمل ما فاته لتعمّ فائدته، وينتشر نفعه في مجتمعه، فما أكثر العلماء الغفلة، وما أكثر العلماء الجهلة أيضاً، والعالم الحق هو من نور الله قلبه وعقله معاً.

لهذا كله أمسكت بالقلم وسطّرت ما أعتقد أنه في هذه المرحلة هو الأهم^(١)، فاقضى

(١) لأسباب كثيرة حذفنا كثيراً مما يتصل بالشيخ وتراجم تلامذته، ولعلنا في طبعات أخرى نضيفها بعد استكمال المادة العلمية لذلك.

العمل أن يكون وفق الخطة الآتية:

- ١ - الفصل الأول: اسمه وأسرته ونشأته.
- ٢ - الفصل الثاني: صفاته وأخلاقه ومنهجه في الحياة.
- ٣ - الفصل الثالث: تكوينه العلمي وثقافته، ويشمل المباحث الآتية: شيوخه وأساتذته وقراءاته.
- ٤ - الفصل الرابع: النشاط العلمي والتربوي، ويشمل المباحث الآتية:
 - ١ - دروسه العامة والخاصة (دار المشايخ).
 - ٢ - منهجه التعليمي والتربوي.
 - ٣ - مؤلفاته ومنهجه العلمي.
 - ٤ - شعر الشيخ ونثره.
- ٥ - الفصل الخامس: مناقب الشيخ.
- ٦ - الفصل السادس: تلامذة الشيخ.
- ٧ - الفصل السابع: ثناء العلماء على الشيخ، وصلاته العلمية.
- ٨ - الفصل الثامن: أقواله وإرشاداته.

وختمنا الكتاب بملاحق مصورة لتكون ذكرى - فيما بعد - منورة.

أخيراً أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا العمل المتواضع، وأن يجزل الأجر والمثوبة لكل من شارك فيه، وأن يقيدنا جميعاً لخدمة العلماء الأولياء ورّاث الأنبياء، وأن يحسن الختام، ويحشرنا جميعاً مع سيد الأنام، اللهم آمين.

قاله وكتبه

محمد رياض الخوام

الأردن - عمان

الفصل الأول

اسمه وأسرته ونشأته

أ - اسمه ونسبه:

هو فضيلة الشيخ محمد أديب بن علي بن محمد ديب كلكل، ولد في الثاني عشر من شهر أيلول عام ١٩٣٤، في مدينة حماة، في حي الشرقية، في منطقة الحاضر. وفي نسب أسرته قولان:

الأول: وهو ما حدثته به والدته - رحمها الله - أنهم ينتسبون إلى البيت النبوي الشريف، وأن هذا النسب كان عند أحد أعمام والده - رحمها الله تعالى. وقد فُقدَ من عنده. والثاني: أنهم من عشيرة الموالي، لأن بني كلكل عشيرة من عشائر الموالي^(١).

ب - جده:

ولد جده لأبيه (محمد ديب بن محمد كلكل) في حماة أيضاً عام ١٨٥٢ م وتوفي فيها عام ١٩٣١ م، وله من العمر تسعة وسبعون عاماً، وأمه اسمها خديجة.

ج - أبوه وأمه وولادة الشيخ:

أما والد الشيخ (علي بن محمد ديب) فقد ولد في حماة عام ١٨٩٤ م واسم أمه مريم من

(١) انظر للمحة ١.

بني شهاب، وتزوج السيدة آمنة بنت محمد كركوز من بني شهاب أيضاً، واسم أمها رقية،
فهما ابنا خالة.

ولدت أم الشيخ في محلة الشرقية عام ١٨٩٩ م وتوفيت - بلّ الله ثراها بوابل ألطافه
ورحماته - في ١٤ من شهر ربيع الأول وذلك يوم الجمعة وقبل صلاة الجمعة بنحو ساعة
ونصف تقريباً من عام ١٤٠٥ هـ الموافق لـ ٧ من كانون الأول عام ١٩٨٤ م ولها من العمر
خمسة وثمانون عاماً، وقد تزوجها والد الشيخ في ٢٣ من شهر شباط عام ١٩٢٢ م، وكانت
وفاته في ١٨ من تشرين الأول عام ١٩٣٨ م الموافق لـ ٢٠ من شعبان عام ١٣٥٧ هـ، وله من
العمر أربعة وأربعون عاماً، وعاش مع زوجته مدة ستة عشر عاماً فقط، أنجبت له خلالها
عدداً من الأولاد ذكوراً وإناثاً ماتوا جميعهم ماعدا الشيخ محمد أديب وهو الأخير فيهم، وقد
توفي والده وكان عمره أربع سنوات فقط.

وحين كانت أم الشيخ حبل بالشيخ رأت في المنام شيخاً لا تعرفه قال لها: إنك ستلدين
ذكراً وسوف يعيش ويحيا، فاطمأنت لهذه الرؤيا واستبشرت خيراً، ثم تمت الولادة ففرحت
به فرحاً عظيماً، وأيقنت بصدق الرؤيا، فغمرتها السعادة بمولده، وعم في أرجاء بيتهم الفرح
والسرور.

ورحم الله من قال:

بشيء ترقّب يا بُنَيَّ ظهوره	إذا القومُ أهلُ الله بشرَ بعضهم
ولا بدّ أن الله يُكْمِلُ نوره	فوعدهم من نورِ حضرة ربه

د - اسمه المشتهر به:

حين أرادت أمه أن تسجله في دائرة السجل المدني المسمى «بالنفوس» - وكان أبوه
مسافراً - وكّلت امرأة من جيرانها لتقوم بذلك فسمّته تلك المرأة عبد الرزاق، ولم تخبر والدته

بذلك، مع أن أمه - رحمها الله - أطلقت عليه اسم محمد ديب - وهو اسم جده واسم أخ له قد توفي - ولم تعلم أمه أن اسمه في السجل المدني صار عبد الرزاق، فبقي اسم محمد ديب مشهوراً، واسم عبد الرزاق منسياً مطوياً حتى وقت تسجيله في الصف الأول الابتدائي علمت حينئذ أن اسمه في النفوس هو عبد الرزاق، لكن محمد ديب هو الذي انتشر واشتهر به.

هـ - نشأته:

لم تك تعلم والدته أن هناك رحلة صعبة مع هذا المولود الجديد تنتظرها، فها هو والده - رَوِّحَ الله روحه وأسعدها - توفي وعمر الشيخ أربع سنوات فقط، فكفلته أمه ترعاه وتحنو عليه، جاهدة أن تعوّضه حنان أبيه وعطفه، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى دفعت به إلى الشيخة (زهرة) زوجة الشيخ (عبد الرؤوف العبيسي)^(١) من أجل تعلّم القرآن الكريم كما هي العادة في ذلك الزمان، وبقي عند الشيخة زهرة حتى ختم القرآن كاملاً حفظاً من القرآن، ثم نقلته إلى المدرسة المحمدية الشرعية المقامة على سطح الجامع الشرقي فتدرّج فيها حتى انتهى من المرحلة الابتدائية وحصل على شهادتها المسماة «سورتفيكا» ثم التحق بالقسم الإعدادي في المدرسة نفسها، وكانت مدة الدراسة في هذا القسم أربع سنوات، فلم يستطع الاستمرار فيها لضيق العيش، وقلة المورد، فتوقف عن الدراسة ونفسه تواقّة للعلم، لقد نشأ الشيخ يتيماً فقيراً لا يملك من متاع هذه الدنيا سوى ما تركه له والده - رحمه الله - وهو بيت بسيط أكثره من لبن التراب، وكانت أمه - رحمها الله - تعمل بنسج الحصر (حصر القش) في البيت، وتبيع ما تنسجه خلال أسبوع أو أكثر فتعيش مع ولدها بثمره عيش الكفاف، لم يكن له عم ولا أخ ولا أخت، ولا مساعد يقدم مصروفاً للشيخ لإتمام تعليمه، لذا وضعت والدته عند جار لهم

(١) كان رحمه الله تعالى صاحب كتاب في حي الشرقية، مشهور بالصلاح والاستقامة، جعل الله قبره روضة من رياض الجنة، اللهم آمين.

ليعمل نجاراً وعمره حينئذ اثنا عشر عاماً، ثم عمل مصلحاً للأخذية في العطل الصيفية، لكنه - أيده الله بتوفيقه - خلق ليكون عالماً مبرزاً، كان - حفظه الله - يتألم كثيراً لحاله، المهمة العالية والعزيمة قوية ولكن الفقر كان أقوى، مما أدى إلى صراع نفسي عنيف عانى منه الشيخ كثيراً، ولقد علمت بأنه فكر بالانتحار مرتين، بل أمسك بالشفرة بيده لقطع عرق من عروقه ولكن اللطف الإلهي حفّه فلم يتم له ما عزم عليه، لأن الله خلقه كما ذكرت ليكون عالماً مبرزاً فهو كما قال الشاعر:

غافلٌ والسعادة احتضنته وهو عنها مستوحشٌ نفّارٌ

وفجأة شعر بميول عجيبة وغريبة نحو دراسة العلوم الشرعية، فعرض الأمر على الشيخ محمود الشقفة - رحمه الله - وشكا إليه حاله، طالباً منه أن يرعاه، وأن يتولاه تربية وتديراً، فوعده الشيخ بذلك، بشرط أن يعمل عنده في المحمدية الشرعية، في القسم الابتدائي معلماً فيها لقاء أجر زهيد، فرضي به ليسد رمقه ويدفع به فقره، وكم كان يتمنى في هذه المرحلة أن يدرّسه الشيخ محمود دروساً شرعية، ويكتشف فيه القدرات العقلية العالية ليقوم بتوجيهه وإرشاده، وبقي متابِعاً للشيخ محمود حتى قرأ عليه بعدئذ عدداً من الكتب كما سيأتي.

والمهم أن الشيخ بقي يدرّس في المدرسة المحمدية في القسم الابتدائي ثم الإعدادي مدة اثنتي عشرة سنة، مرّ فيها بمحن كثيرة كادت أن تغير مجرى حياته، لكن إرادته الصلبة، وشكيمته القوية، وهمته العالية، وعناية الله التي تحوطه جعلته أقوى من هذه المحن، فبقي شغوفاً بالعلم مشغولاً بتحصيله، حتى أبرزه الله على حاسديه ومعانديه، فهو كما قال الرواس:

وجَلّنتني يدُ العناية بدرّاً وقد تعالى مرآه عن كيوان^(١)
لا تخفّ صدمة الزمان بحال أنت ما زلت في مقام الأمان

(١) اسم نجم عال في السماء.

ولقد ذكر تلميذه الفاضل أستاذنا اللامع غالب المصري محنة الشيخ مشيراً إلى تألقه في مهنة التدريس فقال:

استمر الشيخ محمد أديب كلكل مدرساً في المحمدية الشرعية حوالي اثنتي عشرة سنة، كان خلالها مدرساً ناجحاً مخلصاً متميزاً حتى إن كثيراً من الآباء كان يسجل أبناءه في المدرسة ثقة به وحباً له وحرصاً على فائدة هؤلاء الأبناء^(١)، وحدث أن إدارة المدرسة قامت بإغلاقها ونقلت معظم مدرسيها والعاملين فيها إلى التكية ما عدا الشيخ محمد أديب كلكل لحسد الأقران ووشاية الحساد، إذ إنهم استطاعوا إقناع الشيخ محمود - رحمه الله - بعدم نقل الشيخ محمد أديب للتدريس في التكية، فحزن الشيخ محمد أديب واغتم لذلك كثيراً، لاسيما أنه كان على ثقة بأن الطلاب يفيدون منه أكثر ممن اختيروا للنقل إلى التكية بل هم ليسوا على كفاءة علمية كالتي يعرفها الناس في الشيخ رعاه الله.

والأدهى من ذلك أنهم فصلوا الأستاذ من غير أن يعوضوه أو يكافئوه على سنوات خدمته السابقة عندهم، وحين علم أولياء الطلاب ما حدث للشيخ أشاروا إليه بأن يفتح مدرسة خاصة، ينقلون أولادهم إليها من المدرسة المحمدية، ولتكن بدايتها افتتاح مدرسة في الإجازة الصيفية تكون نواة للمدرسة الخاصة الدائمة.

فاقتنع الشيخ محمد أديب بالفكرة واستأجر - أعزه الله - دار الحاج عبد الكريم صوي، وتسجل فيها عدد كبير من الطلاب، وفوجئ الشيخ باستدعائه من قبل الجهات الأمنية، وبعد مراجعات كثيرة أخبروه بقولهم: إننا لا نسعى إلى إيذاء أحد، ولكن في محيطك أناس لا يخافون الله^(٢).

(١) كنت واحداً من هؤلاء الطلاب الذين سجلهم آباؤهم في المدرسة لأن الشيخ مدرس فيها.

(٢) تجربتي مع الشيخ ص ٢٤.

وبقي الشيخ رابط الجأش قوي العزيمة، لم تزده هذه المحنة إلا صلابة وقوة، وهو مؤمن أن وراءها حكمة غيبية، ومكرمة ربانية، فالعارف - كما يقول الرواس - : «ممتحن بالناس، أعداؤه الجاهلون، وحساده المراءون... وما من عالم آتاه الله الحكمة وأفاض عليه نور العرفان إلا وبغى عليه الممكورون وراموا إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره».

واشتد حزنه كثيراً على فراق شيخه، فالمال عنده ليس له قيمة - مع شدة احتياجه إليه - أمام بعده عن شيخه، والخوف من مجافاته، لكن الحاسدين أحكموا المؤامرة، فشكا بثه وحزنه إلى الله مؤمناً بقول الرواس:

قُلْ مخلصاً وتُكفَى الله حسبى وكفى

ويسلي نفسه أيضاً بقول شيخه السيد أحمد الرفاعي:

ولستُ أبالي من رماني بريئة إذا كنتُ عندَ الله غيرَ مريبٍ

إذا كان سري عند ربي منزهاً فما ضرني واشٍ أتى بغريبٍ

وبقول بشر الحافي: «إذا أراد الله أن يتحفَّ العبدَ سلَّطَ عليه من يؤذيه»^(١).

ولقد كان الشيخ محمد أديب مدركاً ما لهذه المحنة من آثار، ومستشرفاً أن وراءها فرجاً

قريباً، ولعلها من جملة الابتلاءات التي تثمر عن مقامات يدركها أهل الفطن، ويقينه يقول:

كلما رامَ حسودي ذلَّتِي قال ربي رُحْ عزيزاً لا تحفُ

وبمحضِ الفضلِ أعلى رتبتي وحباني منه بالغيبِ الشرفُ

وانطلق الشيخ يسعى فاتجه - رعاه الله - إلى التجارة، ففتح دكاناً قرب الجامع

الشرقي يبيع فيه المواد التموينية (بقالية) وشريكه فيها هو الأخ المرحوم محمد محيي الدين

العثمان - رحمه الله - وبقي الشيخ يعمل مع شريكه في هذه الدكان مدة خمس سنوات، ثم ترك

(١) انظر طبقات الأولياء لابن الملقن ص ١٠١.

هذه الدكان، وعمل بتربية الدواجن في مزرعة، واشتغل معها محاسباً في مطعم (فروج زين العابدين) في منطقة الحاضر، وافتتح الآن مكتباً لبيع الأدوية البيطرية، أما مزرعته التي تربي فيها الدواجن فقد استملكتها البلدية الآن وهو راض بقضاء الله وقدره

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي أصابني من طبيبي
وخلال هذه الرحلة الصعبة التي قطعها الشيخ بإيمانه الراسخ وإرادته الصلبة، لاحت له إشارة بالزواج - كما يقول - بعد أن كان مصمماً على أن لا يتزوج أبداً، فخضع لهذه الإشارة ولبي، فكان من نصيبه زوجه الفاضلة عزيزة بنت عبد الرحيم الخضر (الفرا) من حي البارودية، وجدها لأبيها الحاج خضر الخضر إمام جامع الزاوية الحراكية في حي البارودية، وأبو جدها الحاج أحمد الخضر الرجل الصالح المعروف عند أقرانه، وكان عقد قران الشيخ في ١٣ من أيلول عام ١٩٦٩ م وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً، وقد رزق من زوجه ثلاثة ذكور هم: محمد علي و محمد زاهر و محمد أنس، وخمس إناث هن: أمّنة وفاطمة وأماني وريحانة وشفاء، أنبتهم الله نباتاً حسناً، وجمعهم على الخير والهدى، وأقامهم على المحجة البيضاء، وجعل منهم النسل الكثير الطيب المبارك، وجعلهم قرّة عين، اللهم آمين^(١).

حدثني من أثق به نقلاً عن ابنه بأنه - رعاه الله - محب لاجتماع أسرته (أولاده وأولادهم وبناته وأولادهم) وله بعد صلاة العشاء في هذه الأيام وقد كثرت آلامه وأسقامه جلسة معهم يعطيهم من تجاربه، ويرشدتهم نحو الخير، ويتناول الطعام معهم، فيشعرون بالدفع والحنان، والحبور والسرور، أما إذا دخل إلى مكتبته فلا أحد يدخل عليه إلا للضرورة.

وابتعد الشيخ خلال رحلته هذه عن وظائف الدولة لأن ذلك - كما يقول - جزء من منهجه في الحياة، وقد عاهد الله على ذلك، وهو دائم التكرار أنه - والحمد لله - قد سلك الطريق الصعب في هذه الحياة، قال:

(١) اللوحة ص ٩ بتصرف.

لو أردت بيع نفسي بعرض من الدنيا لبعثتها منذ زمن بعيد، ولما رضيت بالقلة وشظف العيش وضيقه، لقد عرضت علي وظائف كثيرة، ولكنها مشروطة ومقيدة فرفضتها ودستها حفاظاً على العزة والكرامة، ووفاء بما عاهدت الله عليه، وإن مع العسر يسراً^(١).

وفي هذه الأيام عُرِضَ عليه منصب الإفتاء لكنه رفضه ورعاً وزهداً وتمسكاً بمبدئه، لكن هذا المنصب جاءه وهو جالس في دكانه وفي منزله، فالناس في البلدة لا يستغنون عنه، فهو شيخهم ومفتيهم، فجاءته الفتيا - كما قالوا - وهو لها كاره.

وما يزال الشيخ حفظه الله يعمل مع أولاده في الدكان، وخلال هذه الرحلة كلها كان كما يقول الأستاذ غالب المصري «موتلاً للسائلين عن أمور العلم وقضايا الشرع»، ولم يهمل دوره في الدعوة والتعليم والإرشاد ونشر العلم، فكان وما يزال يقصده طلاب العلم لينهلوا من هذا المعين الصافي النقي بعد أن رحل جلّ العلماء، وأصاب المدينة قحط علمي ترك الساحة شبه خالية لأشباه العلماء وأرباب التصوف المنحرف والإفتاءات العجيبة^(٢).

وقد أكد على هذا المعنى مثنياً على هذا الموقف الأستاذ عوض القناني بقوله: ورغم العواصف الهوجاء التي نزلت بساحة حماة حيث هرع الناس للخارج طلباً للمال، وحباً في الحصول على الثروة المالية، فقد ثبت الشيخ ثبوت الجبال الرواسي، وأكد مرات عديدة على لصوقه بهذه البلدة الطيبة، فاكسب رضا الله ثم المكانة العالية^(٣).

وفق الله الشيخ وأيده بتأييده، وأجزل له الأجر والمثوبة، وفرّحه في الدنيا والآخرة، فهو غيث أينما وقع نفع.

(١) المقالة ١١.

(٢) تجربتي ٢٤٠.

(٣) من ذكرياتي ٥.

الفصل الثاني

صفاته وأخلاقه ومنهجه في الحياة

أسبغ الله على الشيخ من المنح ما لا يعد، ومن العطايا ما لا يحد، فوجهه يتلألأ بشراً وضياءً، وينبلج نوراً وإشراقاً، أحمر الوجه، ذو قامة ربعة^(١)، أذكره صاحب لحية سوداء صارت الآن بيضاء منورة، وعينه سوداوان تنبعث منهما نظرات يستشعرها العاصي سهاماً، ويتلقاها الصافي مدداً وسلاماً، لباسه بسيط، جلالية نهايتها فوق الكعبين، ومعطف طويل إلى الركبتين «الساكو» يلبسه أيام الشتاء، ويضع على رأسه الطاقية المصنوعة من الصوف المسماة بـ«الباكستانية» أيام الشتاء، والحطاطة «الغتر» البيضاء أيام الصيف، طلعتة جميلة، وهيبته جليلة، ففي روحه جلال وجمال، يشعر بذلك أهل الذوق والحال، يأسرك حديثه، ويجذبك محضره، لا يفتر مجلسه عن حديث علم، أو ذكر، ولا يتوقف عن نصيحة أبوية، أو رقيقة سلوكية، مزحات لطيفة، ونكتة ظريفة، لسانه عفيف بليغ، لا تسمع منه كلمة نابية حتى مع تطاول الحاسدين، وجحد الشامتين، وفي صوته غنة خفيفة جعلته شجياً ندياً، وخطواته وسيدة في ذهابه إلى حضور الجماعة، وخشوعه في صلاته يلفت إليه الأنظار، يغض طرفه في الطرق، ويخفض صوته إذا تكلم، قليل الالتفات في مشيه، فالمهابة على كل حال تعلوه، والسكينة في كل جلساته وأوقاته تكسوه.

(١) أي متوسط القامة.

لله درّه، كريم مع فقره، وعزيز مع يتمه، عالي الهمة، قوي الشكيمة، موفور العزيمة، حاد الطبع إذا رأى منكراً أو مناقشاً جاهلاً متعسفاً، لكنه متواضع مع إخوانه وطلابه، لين الجانب، يتجاوز عن السيئات، ويقل العثرات، ويقابل بالإحسان الإساءات، أثر الخلوة وحب العزلة وقلة المخالطة، حتى عُرف بين الناس بذلك، لكنه كما قال الرواس - رحمه الله -:

يا مَنْ عن الأغيار ولّى وجهه حباً بنا بُشراك صرّت وجهها
حضرائنا هُنَّ الخزائنُ فالتقطُ منها العقودَ فكلُّ خيرٍ فيها

عرفه أهل حيّه منذ صغره صدوقاً عفيفاً تقيّاً نقيّاً، وأدركه الناس الآن عالماً عاملاً زاهداً ورعاً، فهو مستودع أسرارهم، وحلّال مشاكلهم، مفتي البلدة بلا منازع، عزّ نظيره، وقلّ مثيله، وما ذاك إلا لأخلاقه الفاضلة وشيمه الكريمة، وطبائعه اللطيفة، فأكرم به من رجل جبلت القلوب الصافية على حبه، واتفق العلماء الأثبات المحققون على علمه، فهو من حسنات مدينة أبي الفداء، ومن فلتات علمائها الأجلاء، هيأه الله لتلك المرحلة التي عزّ فيها العلماء، وندر فيها الشيوخ فهو كما قال الرواس:

يكونُ من بعد طيٍ نشرٍ مظهره وكلُّ شيءٍ له وقتٌ وإبانُ
وإن أنكر فضله حاسد، وجحد مناقبه جاحد.

ورحم الله القائل:

ما ضرَّ شمسَ الضحى في الأفق طالعةً أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصرٍ

وقد أفاض طلابه وأحباؤه في ذكر صفاته وأخلاقه، وكلهم مجمع على أن جبلّته جبلت بهاء الفضائل والمكارم، قال الأستاذ غالب المصري: «وكان واسع الصدر متقبلاً للنقد، بل صابراً متحملاً لكثير من التصرفات الرعناء التي كانت تظهر من بعض الشباب المتعصبين لبعض الجماعات، فقد حضر أحدهم جلسة لحفظ القرآن وتفسيره، وعندما جاء دوره في التسميع التفت إلى الأستاذ وقال له بلهجة المختبر وأسلوب المشاكس: هل تحفظ أنت هذه

السورة؟ فأجابه الأستاذ بهدوء: نعم، اسمعها لي، ثم تلاها عليه فما كان من ذلك الشخص إلا أن خرس ولم ينبس ببنت شفة^(١).

وكان في علاقته بطلابه متوازناً جداً، يرفض أن نقبل يده، لكنه يشجع على تقبيل أيدي العلماء العاملين، وكان يكتفي معظم تلامذته صغاراً وكباراً بكنية أو اسم أحد الصحابة بما يتلاءم وشخصية الأخ وهوأيته، ويناديهم بالكنية من باب التكريم، وكان يبتسم ويش عند استقبال أي واحد من طلابه، وقد ساعد كثيراً من طلابه الذين ضاقت بهم - أحياناً - السبل، فمن دكانه في حي الشرقية كان يساعد بعض طلبة العلم، ويشجع حاجتهم، ولم يكن يرضى لأي واحد من طلابه أو معارفه أن يمد يده إلى أحد، وتميز بالخط الجميل البديع فكان يدخل السرور على نفوس طلابه بكتابة أسمائهم بخط جميل على دفاترهم، وما زلت أذكر خطه الرائع هذا على دفتر كنت قد خصصته للفقه، كما كتب للأخ غالب المصري على دفتر فيه بعض القصائد بعنوان «مذكرات أدبية» ما زال الأستاذ غالب يحتفظ به^(٢).

وأخبرني الأخ حمدو حمشو عن مدى عناية الشيخ بطلابه قائلاً: «عندما كنت في الصف العاشر، رآني الشيخ غير مهتم بالدراسة، فقال لي: سوف آتي إليك صباح كل يوم لنقرأ معاً، ففرحت فرحاً شديداً، وفعلاً كان الشيخ يأتي دارنا حوالي الساعة العاشرة صباحاً ويبقى معي حتى أذان الظهر حيث نذهب للصلاة، وبعدها أذهب إلى المدرسة لأن الدوام كان بعد الظهر، وبقي على هذا الحال مدة من الزمن حتى اطمأن على دراستي، ولم أسمع منه كلمة نائية مدة صحبتي له، وقد دامت أربع سنوات».

ويضيف الأستاذ عوض قناني ما رآه في شيخه من الأخلاق الفاضلة، والشهائل الحسنة

(١) تجربتي ١٠.

(٢) تجربتي ١٣ - ١٤ بتصرف.

فيقول: «كنت أسمع منه قوله: (كل يوم تطلع فيه الشمس لا أتقرب فيه إلى الله فلا بورك بهذا اليوم) لقد كان حريصاً على الوقت يستشهد دائماً بالمثل القائل: (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك) وكان ورعاً جداً ومن شدة ورعه لم يعتل المنبر لخطبة الجمعة أبداً - مع أنه خطيب مفوه مصقع - وكان يقول هذا مقام الأنبياء، كما أنه لا يقف إماماً إلا للضرورات ورعاً وخوفاً، وكان شديد النكير على من يخلق لحيته ولا يتركها خاصة ممن كبر سنه، فيقول للناس: الشب فرح، أما أنت أيها العجوز فإنك تخلق لحيتك، اذهب واستر حدودك المخففة بسنة رسول الله ﷺ، وكان جميع إخوانه يتربعون على عرش قلبه، ويسكنون فؤاده، يسعى إلى تزويجهم كما فعل معي، إذ ذهب إلى أهل زوجتي - كما يقول الأخ عوض القناني - وأكد خطوبتي منهم، وساعدني على توفير المهر لهم، حفظه الله ورعاه، وكان يكره أن تنتهك حرمت الله، أو أن يلجأ الناس إلى عادات مستقبحة مضرة، فيوم عرسه ترك الذين ينشدون ويزفونه وتوجه إلى أحد طلابه ليأخذ منه المسدس الذي كان يطلق به الرصاص ابتهاجاً بعرس الشيخ، أتحفه الله بهذه العلوم بسبب تقواه، أينما حلّ وقف الناس له إجلالاً واحتراماً، وتنخفض الأصوات حين حضوره ليسمعوا منه الفوائد والعظات، وهو الآن يسعد كثيراً حين يأتي طلابه القدماء إليه فيستعيد معهم الذكريات، فيتشوقون حزناً على انقضائها، فيذكرهم بشاي الشيخ ياسين الهاني الذي كان يصنعه يومياً بعد الانتهاء من الدرس في دار المشايخ، ويعرّج على وسوسة عوض - المفيد بهذه المعلومات - إذ كان موسوساً جداً في غسل الملابس، والشيخ يلاحقه حتى تخلص منها، كما يذكرهم بحدة الأخ عبد الله كرزون إذ كان كالنار المحرقة إذا غضب، كما يذكرهم بقرصات الأخ عبد القادر الرئيس الشديدة المؤلمة سواء كانت بيديه أو بقدميه، فترى جلد المقروص ملتهباً، وأخيراً يترحم على محمد العثمان (الكاش) صاحب الإحساس المرفف الذي ما إن تلمسه حتى يجفل ويطيّر من شدة

اضطرابه، وكل ذلك والشيخ يتسم ويدعو للجميع بالخير والرحمة والهداية^(١).

ولعلي لا أبتعد عن الحقيقة إن قلت: كأن الشيخ على دراية كاملة بمن يكون من نصيبه من طلاب العلم وبمن يكون من نصيب غيره من المشايخ، إذ أذكر أن أحداً من الإخوان حضر إلى دار المشايخ وبعد مدة سمعت الشيخ يقول: إنه ليس من نصيبي، حبذا لو ذهب إلى الشيخ محمود الشقفة فهو من نصيبه، وفعلاً ذهب هذا الأخ إلى الشيخ محمود وبقي عنده وصار من جملة طلابه وما زال محسوباً عليه، وفقه الله ورعاه.

أما تلميذه الفاضل الدكتور مرهف سقا فقد لفت انتباهه ذلك الإيمان القوي الذي يسكن سويداء قلب الشيخ، فأثمر عن هذه الأخلاق العالية قال: إن شخصية الشيخ فيها من الاستقرار النفسي والرضا العميق والتسليم ما جعل الشيخ يستوي عنده المدح والذم، فلم يكن من الذين ينجرون وراء مادحيهم بالاهتمام والمبادلة بالمديح، ولم يكن من الذين يغضبون لأنفسهم ويقابلون الذم بالذم أو الشتم، على العكس فإني أعتقد أنك لو جلست أمامه مادحاً الساعات ما زاد ذلك في قناعته بنفسه، وبقدر ذاته شيئاً، لقد كان بحق كما قال الجنيد معرّفاً الإخلاص: «هو أن يستوي لديك المديح والذم...».

وبيّن الأخ مرهف سقا أثر هذا الإيمان العميق في نظرة الشيخ إلى أحوال هذه الأمة قال: «ويتجلى هذا الاستقرار الإيماني في نظره لحال الأمة، مع كثرة الأخبار المحبطة والتي لا تبشر بخير، فقد سمعته مرات كثيرة يقول: (لا يمكن لهذه الحال أن تبقى على ما هي عليه، لا بد أن يتغير الخطأ مهما طال لأنه خلاف القاعدة، وما يحصل اليوم إنما هو مخاض ولادة الخير والإسلام، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يرفع فيه علم الإسلام على سقف الفاتيكان بإذن الله). وأذكر مرة أني اتفقت مع أحد الإخوة المشتغلين بالدعوة والتبليغ وقد كان في سفر

(١) من ذكرياتي مع الشيخ ٣-٤-٥.

لأجل ذلك، اتفقت معه أن يأتي لزيارة الشيخ ويحدثه بالأخبار السارة عن أحوال المسلمين التي شاهدوها في سفرهم ولا نسمعها إلا منهم، وكنت أقصد بذلك أن أخفف على الشيخ من الأخبار السيئة وأدخل على قلبه السرور والطمأنينة، وبالفعل أتينا إلى الشيخ في مكتبه وعرفته بشيخنا وأخبرته أنه كان في سفر لأجل الدعوة إلى الله، وأخذ صاحبنا يحدثه عن أحوال المسلمين ورجوعهم إلى الله وأنهم بحاجة فقط إلى من يذكرهم، وأن الأمة بخير، وبعدما انتهى، أنفاجاً بالشيخ يقول: (الحمد لله أنا لست آيساً من حال الأمة، ولست محبطاً لذلك وإن كنت منزعجاً، وأعلم أن الله تعالى لن يترك أمة نبيه، وأن الحق لا بد أن يعود، بل إن هناك من المبشرات ما هو أكثر مما قلت...) وأخذ يذكر من الآيات والأحاديث التي تبشر بالنصر وزوال الظلم، ووجود الخير في أمة سيدنا محمد ﷺ، ولا أنكر أنني خجلت على نفسي عندما سمعنا من شيخنا ما كنا نريد أن نسمعه له.

وأشار إلى سرعة غضبه إذا انتهكت حرمة من حرمت الله قائلاً: «ولكن كان شيخنا أمد الله في عمره سريع الغضب والانفعال - حاد المزاج - خاصة عندما تنتهك حرمة من حرمت الله، أو يسمع خبراً سيئاً عن أحوال المسلمين في العالم، بل كانت صحته أيضاً تسوء لذلك، وينفعل أيضاً عندما يخطئ بعض الناس في تطبيق الأحكام الشرعية.

وقد كان بعض الإخوة ممن يزورون الشيخ دائماً يأتيه بالأخبار المزعجة، ويقصها عليه بأسلوب مستفز، وكنت أرى الشيخ يتلون وجهه عند سماعها ثم ينفعل ويعلق على ما سمعه بغضب رحمة بالمسلمين واهتماماً بشأنهم، حتى إني قلت مرة لأحدهم بعد خروجنا من عند الشيخ حفظه الله: أن يخفف من حدة كلامه، ومن مواد أخباره، رحمة بالشيخ فهو مصاب بالسكري وقد يؤثر ذلك عليه».

وبين حفظه الله أيضاً تواضع الشيخ وبساطته الدالة على أخلاق العلماء قال:

«ومن أكثر ما يغضبه أيضاً القاصرون فقهياً، الذين لا يعلمون من الفقه إلا شرح عبارات الكتب الفقهية فقط دون النظر في روحها وعللها ومقاصدها ومناسبتها لواقعنا، ويريدون التحكم بفتاوى طلاب العلم معتبرين أنفسهم حراساً للمذهب الشافعي في مدينة حماة.

ومن أخلاقه أعزه الله التواضع الفطري، وأقصد به غير المتكلف، فلم يكن يرى نفسه أكبر شأنًا من أحد، ولا يرضى لنفسه أن يضعها في مصاف العلماء مع أنه أهل لذلك، بل يغضب إن أحد أثنى عليه بالعلم، مع أنه امتاز فيه، ويسمع لطلاب العلم ويباد لهم الحديث في الشؤون العلمية وأحوال الأمة مهما كان سنهم».

وعرّج على ظرفه وكيف يفكّه جلساءه بالمزاح والمداعبة الطريفة قال: «لسان المهابة في وجهه، تقرأ فيه عزة الإسلام وقوة الإيمان، وإذا أردت أن تعرف السكينة فانظر في مشيه وجلوسه، طويل التأمل والتفكير أغلب كلامه إن لم أقل كله في العلم والفقه والمعرفة وشؤون أمته ودينه، حاضر الذهن والدليل، بليغ الحجة والبيان، صاحب نكتة وطرافة، أذكر مرة أن سائلاً سأله في مسألة طلاق معلق فقال له: يا شيخي قلت لزوجتي إن ذهبت إلى بيت فلانة (جارتهم) فأنت طالق، وقد ذهبت، فماذا علي أن أفعل؟ فقال له الشيخ: (يعني حاطط عينك على وحدة تانية، بدك تتخلص من مرتك مشان تتزوجها؟) فرد السائل بانفعال ليبراً من التهمة بأدب وقال: لا يا شيخي، والله كنت غضبان ومزعوج بس بدى هدها. فضحك الشيخ ومن كان جالساً، ففهم السائل أن الشيخ كان يمزح معه، وأنه أراد أن يهدئ من روعه، لأن الشيوخ الذين سألهم قالوا له بأن زوجته طالق منه، ثم حلفه اليمين أنه لا يريد الطلاق ولم يقصده، واعتبر الشيخ ما قاله كاليمين، وأمره أن يخرج كفارة أيمان، ويُرجع زوجته^(١).

(١) انظر الشيخ كما عرفته ٤ - ٥ - ٦.

ولقد أثار الأخ مرهف سقا ذكرياتي حين تحدث عن حزن الشيخ وألمه لما صار إليه المسلمون، فتذكرت أنه حين حضر معتمراً إلى مكة، واكتحلت عيناى بمرآه، وسعد قلبي به، بدأنا الطواف معه، وأفاجأ به في بداية الشوط الأول يهمس في أذني ويقول: (ادع اللهم اغفر لأمة سيدنا محمد، اللهم بارك في أمة سيدنا محمد، اللهم اكشف الهم والغم عن أمة سيدنا محمد) فقلت في نفسي: والله إنك لرجل عظيم ومن الأبرار الصالحين، نسيت أوصابك وآلامك وأسقامك التي تعاني منها، وفطنت الآن بأحوال أمة سيدنا محمد ﷺ، ما هذا الحب لسيدنا محمد ﷺ؟

وأين الآن مثل هذه الريادات؟ إنه رجل - كما قال عن نفسه - نذرت نفسي لله، ولإعلاء كلمة الله، ولقول كلمة الحق، والتزام جانب الصدق^(١).

والعجيب أن حال هذه الأمة لا يغيب عن بال الشيخ مع أمراضه، ففي كل مرة أتصل به هاتفياً لأطمئن عن صحته يحدثني عما في قلبه من أسى وألم لحال الأمة الإسلامية، ففي اليوم الرابع من ربيع الأول عام ١٤٢٤ هـ عصر يوم الجمعة كلمته فإذا به يتأوه ويتألم، ولست أدري ما الذي حصل أو يحصل حين تمت المكالمة في صقع من أصقاع العالم الإسلامي، ثم أنشدني متفائلاً:

يا رياح النصر هُبِّي واحملي البشري لقلبي
وانشري ريح الخزامى من رُبا أحبَّابِ ربي

وفي مساء اليوم الرابع من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٥ هـ الساعة الحادية عشرة ليلاً، أخبرني أيضاً أن الأمة الإسلامية هي الآن في فترة مخاض وقبل الولادة يشتد الطلق، وتزداد الآلام، ولكن مهما تلبدت السماء بالغيوم لا بد في النهاية من أن يتولد برق يضيء،

(١) المقالة ٩.

ومن المستحيل أن تبقى البشرية في هذا التيه، وأضاف لقد سئل الشيخ بدر الدين الحسيني رحمه الله تعالى عن الحديث الذي فيه [كالباض على الجمر] فقال: لقد انقضى زمنه، والآن ينطبق علينا الحديث الآخر الذي فيه [فتن كقطع الليل المظلم] فاتتبه يا بني وكن على بصيرة من أمرك.

وحين تم غزو العراق تألم كثيراً، قال لي هاتفياً: (إنها هجمة شرسة على المسلمين، نسأل الله أن يكشف لهم، ويزيل الظلم عن أمة سيدنا محمد ﷺ، وتأوّه ناطقاً بالآية القرآنية الكريمة: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾).

أما تلميذه المفضل عماد زغرات فقد تحدث عن زهد الشيخ وصفاته واصفاً إياه بأنه «وارث محمدي قد ارتوى من رحيق الكتاب العزيز وتغذى بلبان الاتباع والعشق المحمدي حتى اشتد عوده واتسعت للحقيقة آفاق مداركه، واستنارت بنور الهدي المحمدي بصيرته، حتى غدا عالماً نحريراً فذاً لا يبارى ولا يجارى في ميادين العلم والمعرفة، إلى جانب ذلك كان عابداً زاهداً ورعاً بعيداً عن التكلف والمظاهر، فكان بحق عالماً ربانياً ومربياً فاضلاً وقد فرغ قلبه من محبة الدنيا بكل مظاهرها وزخارفها حتى استوى عنده إقبالها وإدبارها، وهو إلى ذلك أديب بارع، وكيف لا يكون أديباً وهو الشيخ محمد أديب كلكل قد حباه الله من هذا الاسم أوفى نصيب، أديب في كتاباته وأديب في أخلاقه ومعاملاته مع الناس من حوله، ذو هيبة وسكينة ووقار، إذا رأيته هبته وإذا تعرفت عليه أحببته»^(١).

ومع كثرة همومه وغمومه وآلامه ومصائبه تراه راضياً بقضاء الله وقدره، فقد اشتد عليه المرض كثيراً، واتصلت به هاتفياً من عمان أدعوه للقدوم من أجل التداوي، فقال لي: جربت الأطباء - كما أمرنا - فلم أرتح، وتوجهت إلى خالق السماء فارتحت، والحمد لله.

(١) الشيخ، ١.

وهو مع مرضه دائم القراءة والكتابة، ففي الثاني من رمضان عام ١٤٢٦ هـ اتصلت به هاتفياً فقال لي: لقد انتهيت اليوم من تأليف كتاب الفقه المبسط قسم البيوع. وأضاف بأنه قال لأهله: ازرعوا لي على سطح منزلي ورداً يسمى (الغريب) لكي ينجي الغريب الغريب، ويبيته أشواقه.

ولكن الشيخ - مع خلوته هذه منجماً عن الناس لأسقامه وأوصابه - لا يعيش في برج عاجي، فقد خصص يومين من كل أسبوع للخروج إلى دكانه لأجل الناس وحلّ مشاكلهم، وإبداء الفتاوى لهم، كما أنه خصص ساعات من كل يوم لاستقبال المكالمات الهاتفية التي يود الناس السؤال فيها عن أحكام شرعية، فأمرضه وأسقامه لم تمنعه من قيامه بواجبه إزاء قومه، ولم تمنعه من أن يكون على علم بما يستجد من أحداث اجتماعية، وساعدته على هذا الإنتاج العلمي الغزير النافع، وأعتقد لو أن إنساناً غيره ابتلي بما ابتلي به الشيخ لرأيته قعيد بيته، أو نزيل مستشفى دائم، لكن همته العالية، وروحه السامقة، وشكيمته القوية، تأبى أن يستكين لأمرضه، لقد أخبرني مرة أن أسفل قدميه يؤلمانه كأنه يطاء الشوك، أو يقف على جمر، وأن هذا الألم دائم لا يتوقف، لكنه قال: الحمد لله على نعمه، قلت له: يا شيخنا أنتم تتحملون عن الناس، والظاهر أن الشيخ سعيد الطنطاوي عندنا في مكة هو مثلك فأمرضه وأسقامه لا تكاد تفارقه، فضحك ولم يعلق على قولي لكنه قال: يا رياض إني أتمثل دائماً قول الرواس رحمه الله:

تسرتُ من دهري بظُلِّ جناحه فصرتُ أرى دهري وليس يراني
فإن تسأل الأيامَ عني ما درتُ و أين مكاني ما عرفنَ مكاني

أخيراً أخبرني - حفظه الله - في مكالمه هاتفية في شهر ربيع الأول عام ١٤٢٨ هـ أنه منذ كان في السنة الثانية عشرة يستشرف بأنه من أهل الابتلاء، وأضاف أن الابتلاء يا رياض بجميع أنواعه لم يفارقني والحمد لله على ذلك.

منهج الشيخ في هذه الحياة

تتضح صفات الشيخ وشخصيته أكثر حين نطلع على طريقته ومبادئه في هذه الحياة تلك التي سار عليها، فقد وقع إلى مقالة قديمة سطرها الشيخ - حفظه الله - بخط يده بين فيها منهجه في هذه الحياة، رأيت أن أسجلها بحروفها لعلها تضيء جانباً من جوانب شخصيته - رعاه الله - تضاف إلى ما ذكرناه من سجايه الحميدة وخصاله الرفيعة، فلعلها كلها تبرز الصورة الواضحة لشخصه - حفظه الله - لتكون سيرته مثلاً يحتذى، ونموذجاً يقتفى، يهتدي به التائبون، ويستنير بنورها المريدون، وسبحان من يُردّ إليه الأمر كله.

قال الشيخ تحت عنوان: «نظرتي إلى الحياة ومنهجي فيها» ما نصه: إن هذه الحياة التي نعيشها قد أوجدنا الله عز وجل فيها لنقوم بمقتضى الخلافة الإلهية في الأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ بمعنى أن نقوم بمقتضى الأوامر واجتناب النواهي، وإعمار الأرض، وهو المعنى بقوله عز وجل ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

فالعبادة هي المقصودة أولاً ثم إتقانها على ضوء ما شرع الله ثانياً ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ والعمل المتقن هو الذي استكملت فيه شروط الشارع، وكان موزوناً بميزانه، وصادراً عنه قولاً وفعلًا، وبمعنى آخر أن يكون مشروعاً بأصله، مؤدى بوصفه.

وبما أن هذه هي مهمة الإنسان في مسيرة هذه الحياة فقد سخر الله عز وجل له سائر المكونات، وذلّلها له ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ فالعبد مخلوق لله، والكون مسخر لهذا العبد، فجدير به أن يتعلق بما خلق من أجله، لا أن يستولي عليه ما خلق له، والحياة مليئة بالمحن والشدائد، والعاقبة للمتقين ﴿ونبلوكم بالخير والشر فتنة﴾ ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع

ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿١٠٦﴾ فالهداية لن تبلغ غايتها إلا بصلوات من الله ورحمة، وتلك لن تنال إلا بالاستسلام الكامل لله سبحانه، والاستسلام الكامل لا بد له من المحنة والابتلاء لتبين حقيقته، وينكشف معدنه بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، فكيف يحصل المؤمن على هذا الخير العميم إذا لم يقدم الثمن، وقيم الدليل، ويثبت البرهان.

والناس في هذه الحياة متفاوتون في علاقاتهم الاجتماعية، فمنهم المخلص الصادق، ومنهم الدعي الكاذب المتحيز لفرص الأغراض الشخصية والمنافع الذاتية ليتتهزها ويحصل عليها، وينقض على فريسته مهما كلفه من ثمن، والعاقل من عرف زمانه، وخبر إخوانه، وعرف الصادق المستقيم فتمسك به، والكاذب المخادع فأعرض عنه.

تَمَسَّكَ إِن ظَفَرْتَ بِذِيْلٍ حُرٍّ فَإِن الْحَرَّ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ

والسعيد السعيد من لم يفقده ربه حيث أمره، ولم يجده حيث نهاه، وطوبى لمن شغله عييه عن عيوب الناس، وصفوة القول: إن أساس العبادة: عقيدة راسخة، وعبادة حيّة، وأخلاق كريمة، وسلوك طيب، وذكر الله سبحانه، وتعلق به سبحانه وتعالى وبأنبيائه ورسله وأصفياه من خلقه، وتواصل بالحق وتواصل بالصبر، ولا يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ إِلَّا رَبَّهُ، ولا يخافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ، ولا يعتمد إِلَّا عَلَى اللَّهِ مَوْلَاهُ ثم على جهده.

أما منهجي في هذه الحياة فهو العلم بمعناه الصحيح: الذي هو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع، فكل شيء ينبغي أن يخضع لهذا المنهاج بكل قواعده وضوابطه، والحكم على الأشياء هو التصوّر أولاً ثم الحكم ثانياً، لأن القاعدة العلمية تنص على أن حكمك على الشيء فرع عن تصوّره، بمعنى أن التصوّر أي العلم بالشيء أولاً، ثم إطلاق الحكم ثانياً، فكل بحث أو نظام أو شخص إذا أردنا معرفة حقيقته فما علينا إلا أن نبحث أولاً ونستوعب

الدراسة وفق الموازين العلمية المقررة ومناهجها وضوابطها، ثم تصدر الحكم بعد ذلك، ولكن بشرط أن لا تكون هناك خلفيات مسبقة، أو أفكار مستقرة في الذهن، وإلا فنحن نفتش عن هويتنا، ونستطلع حقيقة ما نحن عليه في ذاتنا، وليس هذا مما يسمى منهجاً علمياً.

فالواجب تفريغ الذهن من الأفكار المسبقة والخلفيات الموجودة أولاً، ثم الدراسة أي العلم طبق الموازين والقواعد والضوابط ثانياً، ثم إصدار الحكم ثالثاً.

ولو أن الفرق والجماعات وأصحاب الدعوات المتباينة - خاصة بما يحدث الآن من مستجدات العلوم والمعارف والأنظمة - خضعت لهذا المنهج لما وجدنا تلك الاختلافات والصراعات الفكرية، ولوجد الناس أنفسهم على الصراط المستقيم، والمنهج القويم، ولضاقت شقة الخلاف، وكان الجميع على سرر المحبة متقابلين، وحينما يتعدون عن هذا المنهج يشتد الصراع والنزاع، وتتسع شقة الخلاف، لأن كل فريق ينتصر لأهوائه، ويريد أن يقنع الآخرين بأنه وحده على الصواب، والسبب في ذلك كله هو الزهو والعجب بكلمة (أنا) تلك الكلمة الإبليسية التي جعلت من إبليس مرجوماً ملعوناً، فهي منهجه ودستوره في هذه الحياة هو ومن شايعه واقتفى أثره، أما حينما تنمحي هذه الكلمة من النفس ولم يعد لها وجود فحينها يسود الحب والوئام وتلتقي العلوم والمعارف والدراسات على كلمة سواء، وبهذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين».

وأضاف قائلاً في موضع آخر: ومن منهجي أنني أتمثل أبيات السيد الجرجاني،

وأصورها قائمة في ذهني، وهي دستور لكل طالب علم:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما	رأوا رجلاً عن موقفِ الذل أحجما
أرى الناس من دانا هم هانَ عندهم	ومن أكرمه عزة النفس أكرما
وما كلُّ برقٍ لاح لي يستفزني	ولا كلُّ مَنْ لاقيتُ أرضاه منعما
وإني إذا فاتني الأمرُ لم أبت	أقلبُ كفي إثره متندما

ولم أقضِ حقَّ العلم إن كان كلما
إذا قيل هذا منهلٌ قلت قد أرى
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهانَ فدنسوا

بدا طمعٌ صيرته لي سلماً
ولكن نفس الحر تحتملُ الظماً
لأخدم من لا قيت لكن لأخدماً
إذن فاتباع الجهل كان أحزماً
ولو عظموه في النفوس لعظماً
محياه بالأطماع حتى تجهما

وكذلك ما قاله الشافعي رحمه الله تعالى:

أنا إن عشتُ لست أُعدمُ قوتا
همتي همهُ الملوك ونفسي

وإن متُّ لست أُعدمُ قبراً
نفسُ حر ترى المذلة كفراً

ومن منهجي في هذه الحياة الحذر والوقاية من كل ما يريب، سواء على الصعيد
الفكري أو الشخصي، لأنه قد كثرت حروف الجر في هذا الزمن، واتخذت لنفسها صوراً
وأشكالاً وألواناً زاهية براقة مغرية، فليحذر كل منا أن يكون هو الاسم المجرور.

لقد قلتُ المعارف، وكثرت النكرات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال: «إنني أتمثل دائماً قول سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه وعنا به:

ولستُ أبالي من رماني بريئة
إذا كنت عند الله غير مريبٍ

إذا كان سري عند ربي منزهاً
فما ضرني واشٍ أتى بعجيبٍ

وكثيراً ما كنت أردد أبياتاً للأmir أسامة بن منقذ ذكرها سيدي أبو الهدي الصيادي في

كتابه صوت الهزار:

وما أشكو تلونَ أهلٍ ودي
مللتُ عتابهم ويئستُ منهم

ولو أجَدْتُ شكيتُهم شكوتُ
فما أرجوهم فيمن رجوتُ

إذا أدمتُ قواصمهم فؤادي
كظمتُ على هواهم وانطويتُ

وجئت إليهم طلق المحيا كأي ما سمعت ولا رأيت
تجنوا لي ذنباً ما جنتها يداي ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت غدرًا كما قد أضمره ولا نويت
ويوم الحشر موعدا وتبدو صحيفة ما جنّوه وما جنيّت
سيحكم بينهم ربي وبينى فويل للخصوم إذا ادّعت^(١)

وقد وقع إلي أخيراً مقالات أخرى مفيدة طرّزها الشيخ حول الحياة، فائدتها واضحة ومراميها نافعة وأسلوبها رائق ومبناها سامق، قال - حفظه الله -:

«وهذه مقالة كتبها منذ زمن بعيد تحت عنوان:

(آمال عزيزة المال)

الحمد لله وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه وبعد:

فقد سئلت مرة عما إذا كان لي آمنيات في هذه الحياة من هذه الحياة، فأجبت: إن الأمان في هذه الحياة كثيرة وعزيزة، متعددة الجوانب، متشعبة الأطراف، وتتمثل في نظري - وعلى الأغلب - بالنسبة إلي في: المال، والمسكن، والزوجة، والأولاد، والكتب، والأصحاب.

المال

المال هو عصب الحياة وروحها، وعليه مدار نهائها وارتقائها، وبه - ربما - يتمكن المرء من اكتساب السعادة الجسمية والنفسية والاجتماعية، وخاصة في زمن تمكنت المادة من النفوس، وتغلغلت في الرؤوس، واستولت على كل شيء، وأصبحت وحدة المقياس والميزان التي يقاس بها ويوزن، والحكم الفاصل في كثير من الأمور، فمن كان ذا مال تبوأ مكان الصدارة، وانهالت عليه ألقاب التبجيل والاحترام، وإذا حضر تمثل له الناس قياماً، وإذا نطق

(١) المقالة ١٤ .

أصغت له الآذان، وإذا حدث وأخبر فقله مصدق وخبره موثق وما نطق محالاً، وما سمع من أحد اعتراضاً بقول: لا لا، وإن شفع فلا ترد له شفاعته.

من كان يملكُ درهمين تعلمتُ	شفتاه أنوعَ الكلام فقلا
وتقدمَ الإخوان واستمعوا له	ورأيته بين الورى مختلا
لولا دراهمه التي يزهو بها	لوجدته في الناس أسوأ حالا
إن الغني إذا تكلم بالخطا	قالوا صدقت وما نطقت محالا
أما الفقيرُ إذا تكلم صادقاً	قالوا كذبت وأبطلوا ما قالا
إن الدراهم في المواطن كلها	تكسو الرجالَ مهابةً وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة	وهي السلاح لمن أراد قتالا

* * *

يمشي الفقيرُ وكلَّ شيء ضده	والناس تُغلقُ دونه أبوابها
هذا يؤنبه وذاك يهينه	ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلابُ إذا رآته عابراً	نبحتُ عليه وكشرتُ أنيابها
وإذا رأت يوماً غنياً مقبلاً	خضعتُ له وحركتُ أذنانها

وحفاظاً على الدين والمروءة، وخوفاً من الانزلاق في مزالق الذلة والنفاق التي تسببها الحاجة أحياناً كنت أتمنى المال الوفير المكتسب عن طريق عمل حر شريف مستقل به لنفسي لا منة فيه لأحد، ولا يشاركني فيه غيري، لئلا أحتاج إلى لئيم دنيء النفس أو إلى منان يمن علي بحاله أو بلسان مقاله، وقديماً قالوا: لنقل الصخر من قمم الجبال أخف عليّ من منن الرجال، ولأني من الصنف الذي قال فيه الشافعي رحمه الله:

همتي همّة الملوكِ ونفسي نفسُ حُرٍّ ترى المذلة كفرا

وأشار الشيخ في موضع آخر إلى نظرتَه إلى الحياة وإلى أركانها الثلاثة (المال والمسكن والزوجة) وما يتبع ذلك فقال:

المسكن

هو المحل الذي يأوي إليه الإنسان، وتضمه جدرانه وتكنُّه، وتسكن فيه نفسه وتطمئن، وهو محل الراحة والاستجمام والهدوء حيث يتعد فيه عن الخلق، ويتخلص من أعباء الحياة وتكاليفها ومستلزماتها وصخبها، وكانت أمنيته فيه:

أن يكون قويّ البنيان، واسع الفناء، متعدد الغرف، ذا مسحة أندلسية، تظله أشجار الليمون والبرتقال والنارنج والكباد، وعلى حواف جدرانه أحواض تتفتح فيها الورود والرياحين، ويفوح بين جوانبه شذى القرنفل والياسمين والنسرين، وتتوسطه بركة ذات نافورة يصعد فيها الماء كالمهاة، وينعكس منكسراً كالزجاج، وتسرح فيها سمكات ملونة، وتظللها عرائش الأعناب المتنوعة، وتشابك فيها أنوار المصابيح المتعددة الألوان، وتخف به من خارجه أشجار وارفة الظلال، تحمل من كل فاكهة زوجان، وتتغنى عليه الطيور بأعذب الألحان، فيتألف من ذلك سيمفونية رائعة ليست من وضع الإنسان، وأن يكون هذا المسكن في رأس ربوة تهب عليه نسائم الصبا، وتلفه شمس الأصيل، وفي جواره ينبوع ماء يجري منحدرًا رقيقاً على صخور ناصعة البياض كأنها العقد المنظوم في صدر فتاة ناعس هيفاء، كل ذلك وسط مروج خضراء يتماوج فيها النرجس والأقحوان، وشقائق النعمان، وتتوشى ببدايع الزهور المختلفة الألوان.

الزوجة

هي السكن النفسي، والمكمل الذاتي للجانب الإنساني، ومحط المودة والرحمة التي أودعها الله في القليلين، وسلکہا في الروحين حيث تزاوجا وتمازجا فهما واحد في صورة اثنين، وإنسان مركب من شخصين ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ وكانت أمنيته فيها أن تكون فتاة مكتملة فتوة وأنوثة وبهاء، مؤمنة صادقة الإبان، قد أسبغ عليها الإبان السلوكي

هالة قدسية منسوجة من النور، فأضحت نوراً على نور، سليلة أعراق طاهرة، وأرومات شريفة عالية، هيفاء غيداء ميساء لميس، معتدلة القوام كغصن رطب يهزه النسيم يمنة وشمالاً، تحاكي نعومة الحرير ولين الزُّبد، يكاد مسيل الماء يخدش جلدها من رقة الجلد، شقراء جميلة كأنها عجنت بالورد والياسمين، ذات وجه يحاكي البدر في تمامه، كأن الشمس قد اتخذت فيه مساراً، وأجفاناً فواتر، ومبسم مضيء، يتوجها شعر ناعم يزري بقصاصات الذهب، وأشعة الشمس في وقت الأصيل، إن تكلمت تجسد الكلام ياقوتاً ودرأً، ولا تجد في قاموسها هجراً من القول أو نكراً، ريانة الأعطاف من ماء الشباب، فغصنها بقاء الشباب ذو جريان، قد حمل أزهاراً وثماراً متعددة الألوان، فالورد والتفاح والرمال في غصن واحد «تعالى غارس البستان».

ودود بسلاقتها وأخلاقها، قاصرة الطرف عما سوى زوجها، تثير كوامن الوجد والشوق بتلطف وغنج وخفر ودلال، عروب بشكلها ودلها وتحببها لزوجها، وكل أمنياتها أن تمحو هواها في هواه، فهي الزوجة التي يأنس بها القلب ويرتاح للقيها، وتبتهج بها النفس إذا طالعت محياها، ويتوج ذلك كله ويزينه علم نافع، وبصيرة أخاذة، وذكاء حاد، وإمام بكل فن من ثقافة عالية، ومشاركة في كل باب، هذا هو الجمال الحق، جمال العلم والأدب، وهي المعنية بهذا الدعاء (اللهم اكتب لي الزواج من فتاة مؤمنة، هيفاء ناعمة، شقراء جميلة، ودود لعوب عروب، متعلمة، تؤنس القلب وتبهج النفس، مع العافية في ديني ودنياي وعاقبة أمري).

الأولاد

هم زينة الحياة الدنيا وبهجتها، وامتداد لوجود الأبوين، وقرة عين لهما، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا على مستوى رفيع من التربية وحسن السلوك وكمال الأدب، وشعلة

وضاعة في العلم والمعرفة، يحيط ذلك بر وإحسان ورحمة بمن كانا سببا في وجودهم، وحجر الأساس في سعادتهم وبناء مجدهم، وأن يكونوا ضمن عدد محدود ثلاثة أو أربعة على أبعد حد من بنين وبنات، لأن قلة العيال أحد اليسارين في هذا الزمان، ولأن النوعية أفضل من الكمية عند البرهان.

الكتب

الكتب وما أدراك ما الكتب إنها مفاتيح الكنوز والمعرفة، وحدائق العلوم وبساتين الحكمة، أزهارها فواحة، وقطوفها دانية، يقتطف منها ما لذ وطاب، فهي حياة القلوب، وصفاء الأرواح، وغذاء العقول، وهي الأنيس في الوحدة، والمسلية في الوحشة، وهي المصاعد التي يرتقي عليها الصاعدون، من الكتب أصدقاء أوفياء، وبعض الكتب يذاق، وبعضها يزدرد، وبعضها يمضغ ويهضم، وبعضها سم زعاف والكتاب الحسن أحسن الأصدقاء، لا تتغير صداقته، ولا تبلى مودته.

تجد الكتب على النقد كما	تجد الإخوان صدقاً وكذبا
فتخيرها كما تختار	وادخر في الصحب والكتب اللبابا
صالح الإخوان يبغيك التقى	ورشيد الكُتب يبغيك الصوابا

وأمنيتي في ذلك أن تكون لي غرفة واسعة منعزلة في أطراف المسكن الذي ذكرته، مهياة إنارة وتكييفاً، ترتصف جدرانها بكتب أحسنت اختيارها، أوي إليها متى شئت وكيف شئت، دون أن أنغص بصخب أو ضجر، وأعكف على استنطاقها، وأسرح في رياضها، وأعيش مع كتابها ومؤلفيها، وأغوص في بحارها محاولاً التقاط دررها ولآلئها ومرجانها، والعثور على تحفها، وأدوّن ما حلا لي تدوينه من أحكامها وحكمها، وأقيد ما خشيت أن يتفلت أو يشرد من مهاتها وظبائنها، وأبثها شكواي ونجواي لعلها تسمع شكواي ونجواي.

الأصحاب

وكم كنت أتمنى أن أسعد بأصحاب من الطبقة العليا إيماناً وتقوى، وصفاء ونقاء
وطهرًا، وعلمًا ومعرفة وإخلاصاً ووفاء وفناء، قد اندمج كل منا بالآخر اندماجاً محال (أنا)
وأضحى كل منا ينادي الآخر بـ (يا أنا) ويرحم الله من قال:

أَخْ لي لم يلدُه أبي وأمي	أراه الدهرَ مغموماً لغمي
يقاسمني سروري كلَّ حين	ويأخذ عند همي شطرَ همي
فلو أحدٌ من الأصحاب يفدى	إذاً لفديته بدمي ولحمي

وكما قال أبو تمام:

مَنْ لي بإنسان إذا أغضبتَه	وجهلْتُ كان الحلمُ ردَّ جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من	أخلاقه وسكرتُ من آدابه
فتراه يصغي للحديث بقلبه	وبسمعه ولعله أدري به

ولكن كما قال القائل:

وزهدني في الناس معرفتي بهم	وطولُ اختباري صاحباً بعد صاحبٍ
فلم تُرني الأيام خلاً تسرني	مبادئه إلا ساءني في العواقبِ
ولا كنت أرجوه لدفع ملامةٍ	من الدهر إلا كان إحدى النوائبِ

ولكن الصادقين المخلصين لا يخلو منهم زمان ولا يفقدهم المكان، فهم باقون وعلى
العهد قائمون، لقد أشربت قلوبهم معنى الحب الصافي من الشوائب، فهم يؤثرون على
أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

تمسك إن ظفرتَ بذيلِ حر فإن الحرَّ في الدنيا قليل

السياح

وهذه الأماني لن ينعم الإنسان أو يتمتع بها على النحو المطلوب إلا إذا أحيطت بسياح

من الأمن العام الشامل والدائم، وهيبى لها جو طاهر نقي لا يعكر صفوه ظلم وإرهاق، ولا يلبد سماءه تسلط وتطاول وإيذاء وإزعاج أو هموم وأحزان، وصحة لا ينغصها مرض ولا ينخر فيها داء، قال ﷺ: [من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها] وهل الدنيا إلا أمن وعافية وكفاية.

ألا مَنْ لِنَفْسِي والأَمَانِي عَزِيزَةٌ	بأَرْضِ خَلْتُ مِنْ ظَالِمٍ وَلِثِيمٍ
وَصُومَعَةٍ شُدَّتْ عَلَى رَأْسِ رَبْوَةٍ	مَهَبَّ رِيَّاحٍ زَعَزَعَ وَنَسِيمٍ
وَمَنْ خَلْفَهَا يَنْبُوغُ مَاءٌ مُسَلْسِلٍ	كَدَّرَ عَلَى صَدْرِ الصَّخُورِ نَظِيمٍ
فَإِنْ زَارَنِي فِيهَا الرَّدَى مُتَخَشِعاً	فَأَهْلاً بِهِ مِنْ زَائِرٍ وَمَقِيمٍ

سؤال

وهنا أشار محدثي وسأل: هل تحققت لك هذه الأمانى؟ وتجسدت لك في هذه الحياة

تلك المعاني؟

فكانت حقيقة؟ أم أنها باقية في عالم الخيال تسرح في عالمها مع بنات الأفكار؟

الجواب:

ربما كانت تلك الأجواء مهيأة لنيل اليسير اليسير منها، ولكن سرعان ما تلبدت السماء بالغيوم، واكفهر الجو وزجر، وتدخل فضولي منان بتصرف غير مقصود في الحؤول بيني وبين هاتيك الأمانى والآمال، فضلّ تصرفه وساء سعيه وهو يحسب أنه قد أحسن صنعا، وهكذا الأحق الجاهل المعتد بنفسه والمتعصب برأيه يريد أن ينفعك فيضرك، وساعده على ذلك ظروف قاهرة، وأقدار مهيأة فإذا الأمانى قد انقلبت سراباً، والبرق أضحى خلباً، وتوالت الآلام وأخذت تتولد من جديد الآمال، ولكن بعد أن سبق الركب، وفات الأوان، وسبق السيف العذل.

ما كُلُّ ما يتمنى المرءُ يدركه تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

خـتـام

وعلى كل ففي الحياة متسع لتجديد الآمل، ولن ينقطع الأمل إلا بانتهاء الأجل، فإن تحقق أو بعض مما فات فذاك، وإلا فالدار الآخرة خير وأبقى، ولنعم دار المتقين، وجناته أعدت للصالحين، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، قد تحققت آمالهم، وانمحت آلامهم بـ [ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر].

تدخل عليهم الملائكة من كل باب يحيونهم بتحية ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ ويزفون إليهم بشارة ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وحسن الظن بالله تعالى مطلوب ومرغوب، وهو سبحانه عند حسن ظن عبده به، ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ والحمد لله رب العالمين^(١).

هذا غيض من فيض محاسنه، وقطرة من بحر شمائله، وعلى العموم فهو من الأخيار الأبرار، فأوصافه فوق ما وصفت، وأكثر مما ذكرت، فهي عطاءات ربانية، ومنح إلهية، فالسلوك أحمدى، والمنهج محمدي، وإني لعلّ اعتقاد بأن فضائله ومآثره لا تنفي بها لغتي ولا يسعها كتابي، إذ لم أر فضيلة ليس له منها نصيب، وكم أتمنى من القارئ أن ينظر في منهجه التربوي والتعليمي الذي عقدنا له فصلاً خاصاً فيما ذكرناه هنا وهناك تكتمل الصورة أكثر، ويبدو القمر أكثر نوراً وجمالاً، ولا تنس أخي قول الجيلاني رحمه الله:

وإني على مقدار فهمك واضع وإلا فلي من بعد ذاك بدائع

وإن القليل على الكثير دليل، ونحن على اعتقاد بأن الكريم إذا واجهك بفضله فلا راد لحكمه، وغاية الأمر كما قال الشاعر:

ألبسه الله ثيابَ العلا فلم تَظُلْ ولم تَقْصُرِ
أسبغ الله عليه النعم، وأقر عينه، ونفع بعلومه ومعارفه.

(١) اللوحة ١٠.

الفصل الثالث

تكوينه العلمي وثقافته

(شيوخه وأساتذته وقراءاته)

حبا الله الشيخ الذكاء اللامع والهمة العالية، والبيئة العلمية الراقية في مدينة تمور بالعلم والعلماء، لقد انتبهت والدته - رحمها الله تعالى - إلى ما يتمتع به ابنها من قدرات عقلية متميزة، فدفعت به إلى كُتّاب (الشيخة زهرة)، فحفظ القرآن الكريم قراءة محكمة مجودة، وتابعت والدته - بوأها الله دار كرامته - رعايته حين سجلته في المدرسة المحمدية الشرعية واللغوية، فأخذ ينهل من العلوم الشرعية واللغوية ما يعدّ لبنات متينة وأدوات مكيّنة ليسير في طريق البحث العلمي، لقد شاءت العناية الإلهية أن يكون هذا الرجل عالماً مبرزاً، فهيأت له الأسباب وسهلت له الصعاب، وها هي حلقات العلم منتشرة في المساجد، والعلماء كُثُرٌ، والفقر محمود إن كان باعثاً لصاحبه إلى السير نحو المعالي، وهذا الذي حصل للشيخ، إذ راح يقرأ بنهم وشغف كل ما يقع بين يديه، وكانت أمه - رحمها الله - تشجعه، فكان أحياناً يطلب منها أن تستدين له ثمن كتابٍ ما يريد شراءه^(١) ولكن هذه القراءة العامة للكتب دون مرشد كانت تؤلمه، لذلك كان يرغب لو أن شيخاً وجّهه وأرشده، فكان يقول: لو عادت بي الأيام

(١) من ذكرياتي ١.

إلى سني الشباب لكنت قد تجاوزت أشياء كثيرة قد ضيعت فيها أوقاتي من غير فائدة^(١).

إلى جانب نهمه في قراءة الكتب انطلق لحضور الدروس العلمية وهو في سن مبكرة ينهل من معين العلماء من أمثال الشيخ محمود الشقفة والشيخ عرابي عدي والشيخ أحمد سليم المراد رحمهم الله تعالى وغيرهم من شيوخ البلدة الذين كانوا يعمرّون مساجدها بالدروس الشرعية واللغوية المتنوعة، فحصل الشيخ من ذلك كله ثروة علمية غنية - وهو بعد صغير - ما لبث أن ظهرت آثارها حين كان يقف بعد أداء بعض الصلوات ليعظ الناس أو ينبه على غلط شرعي، ومما رواه عن هذه المرحلة أنه وقف أول مرة في الجامع الشرقي بعد صلاة الجمعة ليلقي بعض النصائح الشرعية والمواعظ، فارتجفت رجلاه لرهبة الموقف، لكنه استطاع أن يتجاوز هذا الموقف وتابع حديثه، والظاهر أن صغر سنه جعل بعض كبار السن - من جهلهم - ينزعجون من وقفاته هذه، ففي إحدى المرات أمسك به واحد منهم ودفعه بعيداً عن مكان وقوفه، لكن الحاضرين ممن أحبوا هذا الغلام الناشئ استنكروا هذا التصرف^(٢)، وما زادته هذه التصرفات إلا صلابة وقوة وتصميماً، وأحسب أن هذه الوقفات كانت البذرة الأولى الجيدة النافعة التي ولّدت عند الشيخ الملكة العلمية المستقلة التي جعلته فيما بعد لا يباري أحداً في العلم، فلذا ترى كتبه مليئة بكشف الأخطاء سواء أكانت من العوام أم من الذين يسرعون في الفتوى فتزلق أقدامهم، وترى آثار هذا الاستقلال العلمي في تحرّيه الوصول إلى الحكم الشرعي الذي قوي دليله^(٣).

ومهما يكن من أمر فقد سار الشيخ على هذا المنهج في القراءة والتحصيل وحضور المجالس العلمية حتى اكتملت عنده أدوات البحث العلمي، وأسبابه وتوضحت أمامه سبل

(١) من ذكرياتي ٢.

(٢) تجربتي ٢٤ ومن ذكرياتي ٥.

(٣) انظر (منهجه العلمي).

المعرفة، فما إن بلغ عشرين عاماً حتى عقد دروساً^(١) وصار له طلاب، وبدأت ينابيع علمه تفيض وتسقي، وانتشر أمره بين طلاب العلم وعلماء البلدة، وهو في طلبه العلوم الشرعية واللغوية لم يغفل عن تزكية النفس وتهذيبها، والعناية بالجانب الروحي، فقد ذكر حفظه الله في مقدمة كتابه (تنبيه الفكر) أنه: «منذ سن مبكرة متعلق بذكر الله تبارك وتعالى، وارتياح مجالسه والتنعم في رياضه، لا أنقطع عنها غالباً أذكر كما يذكر أهل تلك الحلقات وألفظ كما يلفظون وأتحرك كما يتحركون»^(٢).

وقد رأينا أنه قرأ كثيراً من الكتب التي تتعلق بالتصوف، وانتهى أمره إلى أن أخذ الطريقة الرفاعية من فضيلة الشيخ عبد الرحمن السبسي الرفاعي - وهو شيخ الشيخ محمود الشقفة أيضاً في الطريقة -، كما أخذ الطريقة النقشبندية عن الشيخ رشيد الراشد التاذفي الحلبي^(٣)، وصرّح بأنه أحب منهج السادة الرفاعية والقادرية والشاذلية والنقشبندية الخالية من الأوهام والخرافات والدجل والشعوذة والانحراف عن قواعد الشرع، مع تقديره وحبه لكل من انتسب إلى طريق معتبر من طرق الصوفية رضوان الله عليهم إذا كان منضبطاً بقواعد الشرع حالاً وقالاً^(٤).

ومن صفات الشيخ - كما ذكرنا - حبه للخلو، قال: «وغلب علي حب الانفراد والخلو وقلة مخالطة الناس، وذلك لم يمنعني أن أكون على علم فيما يستجد من أحداث اجتماعية، وإن صح التعبير أنني قد أصبحت ذا فكر صوفي بمعناه الشرعي الصحيح، وذا يتطلب قلة في العلاقات، وعدم التعمق والانشغال في أمور الدنيا، وحب بالغ للمصالحين

(١) من ذكرياتي ٤.

(٢) تنبيه الفكر المقدمة.

(٣) اللمحة ٤.

(٤) اللمحة ٨ بتصرف.

والاقتداء بهم^(١).

يضاف إلى هذه الثمرات التي اجتناها الشيخ من خلوته أنه أفاد منها في كثرة القراءة، وإنك لتعجب من كثرة مقروءاته التي تناولت كل العلوم والفنون تقريباً، ناهيك عما في الخلوة من أسرار أخرى تندّ عن أهل الأبصار، ويدركها أهل الإشارة والاعتبار، وقد أشار حفظه الله إلى ذلك بقوله: «ومررت بفترة زمنية روضت بها نفسي، وحاولت تصفية روحي، وتركيز نفسي بقدر ما أستطيع من جهد، وهذه الفترة هي مرحلة التصفية، ويالها من أيام زهت بالصفاء وارتقت فيها الروح معارج الإشراف والأشواق، وانصبغت بالفيض الإلهي، والإشراف الرباني، والشعور بلذة العبادة وحلاوة المناجاة والأنس بالله حيث كانت النفس كأنها تشاهد ما غاب عنها رأي العيان، وتحس بذلك وتوقن إيقان من علم حق اليقين وربما ارتقى إلى عين اليقين^(٢)».

إذن أفاد الشيخ من عزلته وانفراده وخلوته فائدتين:

الأولى: علمية، والثانية: روحية سلوكية

وقد ترافقتا معاً لتكوين شخصية الشيخ علمياً وروحياً، فصار بذلك من أهل العلم الجامعيين بين الشريعة والحقيقة، وذلك من صفات الكَمَل، والله يعطي الفضل لمن يشاء. هذه لمعات خافتة تبين سيرورة الشيخ العلمية، فإذا أردنا تفصيل هذا الإيجاز والوقوف على مصادر الشيخ العلمية والروحية فلنقدّم للقارئ شيوخه وقراءاته.

(١) اللوحة ٨.

(٢) اللوحة ٨.

أولاً: شيوخه:

تعددت مناهل المعرفة عند الشيخ وتنوعت مصادر علومه، ومن استقراؤنا لحياته العلمية نستطيع تقسيم شيوخه وأساتذته إلى قسمين^(١):

١ - القسم الأول: العلماء الذين عاصروهم وتردد إليهم أو تأثر بهم تأثيراً واضحاً وهم الغاية في العلوم الشرعية واللغوية المتنوعة.

٢ - القسم الثاني: العلماء الذين كتبهم في مسائل فقهية، أو كتبوه في غير ذلك، وعدهم الشيخ - رفع الله شأنه - تأدياً وتواضعاً من أساتذته.

١- القسم الأول: أما أسماء القسم الأول فقد ذكرهم الشيخ وحصرهم بالآتي:

١ - الشيخ توفيق الصباغ - تغمده الله برحمته - حضر الشيخ له دروساً في جامع الدرايزون في الحاضر بعد عصر كل ثلاثاء، وفي جامع المدفن صباح كل يوم، قرأ عليه منهاج الإمام النووي رحمه الله تعالى.

وبقي الشيخ على صلة به يزوره ويستفتيه ويستأنس برأيه، فقد ذكر الشيخ محمد أديب في كتابه (إتحاف السائل) حين تحدث عن حكم التدخين «أن فضيلة الشيخ توفيق الصباغ رحمه الله تعالى حدثه في مجلس خاص مشافهة أن أحد علماء الهند زاره في حماة وحدثه عن قصة رجل مدخن رأى فيما يراه النائم بأنه حوسب حساباً يسيراً وانطلق إلى الجنة فأوقفته الملائكة على بابها ومنعته من دخولها حتى يتطهر أولاً من الدخان الذي في جوفه وذلك عن طريق تقطيعه بمكنة خاصة، وبعدها يكون مؤهلاً لدخول الجنة»^(٢).

(١) اعتمدنا في ذلك كله على اللمحة.

(٢) انظر إتحاف السائل ٣ / ١٩٣.

وكان الشيخ يزوره أيضاً بصحبة طلابه، أشار إلى ذلك الأستاذ غالب المصري بقوله: «حضرت معه جلسات علمية لدى الشيخ توفيق الصباغ رحمه الله وهو من أعلام فقهاء الشافعية»^(١).

٢ - الشيخ عرابي بن خالد عدي المتوفى سنة ١٩٥٥ م في حماة - أسكنه الله فسيح جناته - حضر الشيخ أديب عنده دروساً فقهية في جامع البحصّة، وكان حانوته في الحاضر محكمة شرعية يفصل فيها بالخصومات ويحيب عن المسائل التي ترد عليه^(٢).

٣ - الشيخ زاكي الدندشي - أسبغ الله عليه أطفاه ورحماته - فقيه الحنفية في مدينة حماة، حضر له دروساً خاصة صباح كل يوم في جامع السلطان، قرأ عليه فيها الهدية العلائية، وحاشية ابن عابدين، وحضر دروسه أيضاً في جامع الحميدية وجامع المهنا.

٤ - الشيخ محمود الأحمد الشقفة - تغمد الله برحماته - وهو المعروف بالشيخ محمود الكبير تمييزاً له عن الشيخ محمود بن عبد الرحمن الشقفة - وهو الصغير - تردد الشيخ إلى حلقاته العلمية في جامع الأفندي في الحاضر.

٥ - الشيخ أحمد سليم المراد - أسبل الله على قبره شآبيب رحماته - حضر الشيخ دروسه في جامع البحصّة بعد عصر كل يوم اثنين.

٦ - الشيخ عبد الرحمن السبسي الرفاعي - برّد الله مضجعه وأقرّ عينه - أخذ عنه الشيخ الطريقة الرفاعية.

٧ - الشيخ محمد منير لطفي - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - ذكره الشيخ بقوله: «ومن شيوخه الشيخ منير لطفي رحمه الله تعالى وكان شيخاً وأستاذاً وأخاً، وكانت علاقتي به

(١) تجربتي ١٠ - ١١.

(٢) انظر ترجمة له في كتاب الأنيس في الوحدة للشيخ محمد أديب، ١/ ١٠٦.

علاقة مودة وإخاء، وقد عاهدني على أن الذي يسبق الآخر إلى دار الآخرة يشفع فيه»^(١) وقد قدم الشيخ منير رحمه الله مقدمة طيبة نافعة لكتاب صون الإيمان من عثرات اللسان، بين فيها أنه شجع الشيخ محمد أديب على إنجاز هذا الكتاب المفيد، وكان بين الشيخين زيارات كثيرة يتبادلان فيها أحوال الأمة، وأخبار المجتمع والأحاديث الأخوية^(٢).

♦ أما المشايخ الذين كانت لهم الريادة في تكوين الشيخ علمياً وسلوكياً فهم ثلاثة من العلماء النحارير والأولياء المشاهير:

أولهم: الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني المتوفى في بيروت سنة ١٩٥٠م - طيب الله مرقده - عالم مشهور، وولي صالح معروف، صاحب التأليف المشهورة، والتصانيف المعمورة التي سارت بذكرها الركبان، أفرد له الشيخ محمد أديب ترجمة ضافية شاملة كاملة في كتابه (إتحاف السائل)^(٣)، وقد بين الشيخ تأثره به بقوله: «وغلب علي حب المطالعة في كتب سيدي وشيخي الوحيد الشيخ يوسف النبهاني البيروتي رحمه الله تعالى والمتوفى بها عام ١٣٥٠هـ، وقد انطبعت في نفسي وسيطرت روحه على روحي، فكان نعم المربي والموجه والمرشد، حتى إنني أجزم بأنه شيخي الروحي الوحيد وإن لم تلتق الأجساد، فللروح سلطانها وتأثيرها، ولذلك أحببته حباً عظيماً حتى إنني كنت أشعر أنه معي ويرافقني في سائر أعمالي وتصرفاتي، وكأنني ولده الوحيد في تعلقه بي، وقد تراءى لي في عالم المنام كثيراً، وذات مرة طلب إلي أن أتقدم إلى الحصول على الشهادة الإعدادية (الكفاءة) وبشرني بالنجاح، وقد كنت تركت الدراسة مدة خمس سنوات، وفعلاً كان ذلك، ونجحت نجاحاً لا بأس به مع أنني لم

(١) اللوحة ٣ ولقد سمعت هذا الحديث من فضيلة الشيخ حين كان معتمراً في مكة المكرمة أيضاً.

(٢) انظر سعيه نحو الإصلاح بين الشيخ محمود الشقفة والشيخ محمد أديب في ترجمة الشيخ محمود الشقفة رحمهما الله تعالى.

(٣) انظر الإتحاف ٢ / ٢٣٦.

أقرأ المقرر إلا مرتين فقط، مع تباين المقررات في تلك الفترات الزمنية، وقد أجازني في سائر كتبه في رؤيا رأيته فيها على شاطئ نهر العاصي وأملاها عليّ وغسلت بها وجهي، وإني على يقين بأنه قد أجازني أيضاً بجميع مروياته، وكل ما ذكره في كتابه هادي المريد إلى طرق الأسانيد، وقد قلت فيه قصيدة ضمن ما سميته أشعاراً^(١).

وعثرت في مقدمة كتاب حسن الشريعة التي حققها الأستاذ محمد أديب على ترجمة لشيخه ثم كلمة ضافية ممتعة مفيدة حول الشيخ يوسف، وحب الشيخ محمد أديب له، مؤكداً فيها على ما ذكره أيضاً في اللمحة، قال فيها: «مرت على المجتمع المسلم أيام ملؤها الجهالة، وليال سوداء ملؤها البطالة، انصرف الناس بسببها عن هدي الشريعة، وانقطعت صلتهم بقائد الأمة ومرشدها سيدنا رسول الله ﷺ وتمسك الناس بترهات وأباطيل، وتعلقوا بخرافات وأوهام لا تمت إلى واقع التشريع بأية صلة، وقصص الزير وعنزة وأبي زيد الهلالي حديث الناس، وذكر أدعياء الشيوخ على كل لسان، فلا مجالس ذكر وعظة، ولا حلقات علم ومعرفة، ولا أثراً للسيرة النبوية، في ذلك الجو المظلم المكفهر المتلبد بالسحب لمعت بروق مؤلفات النبھاني ثناء على الله تعالى، وشدوا بمدح رسول الله ﷺ وذكر الله تعالى ودعاء، وتجديداً للصلة بالله والرسول، فأرشدت الحائرين وهدت الشاردين فكانت الدواء الناجع والترياق المفيد، وإذا بالأرض غير الأرض، فهفت لها القلوب وتعلقت بها الأرواح، وانغرس شجرة المحبة، محبة الله ورسوله في القلوب فآتت أكلها، وأورف ظلها فأوى إليها كل محب صادق، ولهج بذكرها كل صامت وناطق.

لقد شدا النبھاني بالمديح النبوي فكان البلبل المغرد الذي أصغت له القلوب وتغنى

(١) اللمحة ٥ - ٦ وانظر مبحث (شعر الشيخ) من هذا الكتاب لترى القصيدة. وانظر الجامع أيضاً ١ / ٥٤٥.

بالحب المحمدي فكان الصوت الشجي الذي هز النفوس وخالط الأرواح، ومن أجل الحقيقة والواقع أقول: إن مؤلفات النبهي كان لها أثرها الخاص في تكويني الشخصي، فخالطت دمي منذ الصبا، وسرت معانيها في روعي سريان الكهرباء في الأسلاك، فكانت النواة الأولى للعقيدة الصحيحة، والمنهج القويم الذي امتن الله تعالى به عليّ.

وقد قامت مقام المربي والمعلم والمرشد، فأثرت في نفسي وصنعتني صنعاً آخر، وفتحت لي آفاقاً من الذوق الصحيح والروحانية الخالصة التي لا يعرفها إلا من جرّبها، ولا يحس بها إلا من كابدها وخبرها.

وكم كنت أشعر الشعور الذي لا يخامره شك، ولا يخالطه اضطراب بأن روح الشيخ النبهي تلازمي، وأحس إحساساً وجدانياً بأنه معي، وربما تراءى لي في المنام مرات ومرات. ولقد صدق من قال: بأن أرواح الكُمل من الوارثين المتمكنين الصالحين تنفع مريديها وتمتد تلامذتها بالمعاني الروحية الصحيحة السامية بعد وفاة صاحبها أكثر من إمدادها أثناء حياته^(١).

لقد نشأت ولم يشرف على تربيتي أحد، ولم يكن لأحد فضل علي في التوجيه، ولكن روح النبهي الطاهرة، وآثاره المحمدية هي الأصل الأصيل في كشف الحقيقة وإرشادي إلى المنهج السليم والصراط المستقيم، وتخليصي من الأزمات النفسية التي ربا وقع بها الأكثرون، لقد حبيت إلي سير الصالحين، والقراءة عنهم والتعلق بهم، والوقوف على آثارهم، ودراسة أحوالهم حتى تكوّن لديّ اعتقاد صحيح بهم وبما أكرمهم الله سبحانه وتعالى من كرامات عظام وآيات كرام، وهذه من نعم الله عز وجل عليّ «فله الفضل والمنة».

(١) حسن الشريعة ٤٥.

وفي نيتي دراسة شخصية النبھاني دراسة مستفيضة وافية لأعطي الصورة الحية عن هذه الشخصية النادرة التي فنيت في الحب، فاحترقت بناره واستنارت بنوره، وإلى هذا المعنى قلت من قصيدة:

هام الفؤادُ بذكر بانه واللوى وبذي طوى تترنح الأنوارُ
نارٌ ونورٌ في فؤاد مغرم عجباً لنورٍ في المحبة نار

وقام الشيخ محمد أديب بشرح أبيات من قصيدة النبھاني المسماة (الرأية الكبرى) التي عدتها سبعمئة وخمسة وعشرون بيتاً في نهاية تحقيقه لكتاب حسن الشريعة ومطلعها:

بربك ذكرهم عسى تنفع الذكرى فكم نعم أجدى وكم منى كبرى

وقد ضمّن شرحه هذا رقائق راقية ومعاني سامية وفوائد روحية وفكرية سامقة^(١).

ونشر الشيخ له كما ذكرنا عدداً من الرسائل التي ذكرناها في مبحث من مؤلفات الشيخ.

ومما أخبرني به في مكالمة هاتفية في يوم الجمعة من شهر شعبان عام ١٤٢٦هـ قال لي: لقد سررت كثيراً حين اطلعت على بعض فهارس المكتبات، فوجدت رسالة علمية نال صاحبها بها درجة الدكتوراه موضوعها عن الشيخ يوسف النبھاني، فهو شيخي الأول الذي تأثرت به روحاً وسلوكاً وعملاً، كنت أستشعر ذلك في كل مراحل تكويني، فهو والذي في حياتي الخاصة والعامة، وأضاف قائلاً: بوّدي أن أكتب كتاباً عن «أبو الهدى الصيادي» فهو رجل يستحق الكتابة مع أن مصادره قليلة.

ثانيهم: الشيخ محمود بن عبد الرحمن الشقفة - رحمه الله تعالى برحماته وألطافه - تعلق به الشيخ محمد أديب منذ أوائل الخمسينات حين كان الشيخ محمود مدرساً لمادتي التربية

(١) حسن الشريعة ٤٥ وانظر للمحة ٩-١٠-١١ وإتحاف السائل ٢ / ٢٤٣.

الدينية واللغة العربية في القسم الإعدادي في المدرسة المحمدية، وطلب منه أن يرعاه ويتولى تدريسه، والظاهر كما يقول الأستاذ غالب المصري أن مرض الشيخ محمود أو الظروف الخاصة به حيثئذ حالت دون ذلك، لكن الشيخ محمد أديب بقي يلاحقه لمعرفته بقدره وعلمه وجلاله، فتردد على دروسه في سن مبكرة قال: «وأخذت أحضر الدروس العلمية لبعض العلماء في سن مبكرة، فحضرت دروس فضيلة الشيخ محمود عبد الرحمن الشقفة رحمه الله وسامحه في جامع الأربعين (وقد عفت آثاره اليوم حيث دخل في توسعة الشارع العام شارع سعيد العاص) يومياً بعد صلاة المغرب، وكان يخصص لكل يوم مادة من مواد التدريس يوماً للفقهاء، ويوماً للتفسير، ويوماً للحديث، ثم اقتصر على درسين في الأسبوع فقط، مع خطبة الجمعة فيه، وحضرت دروسه في صباح رمضان في الجامع الشرقي، وأحياناً بعد العصر في جامع الأربعين، وحضرته في حاشية الجمل على الجلالين، وشرح الحكم العطائية لابن عباد، وقرأت عليه رياض الصالحين مرتين بحضور جمع من الناس بعد العشاء في الجامع الشرقي، وقرأت عليه قسماً من كفاية الأخيار في الفقه الشافعي، وقطر الندى في اللغة العربية بشرح وتعليق محيي الدين عبد الحميد رحمه الله تعالى^(١).

ويبين الشيخ رعاه الله أن الشيخ محمود كان يشرح رياض الصالحين شرحاً فياضاً، وأنه كتب من كلامه أربعين مجلساً ولكن عدت عليها عوادي الزمن وتأسف عليها تأسفاً شديداً^(٢) وأشار كثيراً إلى تأثير شيخه عليه مؤكداً الصلة الروحية القائمة بينهما قال: إن للشيخ مكانة خاصة في نفسي، ووقعاً متميزاً في سلوكي، لقد ارتبطت بروحي بروحه^(٣) وأكد على ذلك في موضع آخر «وله - أي للشيخ محمود - وقع خاص في نفسي وسلوكي سلوكاً

(١) الشيخ محمود الشقفة حياته وآثاره ١٩.

(٢) الشيخ محمود الشقفة ٢٩ والمقالة ٦-٧-١٥.

(٣) الشيخ محمود الشقفة ٢٩ واللمحة ٣.

وعملاً وقولاً، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه، وأن صلتى الروحية به قائمة وقوية ومستمرة إلى أن ألقى الله عز وجل»^(١) ومن شدة حب الشيخ محمد أديب لشيخه أنه تأثر به في طريقة إلقائه لدروسه قال: «وقد تأثرت به في دروسه وبأسلوبه وبطريقة إلقائه فترة من الزمن لا بأس بها، ومن كان يسمع حديثي في الجامع الشرقي في تلك الأيام يحسب أن الشيخ محمود هو المتكلم»^(٢) ولا يتردد الشيخ محمد أديب عن القول: إن الشيخ محمود هو ولي زمانه قال: «واعتقادي فيه أنه ولي زمانه، وإن لم يكن من أولياء الله تعالى فليس هناك ولي بعده»^(٣).

بل إن الشيخ محمد أديب يعد مستودع أسرار الشيخ محمود - رحمه الله - لطول ملازمته له، وإخلاصه، وقد ألمح أيضاً الأخ غالب المصري إلى ما نوهنا إليه من اختصاص الشيخ محمد أديب دون غيره بكثير من الأمور التي تتعلق بالشيخ محمود ومعرفته بشؤونه ومكانته فقال: لم أر أحداً ممن يعرف الشيخ أو يلوذ به يعرف مكانة الشيخ العلمية وقدره ويعطيه حقه من التقدير، وينسب إليه المستوى العلمي الذي تميز به كما يعرفه له الشيخ محمد أديب، وكان يحدثنا عنه أموراً لم أسمعها من غيره ولا أظن أن أحداً حتى ممن كان يتردد على الشيخ محمود الشقفة يعرف تلك الأمور عنه^(٤). ولحبه وفضله وعلمه نظم فيه قصيدة منذ أربعين سنة ضمّنها معاني دقيقة ودلالات بديعة، قال: «وقلت فيه منذ أكثر من أربعين سنة:

جمال العلم أبدى نوره وظهّر	في وجه من حاز الفضائل وازدهر
هو ذاك الشخص «محمود» الذي	قد سما نبلاً وجاهاً معتبر
يا بشره يا فوزه يا سعده	قد نال حظاً وافراً ومشتهر

(١) الشيخ محمود الشقفة ٢٩ واللمحة ٣.

(٢) أذكر أن الحاج مرعي خليف رحمه الله كان يردد دائماً أن إلقاء الشيخ محمد أديب لدروسه كإلقاء الشيخ محمود الشقفة وكان يقول ذلك على سبيل المدح الافتخار بالشيخ محمد أديب.

(٣) الشيخ محمود الشقفة حياته وآثاره ٤٥.

(٤) تجربتي ٢٥.

العلم:

فالعلمُ عينٌ أُنبعتْ في قلبه
والميمُ محبوبٌ له وفؤاده
انظرْ إلى أخلاقه وتواضعه
تدركُ بذاك السرَّ حقاً متعة
واسمه طبق لمن كانت له
واللام لُطفٌ حفه ربُّ البشرِ
قد صار مأوى للعلوم ومستقر
يظهرُ لك السر المصون المستر
ترمي فؤادك بالملاحه والعبر
خصائص منها انشقاقٌ للقمر

محمود:

فميمة الأولى من المجد اعلم
والحاء حقاً رحمةً في قلبه
وميم ثاني الاسم من محبوبه
والدال من داعي الهداية والتقى
يا مَنْ تُردُّ نيلَ المراتب والعلوم
ذلك المذكور في هذي السطور
يا مَنْ يُردُّ سرَّ الحقيقة والخبر
قد خصها فيه الحكيم المقتدر
والواو من ودِّ قديم مستقر
يا فوزَ مَنْ قد كان فيها ذا نظر
فالزم مجالسَ من له حُسْنُ السيرِ
مورثٌ ممن له سعتِ الشجر^(١)

ومما يجدر ذكره أن الشيخ محمد منير لطفي رحمه الله زار الشيخ محمد أديب في بيته مصطحباً معه شيخ معرة النعمان ومؤسس المعهد الشرعي فيها المفضل الشيخ أحمد الحصري رحمه الله تبارك وتعالى وانجر الحديث إلى علاقة الشيخ محمد أديب بالشيخ محمود فأخبره الشيخ منير بأنها فاترة مضطربة فقال له الشيخ أحمد: «يا شيخ منير أخلص النية وباشر الإصلاح، وسيجعل الله على يديك من الأمر مخرجاً» وفعلاً باشر الشيخ منير سعيه في الإصلاح، وفي نهاية المطاف التقى الشيخ محمد أديب الشيخ محمود في بيته بحضور الشيخ محمد منير رحمه الله تعالى وزال الخلاف والحمد لله، ولتأكيد ذلك صار الشيخ محمد أديب

(١) المقالة ١٦.

يزور الشيخ محمود في التكية بعد صلاة المغرب من كل يوم حتى يعلم الناس ومن حوله أنه لم يبق بينهما أي خلاف^(١). وكان الشيخ محمود يُسرّ بزيارة الشيخ محمد أديب له إذ ينطلق أحياناً بالأحاديث العلمية النافعة، فكأن وجود الشيخ محمد أديب عنده يبعث فيه نشاطه العلمي القديم، وإلى هذا أشار الأستاذ غالب فقال: «وكنا نصحبه - أي الشيخ محمد أديب - من حين لآخر لزيارة الشيخ محمود الشقفة في جلساته المسائية في التكية الهدائية بحماة، وكان الشيخ محمود يجلس كل مساء هناك بين مجموعة من مرافقيه ومحبيه جلسة صامتة، إلا عند حضورنا فقد كان يبدأ في طرح ومناقشة بعض القضايا العلمية، حتى قال لنا أحد المداومين على جلساته تلك: ما السر في أنكم عندما تحضرون ينطلق الشيخ بأحاديثه العلمية والإيمانية، ولا يخوض فيها في بقية الأمسيات؟ فقد كان للشيخ محمود رحمه الله نظرتة، وكأنه ينظر بنور الله، ونحسبه من الأولياء والصالحين، ولا نزكي على الله أحداً^(٢). وفي زيارة أخرى كان الشيخ مستغرقاً - كعادته - فقال له رجل من بيت العُمَر: يا شيخنا هذا الشيخ محمد أديب لكلل حضر، ونحن نستفيد كثيراً من كتبه ومؤلفاته، فنظر الشيخ محمود إلى الشيخ محمد أديب وقال له: وفقك الله.

وفي زيارته الأخيرة التي هناؤها فيها بعيد الفطر، كان الشيخ محمود في غرفته الصغيرة بعد صلاة العشاء، وكان عنده الشيخ صالح النعمان والشيخ محمد أديب كيلاني رحمهما الله تعالى، فجلس شيخنا محمد أديب على يمينه، فقال له الشيخ محمود: كيف حالك يا أديب، لقد قصّرنا في حقك، ثم طلب منه أن ينزل معه في السيارة وأوصله إلى بيته^(٣).

فكانت خاتمة طيبة بين التلميذ وشيخه، ويا خسارة من كان سبباً لذلك الفتور الذي

(١) المقالة ٨.

(٢) تجربتي مع الشيخ ١٠.

(٣) المقالة ١٥.

حصل بين الشيخ وتلميذه النجيب، فهاهو الشيخ وتلميذه قد رفع الله لواءهما، ونشر جناهما، وأعلى مقامهما. ورحم الله أبا الهدى الصيادي حين قال:

حين رامَ الخصمَ وضعي قال لي حبي تعال
أنا في فرقي وجمعي حسبي الله تعالى

والحق أن للشيخ محمد أديب مكانة عالية متميزة عند شيخه، لقد ألفاه حين كان طالباً عنده في المحمدية الشرعية بارع الذكاء، غريب النباهة، حريصاً على العلم شغوفاً به، ناهيك عن استقامته وصلاحه ونقاء سريره، وسيره في طريق القوم على بصيرة، لذا عيّنه مدرّساً في القسم الابتدائي مع رعايته له روحياً أيضاً، مستشعراً أن هذا الفتى سيكون له شأن بين الرجال، فهو - كما ذكرنا - في العلم الشرعي أخذ منه بأوفر نصيب، كما أنه في التزكية والسلوك في أعلى رتبة، نزع ذلك من (الرسالة) التي وجهها إليه الشيخ محمود، ولعلي لا أبعد عن الحقيقة إن قلت: إن الشيخ محمود منذ زمن كتابتها في الستينات استشرف أو بُشّر بما سيكون لتلميذه هذا من مكانة، وما سيتبوّؤه من مقام، لأن فيها من الإشارات ما هو أبلغ من العبارات، وفيها من الرموز ما لا يفقهه إلا أهل البصيرة والحقيقة^(١). وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

والواقع المشهود يؤكد على ما نقول، فقد ذكر الشيخ محمد أديب - رعاه الله - أن صلته الروحية بشيخه قائمة وقوية ومستمرة، وقد ذكرت لشيخنا فضيلة العالم المحقق الولي العارف سعيد الطنطاوي أن ولديّ حسان وعماد سافرا إلى سورية، وحين عودتهما أخبراني أنهما حاولا مراراً وتكراراً زيارة قبر الشيخ محمود فلم يستطيعا، إذ كانت تحصل لهما ظروف

(١) انظر الملحق ١٠ لتراها بخط الشيخ محمود - رحمه الله - وقد صدّرها بالقول: «ولدي القلبي» وفي ذلك إشارة أشار إليها الشعراني في طبقاته ٢٣٦ نقلاً عن الدسوقي رحمهما الله تعالى قال: «ولد القلب خير من ولد الصلب، فولد الصلب له إرث الظاهر من الميراث، وولد القلب له إرث الباطن من السر».

وصوارف إلى أن دعاها فضيلة الشيخ محمد أديب والحاج ممدوح طهماز لتناول طعام الغداء في المزرعة، وحين استقلوا السيارة طلب الشيخ من السائق - ولا أدري من هو الآن حين كتابة هذه الأسطر ولعله أحد أولاده أو طلابه - أن يقف أمام التكية فنزلا وصليا ركعتين ثم توجه بهما إلى زيارة قبر الشيخ محمود رحمه الله وقالوا لي: إن الشيخ محمد أديب كان مستغرقاً أمام القبر كأنه في عالم آخر غير عالمنا هذا، والمهم أن الشيخ سعيد الطنطاوي - أيده الله بتوفيقه - بعد أن سمع مني هذه القصة قال ما نصه: «نعم هل تظن أن الباب مفتوح للصادي والغادي، إن للباب مفاتيح، والدخول يكون بعد أن تفتح الباب بالمفاتيح»^(١)، فأدركت من هذه العبارة ما فيها من إشارة، وما تحمل من أسرار، فللشيخ محمد أديب الكأس المعلى، والمقام الأسمى، ولعل مما يؤكد على قوة اتصاله بشيخه وأن هناك سرّاً بينهما أن الشيخ محمد أديب - نفع الله به وبعلمه ومعارفه - سافر بعد أحداث حماة إلى محافظة مأدبا في الأردن منفرداً لا يعلم به أحد، واستأجر منزلاً ودفع ما يسمى بالعربون، عازماً على استدعاء أهله من حماة للإقامة في مأدبا حتى يحدث الله أمراً، ونام ليلته في المنزل فرأى شيخه الشيخ محمود في المنام وقال له: «ارجع يا أديب إلى البلد» واستيقظ صباحاً واتجه إلى محطة السفر في عمان - العبدلي - وراح ينتظر حتى تمتلئ السيارة بالركاب لتنتقل إلى دمشق، وحين كان واقفاً بانتظار الركاب، مرّ به رجل وتحدّث معه سريعاً بعبارات لم يذكرها الشيخ محمد أديب لكنه قال: «أدركت من هذا الرجل أن الرؤيا صحيحة تماماً، وأنه علي الرجوع إلى البلدة»^(٢).

وقلت في نفسي يبدو أن الشيخ محمد أديب - رعاه الله - اجتباه الله وهيأه لهذه المرحلة التي تمر بها البلدة حيث لا علماء يلجأ الناس إليهم لحل مشاكلهم، ولا مشايخ يتردد أهل

(١) أسأل الله لهما ولجميع أولاد المسلمين الهداية والاستقامة وأن يجعلهم برة اللهم آمين.

(٢) أخبرنا بذلك في مكة المكرمة، بصحبة الحاج ممدوح طهماز والأخ الفاضل عادل قندقجي، وولدي الشيخ محمد زاهر، ومحمد علي، حفظهم الله جميعاً.

البلد إليها يواسونهم في محتتهم، ويشكون إليهم احتياجاتهم، فالمصيبة عظيمة، والمحنة شديدة، والجراح أليمة، والناس بحاجة إلى من هو ثقة عندهم، لذا نزل الشيخ عند قومه أباً شفوفاً، وأخاً مواسياً عطوفاً، وما زال شأنه إلى الآن، أحبه قومه لإخلاصه وورعه وزهده وكريم شمائله، ولأهل الله أسرار عجيبة ولغوز عميقة يدركها من نور الله بصيرته، وجلا حجه، وأضاء قلبه، ورحم الله الرواس القائل:

إذا القومُ أهلُ الله بشَّرَ بعضُهم بشيء ترقبُ يا بُنيَّ ظهورَه
فوعدهم من نورِ حضرةِ ربهم ولا بد أن الله يكملُ نورَه

وها هي صورة الرسالة التي أرسلها فضيلة الشيخ محمود إلى تلميذه فضيلة الشيخ محمد أديب فتأملها، ففيها بوارق الحقائق والله هو الوهاب الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

ولدي القلبى محمد ديب كلكل وفقه الله وحفظه أمين

السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته

أما بعد: فقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وفي الحديث القدسي [إن من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليم أني لو أعطيته إياه لدخله العجب فأفسده، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى، وإني لأدبر عبادي لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير]....

فكم من مريد فُتِحَ عليه بطلبه من شيخه قبل أوانه - وسبق القدر بذلك - فانحلت

عقيدته وأصبح من الزنادقة المارقين، وكم من مرید كان الفتوح سبباً لانحلاله في التكاليف الإلهية فأصبح من الإباحية المفسدين، وكم من مرید جرّ عليه الفتوح ذيل العجب والغرور فهو إلى أسفل سافلين...

لذلك فإن المشايخ العارفين الوارثين المتمكنين الذين يعلمون من المرید ما لا يعلمه هو من نفسه يكتفون بملاحظة المرید روحياً من حيث لا يشعر ولا يعطونه السر إلا حيث آمنوا عليه هذه المخاطر كلها، واستأذنوا بذلك رسول الله ﷺ وعلى الغالب لا يكون ذلك إلا عند قرب رحيلهم من عالم الدنيا، ليكون المرید وارثاً لمقاهم متمكناً من نقل السر إلى غيره من بعده لكيلا تنقطع الوراثة المحمدية، هذا وإن عبادة المرید الملاحظ من شيخه مع الحجاب هي أكثر ثواباً وأسلم عاقبة، حيث ينضم إليها نعمة الإيمان بالغيب التي لا يوازيها شيء آخر، ولذلك جعلها الله تعالى الوصف الأول الأعلى للمتقين فقال في صدر كتابه العظيم: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب...﴾.

فلا تستقل نعمة الله عليك، بل كن له سبحانه عليها من الشاكرين، وأوصيك بأمور ثلاثة ليبقى الاتصال الروحي قائماً: (١) تسليم مطلق لا يخالطه شك ولا يخالجه اضطراب ولا يشوبه تردد (٢) ومحبة صادقة (٣) وكثرة الصلاة والتسليم على من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين....

والله يتولى هداي وهداك وهو يتولى الصالحين، والسلام عليكم

محمود عبد الرحمن الشقفة

ثالثهم: الشيخ محمد الحامد - بَلَّ الله ثراه بوابل رحماته - العالم المتقن والمجاهد المعروف، صاحب التأليف المفيدة والتصانيف النافعة التي تنم عن علم غزير، ومنهج علمي دقيق، وما تزال آثاره وشأنه واضحة في كثرة مريديه وطلابه في حماة وخارجها، وقد بدت

صلة الشيخ محمد أديب به وتلمذته عليه في الصور الآتية:

١ - تردد الشيخ محمد أديب على حلقاته العلمية وخطبه المنبرية مدة طويلة، قال: «ومن شيوخي الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى عالم حماة الأوحاد، ومرشدها المسدد، حضرت له دروساً في جامع السلطان، وخطب الجمعة فيه مدة طويلة، وكذلك في جامع المدفن، وجامع المسعود حتى توفاه الله تعالى عام ١٩٦٩م في شهر أيار^(١). ولم يقتصر الأمر على الشيخ محمد أديب فقط بل كان يشجع طلابه على حضور دروس الشيخ محمد الحامد - عليه الرحمة والرضوان - وخطب الجمعة، وقد كنت أنا واحداً من الذين يصلون الجمعة مع شيخنا الشيخ محمد أديب في مسجد المدفن، وبعد انتهاء الصلاة كنا نحرس على أن نسلم على الشيخ محمد الحامد مع أي كنت صغيراً في أول المرحلة الإعدادية، ولقد تبرّكت بلثم يد الشيخ محمد الحامد أكثر من مرة والله الحمد، ومن كان معنا الأخ الفاضل حمدو حمشو إذ ذكر ذلك بقوله: «وكان يصحبنا إلى مسجد المدفن حيث كان يخطب فيه الشيخ محمد الحامد بعد أن هدم جامع السلطان». وأكد ذلك الأخ غالب قال: «كان يجثا على حضور جلسات العلم أو الذكر عند العلماء العالمين من أمثال الشيخ محمد الحامد والشيخ محمود الشقفة...»^(٢). وزيادة في الفائدة كان الشيخ محمد أديب يطلب منا أن نقوم بتلخيص الخطبة وإلقائها بعد الدرس المسائي في - دار المشايخ - على الإخوة، فمما أذكره أنني حضرت مرة خطبة للشيخ - رحمه الله - كان موضوعها الإسراء والمعراج، فرجعت إلى البيت ولخصتها مباشرة بعد الصلاة لثلاث أنسى أفكارها، ثم ألقيتها أمام إخواني بعد الدرس، ومثل ذلك صنع الأخ حمدو حمشو وغيرنا، والغاية من ذلك تعليمنا الخطابة وعدم الخوف من هذا المقام، فلهذا در الشيخ - كثر الله فوائده - ما أرقى منهجه، وما أبدع مسلكه.

(١) اللوحة ٣.

(٢) تجرّيتي ١٠.

ويندرج تحت هذا المظهر صلة الأخ الأستاذ غالب المصري الوثيقة بالشيخ محمد الحامد، فهو من تلامذته في المدرسة الحكومية، وحين عرف الشيخ أنه من تلاميذ الشيخ محمد أديب أحبه وأكرمه، وصار الأخ غالب صلة الوصل بين الاثنين على نحو ما سنذكره بعد.

٢ - تشجيع الشيخ محمد الحامد تلميذه على البحث والتمحيص والاستقراء الدقيق أي حثه على البحث العلمي الجيد، وذلك بتحقيق شروطه من الرجوع إلى المصادر الأصلية، والإتيان بالأدلة وما يرد عليها، ثم الوصول إلى الحقيقة، وقد أشار الشيخ محمد أديب إلى ذلك في مقدمة كتابه تنبيه الفكر قال: « فاتصلت بسيدي محمد الحامد عليه الرحمة والرضوان، وشرحت له أمري، وصارحته بما استقر في فكري، وما وصلت إليه من يقين، فوضح لي بعض الأمور، وكشف لي الحقيقة وصارحني بأن الذي أشكوه وآلم منه قد مرّ به هو في مرحلة معينة من مراحل دراسته، وشجعني على متابعة البحث، وتمحيص الأمر تمحيصاً علمياً لئلا يرد علي رادّ، فجمعت أقوالاً كثيرة لعلماء أفاضل، تثبت الحقيقة وتبني السبيل فعرضتها عليه رحمه الله فسّر بها سروراً عظيماً، وكان مما كتبه إلي بخطه: «أما بعد: فقد أجدت وأفدت أيها الأخ الناصح، وإن هذا الذي تدعو إليه جماعة الذاكرين هو المهيع السليم، والصراط المستقيم، والمحجة البيضاء الواضحة، وجدير بكل مشفق على دينه من النقص أن يعتد بهذه النصيحة، ويحلها محلها من القبول ثم العمل...»^(١).

وأكد الشيخ محمد أديب على هذه الفائدة فقال: «وقد تأثرت به تأثراً عظيماً من حيث الأسلوب مع التحقيق والمنهج السديد في الوقوف على دقائق المسائل وغوامضها، فقد استفدت من أسلوبه العلمي الذي يعتمد على التمحيص والتحقيق والتدقيق»^(٢).

(١) تنبيه الفكر ٧-٨.

(٢) اللوحة ٣.

ومعلوم أن الشيخ محمد أديب عرض كل ما جمعه من بطون الكتب حول الذكر الشرعي بعد ترتيبها ومناقشة ما فيها على فضيلة الشيخ محمد الحامد فوافقه عليها، وكتب له كلمة بعنوان - المنع من الذكر المحرف - نشرها الشيخ محمد أديب في الكتاب المذكور^(١).

٣ - رعاية الشيخ محمد الحامد له في تشجيعه، وذلك بنشر كتب تلميذه، فمما لا شك فيه أن شهرة الشيخ محمد الحامد تعدت سوروية إلى أقطار عربية وإسلامية، فكان الشيخ يرسل مؤلفات الشيخ محمد أديب إلى العلماء الذين يعرفهم وتربطه بهم علاقة، من ذلك أنه أرسل للعالم الفاضل الشيخ موسى شرف وهو من جماعة كبار العلماء في مصر كتاب تنبيه الفكر، ونقل الشيخ محمد الحامد رسالة الشيخ موسى شرف الذي أثنى فيها على الكتاب^(٢).

ومن ذلك أيضاً إهداؤه الشيخ عبد الغني حمادة من علماء إدلب نسخة من كتاب تنبيه الفكر فردّ الشيخ عبد الغني حمادة على هذه الهدية بهدية من مؤلفه (صحح صلاتك) إلى الشيخ محمد أديب عن طريق الشيخ محمد الحامد رحمه الله وكتب الشيخ محمد الحامد على غلاف الهدية ما يفيد إعجاب الشيخ عبد الغني حمادة بكتاب تنبيه الفكر طالباً من الشيخ محمد الحامد أن يطلب من الشيخ محمد أديب ترجمة ذاتية ليضمها ضمن كتاب يعدّه عن العلماء^(٣).

٤ - حثه طلاب العلم على حضور مجالس الشيخ محمد أديب والتزامهم منهجه، قال الأستاذ غالب المصري: «في أواخر العام الدراسي ١٩٦٦م كنت في الصف - أي شعبة الدراسة - مع اثنين آخرين هما ثابت هبرة وعبد الله كرزون، وكان الشيخ محمد الحامد جالساً، وكان لا يغيب حتى إن لم يكن أحد في الصف، فقال لنا من بين ما قال بعد أن سألنا عن عدد

(١) انظر مقدمة كتاب تنبيه الفكر، وانظر ما ذكرناه حول هذا الكتاب في فصل مؤلفات الشيخ.

(٢) انظر صورة المكاتبة في الملحق (٦).

(٣) انظر الملحق (٩).

المداوامين عند الشيخ محمد أديب كلكل: «الزموا هذا الرجل، فهو كالصحابة في هذا الزمان، وكتابه تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر لم يسبقه فيه أحد في هذا المضمار، فقد أعطى هذا الموضوع حقه، إنه على الحق، والله إني أحب هذا الرجل - كررها ثلاثاً»^(١).

وذكر في موضع آخر «أن الشيخ محمد الحامد رحمه الله رأي مرة فسلم وقال لي: كيف حال الشيخ محمد أديب؟ سلم لي عليه وقل له أن يحرص على نشر الطريقة الرفاعية في البلد، صحيح أني نقشبندي، لكنني أفضل انتشار الطريقة الرفاعية»^(٢).

ومن مظاهر هذه الرعاية أن الشيخ محمد الحامد - نور الله قبره - كان لا يمنع أحداً من حضور مجلس الذكر الذي عقده الشيخ محمد أديب في المسجد الشرقي مساء الجمعة من كل أسبوع، فقد كان ابنه الفاضل محمد أمين من المواظبين عليه مع بعض تلامذة الشيخ، وأحسب أن والده لو لم يك راضياً عن ذلك لنهاه عن الحضور كما هو شأنه في تعامله مع كل ما ليس شرعياً.

والحق أن الشيخ محمد الحامد رحمه الله لم يقتصر في رعايته الشيخ محمد أديب على الجانب العلمي، بل امتد ذلك إلى الاهتمام به في تدبير شؤونه في الحياة، فحين علم بالخلاف الذي حصل بين الشيخ محمد أديب وإدارة مجلس التكية، حاول إصلاح الأمر عن طريق الشيخ سعيد حوى، ولكن المسعى لم يثمر عن شيء لأن الحاسدين كانوا وراء تصعيد الأزمة، وكان الشيخ محمد أديب رعاه الله يقابل هذا الاهتمام والتشجيع بالثناء على الشيخ وتوقيره وتبجيله، وجعله نبراساً يحتذى، ومشعلاً يستضاء به، لذا كان يأمر طلابه - وهو معهم - كما ذكرنا على حضور دروس الشيخ وخطبه، يضاف إلى ذلك أنه جعل إهداء كتابه الفقه المبسط

(١) تجرّتي ٣٣ وذكر ذلك أيضاً الأستاذ عوض القناني في مذكرته من ذكرياتي ٨.

(٢) تجرّتي ٢٣.

إلى الإمام الشافعي وإلى الشيخ محمد الحامد مصدراً ذلك باللقاب تدل على مكانة الشيخ عنده ومنزلته، قال «وإلى فقيه العلم والإسلام، وإمام الدعوة والإرشاد سيدي الشيخ محمد الحامد عليه الرحمة والرضوان»^(١)، وعدّد ألقابه العلمية التي يود الشيخ أن يمدحه بها في عدد من مؤلفاته «فهو شيخ حماة بلا منازع»^(٢)، و«عالم حماة الأوحد ومرشدها المسدّد»^(٣)، «وهو شيخه الجليل وسيّده ومولاه»^(٤).

وأفرد له في إتحاف السائل مقالة خاصة نقلها من كتاب / كيف ندعو الناس / لمؤلفه عبد البديع صقر الذي يعرف الشيخ محمد الحامد معرفة طيبة، وقد جعل الشيخ محمد أديب عنوان المقالة / من مآثر الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى /^(٥) وفيها يعدد الشيخ عبد البديع صقر صفات الشيخ محمد الحامد ومآثره وسجاياه الكريمة التي تدل على ريادته في العلم والمعرفة والورع والزهد. وتفرد أيضاً الشيخ محمد أديب في كتابه الأنيس في الوحدة بذكر ستة أبيات للشيخ محمد الحامد عنونها باستغفار الشيخ محمد الحامد - رحمه الله تعالى - وهي:

يا أرحمَ الرحماء مالي حيلةٌ	إلا الرجوعُ إليك يا رباه
أنا قد أسأتُ وأنت رب غافر	غوثاه مما قد عرا غوثاه
يا سيدي يا مَنْ إليه شكايتي	أواه مما نابني أواه
أدركُ بلطفك نادماً ذا حسرةٍ	مستغفراً مما جنته يده
ما للضعيف إذا ألت كربةٌ	إلا الدعا الله يا الله

(١) الفقه المبسط ٣.

(٢) تطيب المرأة ١٢.

(٣) اللمحة ٣.

(٤) السهام الصائبة ٤.

(٥) إتحاف السائل ٣ / ١٩٦.

يا ربِّ نَفْسٍ عن عُبيدِكَ كَرِبُهُ وَأَرْحُهُ مما قد عنا ودهاه^(١)

وقد أخبرني مع مجموعة من طلابه حين كانوا في العمرة أن الشيخ محمد الحامد رحمه الله رأى الرواس في المنام قال له: «ما هذا الخفاء؟ فأجابه هذا من تحلي الأسماء» ومما سبق ندرك منزلة الشيخ محمد الحامد عند تلميذه الشيخ محمد أديب ورفعة شأنه وعظمة أمره.

وقد سألته مرة في إحدى المكالمات الهاتفية وذلك في ٨ / ٦ / ١٤٢٧ هـ عن أن بعض الإخوة قالوا لي: إننا نتهيب كثيراً من رؤية الشيخ محمد أديب إذ نشعر بشعور خاص قوي لا نستطيع التعبير عنه حين نجلس معه فما الأمر؟ وأكدت على الجواب أن يكون صريحاً راجياً منه بيان ذلك لأنني أسأل عن ذلك كثيراً، وبعد إلحاح قال: يا بُنيَّ لعل ذلك يعود إلى المشايخ الذين عشنا معهم في صفاتهم وأخلاقهم وعلومهم ومعارفهم، ولعل ما يشعر به هؤلاء الإخوة يعود إلى انعكاس شخصية هؤلاء العلماء علينا، فالجلال اتصفنا به من الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى والشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى، والجمال اتصفنا به من الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى والشيخ محمود الشقفة رحمه الله، والله تعالى أعلم.

ولهذا وصفت الشيخ - فيما سبق - بأنك تلحظ فيه الجلال والجمال، ولا شك أن هذا حال ومقام يدرکہما أهل الذوق ممن صفت أخلاقهم وتنوّرت أرواحهم....
وحال القوم فيها بدائع لا يفطن إليها أهل القواطع - كما قالوا -.

وما أجمل قول الرواس رحمه الله هنا:

الحال يعبُّ مسكاً ضمنَ حامله	وكيف يَنشُقُ ريحَ المسكِ مزكُومٌ
قوموا أُصِحِّبَ حالي واتبعوا أثري	فإنما صاحبُ المرحومِ مرحومٌ
تلك المراتبُ للأحبابِ قد ذُكِرَتْ	وسيرةُ الأمرِ منطوقٌ ومفهومٌ

(١) الأنيس ١ / ١٣١.

نفعنا الله جميعاً بعلومهم ومعارفهم.

٢ - القسم الثاني من أساتذة الشيخ محمد أديب وشيوخه، وهم الذين كاتبهم أو كاتبوه في مسائل شرعية، أو كتبوا له ثناءً بعد قراءتهم بعض كتبه، أو قاموا بزيارته، وهم ينتمون إلى عدد من محافظات القطر السوري، عرفنا منهم:

١ - الشيخ رشيد الراشد التاذفي الحلبي رحمه الله تعالى: قال الشيخ عنه: «تلقيت الطريقة النقشبندية عن الشيخ رشيد الراشد التاذفي الحلبي عن الشيخ عيسى الببانوني رحمه الله تعالى عن الشيخ أبي النصر خلف الحمصي رحمه الله تعالى»^(١)، وقد أحب الشيخ رشيد الشيخ محمد أديب كثيراً، وعرف قدره^(٢)، فأكثر من زيارته، وأذكر أنني رأيته أكثر من مرة في دار المشايخ يجلس بالقرب من الشيخ في درسه المسائي، وكان الشيخ محمد أديب يعقد حال حضور الشيخ رشيد أكثر من حلقة ذكر في الدار بعد الانتهاء من الدرس المسائي، وكان الشيخ محمد أديب يوقره ويحله كثيراً، قال عنه الأستاذ غالب المصري ما نصه: «كان من علماء حلب الذين عليهم سبيل العلم والصلاح، وله مؤلفات كثيرة فكان - أي الشيخ محمد أديب حفظه الله - يقدّمه في الصلاة، وفي إلقاء الدروس في معظم الأوقات التي كان يحضر فيها، إلا مرة كان فيها درسه الصباحي في شهر رمضان في الجامع الشرقي وكان لتلك الدروس برنامج منهجي وضعه الشيخ محمد أديب لتكتمل الفائدة، وكان حريصاً على متابعة برنامجه ومنهجه

(١) اللوحة ٤ من المفيد هنا أن نذكر أن شيخ الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى في الطريق هو أبو النصر خلف الحمصي، وهذا يعني أن الشيخ محمد أديب يلتقي مع الشيخ الحامد رحمه الله عند الشيخ أبي النصر، كما التقى مع الشيخ محمود الشقفة عند الشيخ عبد الرحمن السبسي في الطريقة الرفاعية، وانظر فائدة ذلك في قراءتك لترجمة الشيخ محمد الحامد رحمه الله، فالشيخ محمد أديب متصل بأستاذيه علماً وطريقة.

(٢) ومن وجوه إعجابه به أنه أرسل إليه رسالة كتب على غلافها «نحظى بلثم أنامل الأستاذ الفاضل الشيخ محمد أديب لكل فتح الله علينا وعليه فتوح العارفين آمين» انظر صورتها في الملحق (٥).

دون تغيير للأسلوب، أو انقطاع فيه حتى لا تضيع الفائدة، وينقطع تسلسل الموضوعات وكأن الشيخ رشيد أحب من الشيخ محمد أديب أن يقدمه للتدريس يومها لكن الشيخ التزاماً منه بالمنهج لم يقدمه حفاظاً على تسلسل الدروس، والظاهر أن الشيخ رشيد عدّ ذلك إهمالاً له فحاول من خلال التوجّه القلبي والروحي عليه أن يوقفه عن الدرس، ويصبيه بالعجز عن الاستمرار فيستغلّق عليه الكلام، وتضيع منه الأفكار، وصارح الشيخ محمد أديب بذلك - بعدئذ - وأخبره أنه فعل ذلك مع كثير من قبله فلم يقدرُوا على متابعة الكلام، ثم علق على ذلك قائلاً: «هذا دليل إخلاصك وتمكنك وثقتك بنفسك وتأيد الله لك»، ولقد لقنه الطريقة النقشبندية وأذن له بوردتها، وأخذنا ذلك منه تبركاً بذكر الله تعالى وبطريق الصالحين في التربية والسلوك إلى الله تعالى^(١).

٢ - الشيخ عبد الغني حمّادة رحمه الله تعالى: ذكره الشيخ بقوله: «ومن شيوخه الشيخ عبد الغني حمّادة وكانت بيني وبينه علاقة قوية، وقد زارني مرات في بيتي، وتبادلنا أطراف الحديث وبعض النواحي العلمية^(٢)، وسيمّر معنا في فصل ثناء العلماء على الشيخ أن فضيلة الشيخ محمد أديب أهده كتابيه الحج والعمرة وبداية السؤل في تفضيل الرسول المعظم ﷺ، فأثنى على الشيخ محمد أديب في رسالة أرسلها إليه ومما قاله فيها: «يا أخي لقد كنت في العلم هلالاً فأصبحت في هذا الكتاب بدرأ^(٣)».

وأرسل إليه نسخة من كتاب تنبيه الفكر عن طريق الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى فطلب من الشيخ محمد الحامد في رده ترجمة وافية عن الشيخ محمد أديب ليضعه في معجم

(١) تجربتي ١٦.

(٢) اللوحة ٣.

(٣) انظر الملحق ٢.

خاص بالعلماء يقوم بتأليفه^(١).

٣ - الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله: وقد كان بينه وبين الشيخ محمد أديب مراسلات^(٢)، لعل أهمها تلك الرسالة التي تتصل بكتاب تنبيه الفكر^(٣).

٤ - الشيخ عيسى الخطيب رحمه الله: من قرية إعزاز القريبة من مدينة حلب، وقد أرسل له الشيخ محمد أديب نسخة من كتابه تنبيه الفكر، فرد عليه برسالة مائة يمدح فيها المؤلف والمؤلف^(٤).

٥ - الشيخ أحمد صالح الشامي رحمه الله مفتي دوما، وكان الشيخ محمد أديب قد أرسل له سؤالاً حول الأوراق النقدية أهى عروض أم نقود؟ فأجابه برسالة مضمونها تأييده لفتوى الشيخ محمد أديب حفظه الله^(٥).

٦ - الشيخ موسى شرف وهو من جماعة كبار العلماء في مصر، وكان قد أرسل له الشيخ محمد الحامد رحمه الله نسخة من كتاب تنبيه الفكر، فأعجب به وأرسل للشيخ محمد الحامد رسالة ضمّنها إعجابه وثنائه بهذا المؤلف^(٦).

٧ - الشيخ أسعد العبيجي مفتي الشافعية بحلب كاتبه الشيخ حول الأوراق النقدية فأكد له بما أفتى به الشيخ محمد أديب حفظه الله.

٨ - الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي العالم المشهور المعروف كاتبه الشيخ

(١) انظر الملحق ٩.

(٢) اللوحة ٤.

(٣) انظر الملحق ٤.

(٤) انظر الملحق ٧.

(٥) انظر صورة هذه الرسالة في الملحق ١، وانظر أيضاً الملحق رقم ٣.

(٦) انظر صورة من ذلك في الملحق ٦.

أيضاً حول الأوراق النقدية فأكد له أيضاً بما أفتى به.

٩ - الشيخ عارف جويجاتي إمام جامع الروضة في دمشق كاتبه الشيخ حول الأوراق النقدية فأكد له أيضاً فتواه^(١).

١٠ - الشيخ صالح العقاد شيخ الشافعية في دمشق^(٢).

١١ - الشيخ حسن حبنكة العالم المجاهد المعروف في دمشق^(٣).

رحمة الله عليهم أجمعين، وحشرنا في زميرهم تحت لواء سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام.

♦ هؤلاء هم أبرز المشايخ والعلماء الذين أفاد منهم الشيخ محمد أديب وفقه الله سواء بتردده على حلقاتهم العلمية أو مكاتبتهم لهم أو زيارته أو بالعكس...

قراءات الشيخ

ثمة رافد آخر أفاد منه الشيخ كثيراً وهو الحب الشديد للقراءة، فقراءات الشيخ منذ نعومة أظفاره متنوعة متعددة، وهو منهم في القراءة حريص عليها، متابع لما يصدر من مؤلفات ومجلات علمية متخصصة، يبدو ذلك من موسوعته العلمية إتحاف السائل أو كتابه الأنيس في الوحدة إذ ترى فيها مكتبة عامة تشمل ما يتصل بالعلوم الشرعية واللغوية والحياتية من طب وفلك وهندسة وتجارة... إلخ فتدهش من كثرة قراءات الشيخ، وقد وقع إلي - والله الحمد - ما حفظته ذاكرة الشيخ من كتب قرأها للعلماء العاملين والأولياء العارفين من قدماء ومحدثين، وبين فيها مدى تأثيرهم على شخصيته علمياً وفكرياً وسلوكياً وروحياً وما أفاده

(١) اللوحة ٣ - ٤ وانظر إتحاف السائل ١ / ٢٧.

(٢) اللوحة ٤.

(٣) اللوحة ٤.

منهم.

قال بلغه الله مناه، وكبت أعداءه:

«ومن الشيوخ الذين تأثرت بهم سيدي حجة الإسلام الغزالي رحمه الله وخاصة كتابه الجامع المانع إحياء علوم الدين، وهو من أوائل الكتب التي قرأتها وانطبعت أفكاره في نفسي، فهو حجة الإسلام حقاً وصدقاً وفكره العجيب يستولي على القلب فيستجيب لما ينتج عنه، وهو أحد عظماء الفكر الإسلامي الخمسة وهم: الجاحظ وأبو حيان التوحيدي وابن خلدون ومحيي الدين بن العربي، وقرأت من كتبه بداية الهداية وشروحها، والمنقذ من الضلال، ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، والمستصفى في الأصول، والوسيط في الفقه ويقع في سبعة مجلدات.

ومن شيوخي الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى وقرأت من كتبه: العهود المحمدية، ولطائف المنن، والميزان، وتنبيه المغترين، واليواقيت والجواهر، والطبقات الكبرى، والصغرى، وله وقع خاص في نفسي وإن كان قد دس عليه الكثير في حياته وبعد وفاته، وله آراء في بعض مراحل السلوك موقوفة عليه لا أوافقها ولا أرتضيها، وتصوف الغزالي أقرب إلى المنهج العلمي، وإن كان رحمه الله تعالى له آراء موقوفة عليه كذلك في الزهد والتوكل وغير ذلك، ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾.

ومن شيوخي الذين تأثرت بهم سيدي الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى وخاصة كتاب الفتوحات، وله اصطلاحات خاصة في مدارج السلوك، وقد ثبت عنه أنه قد أحدث لغة خاصة به كما أشار إلى ذلك مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب، ولذلك قال رحمه الله تعالى: «تحرم القراءة في كتبنا لمن لم يكن عارفاً باصطلاحنا».

ومن شيوخي الذين تأثرت بهم سيدي الشيخ أبو الهدي الصيادي وشيخه السيد محمد

بهاء الدين الصيادي المشهور بالرواس، وقد تعلقت بكتبهما منذ الصغر، وقرأت كل ما وصلت إليه يدي من كتبهما.

ومن شيوخه الذين تأثرت بهم سيدي الشيخ أحمد الرفاعي وسيدي عبد القادر الكيلاني، وسيدي أبو الحسن الشاذلي وتلميذاه الكبيران سيدي أبو العباس المرسي، وسيدي أحمد بن عطاء الله السكندري وخاصة كتابه لطائف المنن ومفتاح الفلاح والقصد المجرد في معرفة الاسم المفرد والتنوير في إسقاط التدبير والحكم العطائية.

ومنهم سيدي المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني عليه الرحمة والرضوان.

وغيرهم كثير لا يمكن حصرهم^(١).

وإن أنس لا أنسى إمامي الكبير في المذهب الإمام الشافعي وأمه. ورأيت في عالم المنام أنني وإياه شريكان على قطع من الغنم.

وتأثرت بكتاب الرعاية لأبي الحارث المحاسبي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، والبرهان المؤيد لسيدي أحمد الرفاعي، والرسالة للقشيري، وغير ذلك من كتب التصوف الشيء الكثير الذي لم يحضرني ذكر اسمه الآن، فهم رضوان الله عليهم أطباء القلوب، وأساتذة علم النفس في العالم، نفعنا الله بهم وأفاض علينا من بركاتهم.

ومنهم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وقد قرأت كل كتبه.

وكذلك الدكتور نور الدين عتر، والدكتور وهبة الزحيلي، والدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، والدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر سابقاً رحمه الله تعالى وخاصة كتابه المدرسة الشاذلية الحديثة.

(١) أفاض الشيخ في ذكر أشياء حذفناها بعد الاستئذان منه.

وتأثرت بالشيخ الفاضل العالم الرباني أبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى فإني أحبيته حباً شديداً، وقرأت الكثير من كتبه، وكم رأيت في عالم المنام، وقد أهداني في إحدى الرؤى جهاز تسجيل ضخيم هو مجموعة من علماء الهند الصالحين.

ومنهم الدكتور يوسف القرضاوي، وحسين مخلوف، واللواء الركن محمود شيت خطاب رحمه الله تعالى، والشهيد عبد القادر عودة، وأديب العروبة والإسلام مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى ومن كتبه التي قرأتها تاريخ آداب العرب في ثلاثة مجلدات، وحي القلم، المساكين، أوراق الورد، السحاب الأحمر، حديث القمر، رسائل الأحرار، تحت راية القرآن.

وإن أنسى لا أنسى كتب أبي الفرج الجوزي، وابن قيم الجوزية وخاصة كتاب مدارج السالكين في ثلاثة مجلدات، وإعلام الموقعين في أربعة مجلدات، وغير ذلك من كتبه الكثيرة المتنوعة، وكذلك بعضاً من كتب ابن تيمية رحمه الله تعالى فهو وابن القيم من أعظم فلاسفة الفقه والحديث وإن كانت لهما بعض السقطات والهفوات فهي في جانب حسناتهم لا تعد شيئاً ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وإن كان ابن القيم أهدأ نفساً وألين عريكة فهو صاحب القلم السيل والسحر الحلال.

وقد قرأت أكثر كتب الفقه الشافعي المعروفة مثل الأم للشافعي والوسيط والوجيز للغزالي والمجموع للنووي وشروح المنهاج مثل مغني المحتاج للخطيب الشربيني والسراج الوهاج للغمراوي وحاشية قليوبي وعميرة على شرح المنهاج للمحلي وحاشية الباجوري والإقناع وحاشيته للبجيرمي عليه والروضة للإمام النووي رحمه الله تعالى وغير ذلك.

وقرأت في الفقه الحنفي الهدية العلائية وكتبت عليها تعليقات مفيدة، وحاشية ابن عابدين، والمبسوط للسرخسي ويقع في خمسة عشر مجلداً، ومراقي الفلاح، وحاشية

الطحطاوي وغير ذلك من كتب السادة الحنفية.

وقرأت من كتب الحنابلة الإقناع في أربعة مجلدات، والمغني لابن قدامة المقدسي ويقع في اثني عشر مجلداً، والعدة بشرح العمدة، وشرح دليل الطالب المسمى نيل المآرب، والفقه الحنبلي الميسر في أربعة مجلدات للزحيلي.

وقرأت من كتب المالكية المدونة الكبرى للإمام مالك وتقع في ستة مجلدات، والشرح الكبير، وحاشية الدسوقي عليه في أربعة مجلدات، والقوانين الفقهية لابن جُزي، وبداية المجتهد لابن رشد، والموافقات والاعتصام للشاطبي، والفقه المالكي الميسر للزحيلي.

وقرأت في الحديث الشريف كتباً عديدة منها صحيح البخاري وبعض أجزاء من شرح القسطلاني عليه، وشرح صحيح مسلم للإمام النووي، وسنن الترمذي، وموطأ مالك، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه، والترغيب والترهيب للمنذري، ورياض الصالحين للنووي، وطرح الثريب بشرح التقريب، وفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، وسبل السلام، وكتب أخرى تتعلق في أحاديث الأحكام وعلوم الحديث الشريف مثل مقدمة ابن الصلاح ومنهج النقد في علوم الحديث، وقواعد التحديث للقاسمي.

وقرأت في التفسير الفخر الرازي، والخازن. والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن كثير، وظلال القرآن لسيد قطب، وآيات الأحكام للسايس، وأحكام القرآن للشافعي، وأحكام القرآن للجصاص الحنفي، وأحكام القرآن لابن العربي المالكي، وآيات الأحكام للصابوني، ومن علوم القرآن البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، ومناهل العرفان للزرقاني.

وقرأت من كتب العقائد جوهره التوحيد وحاشيته للباجوري، والسنوسية وحاشيته

للماجوري أيضاً عليها، والاقتصاد في الاعتقاد وإلجام العوام وكلاهما للغزالي، وتوضيح العقائد للجزيري، وكبرى اليقينيّات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والعقائد الإسلامية أسسها ومبادئها للدكتور عبد الرحمن حبنكة، وغير ذلك مما كتب قديماً وحديثاً في هذا الشأن.

وقرأت كتباً في الأصول منها المستصفى للغزالي، والإحكام للآمدي، والموافقات للشاطبي، وأصول الفقه للخضري، والتبصرة لأبي إسحاق الشيرازي.

وقرأت كتباً في السيرة النبوية والتاريخ وتراجم الرجال، وكتباً في اللغة، وكثيراً من المجلات العلمية، وما زلت أقرأ كل ما يستجد مما ينمي الملكة العلمية ويدعم الثقافة الفكرية.

وقد استطعت والحمد لله أن أكوّن في نفسي ملكة علمية، وذخيرة حيّة لا بأس بها حيث أنارت لي السبيل، وكشفت لي عن غوامض الأمور، وأقامتني على المحجة البيضاء الواضحة من عقيدة صحيحة تتمثل في عقيدة أهل السنة والجماعة من سلف وخلف، وعبادة حية مبنية على أسس متينة من المعرفة بمناهجها وقضاياها، وسلوك طيب حسن إن شاء الله منبثق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسيرة السلف رضوان الله عليهم،

وأحببت نفع الناس عن طريق النصيحة والدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، فقامت بدروس صباحية، وأخرى مساءية، وأحياناً موسمية خلال شهر رمضان المبارك من كل عام في الجامع الشرقي، وكان يحضرها الجُم الغفير من الناس.

وغلب عليّ حب الانفراد والخلوة وقلة مخالطة الناس، وذلك لم يمنعي أن أكون على علم فيما يستجد من أحداث اجتماعية، وإن صح التعبير أنني قد أصبحت ذا فكر صوفي بمعناه الشرعي الصحيح، وإذا يتطلب قلة في العلاقات وعدم التعمق والانشغال في أمور

الدنيا، وحباً بالغاً للصالحين والافتداء بهم، ومررت بفترة زمنية روّضت بها نفسي وحاولت تصفية روحي وتزكية نفسي بقدر ما أستطيع من جهد، هذه الفترة هي مرحلة التصفية، ويا لها من أيام زهت بالصفاء، وارتقت فيها الروح معارج الإشراق والأشواق، وانصبغت بالفيض الإلهي والإشراق الرباني، والشعور بلذة العبادة وحلاوة المناجاة والأنس بالله تعالى حيث كانت النفس كأنها تشاهد ما غاب عنها رأي العيان، وتحس بذلك وتوقن إيقان من علم حق اليقين، وربما ارتقى إلى عين اليقين.

وأحببت منهج السادة الرفاعية والقادرية والشاذلية والنقشبندية، ولكنه المنهج الشرعي المجرد من الأوهام والخرافات والدجل والشعوذة، والانحراف عن قواعد الشرع، مع تقديري وحيي لكل من انتسب إلى طريق معتبر من طرق الصوفية رضوان الله عليهم إذا كان منضبطاً بقواعد الشرع حالاً وقالاً^(١).

ومما أذكره أن الشيخ كان يقرأ بعض الكتب أكثر من مرة، ويسجل ذلك على الورقة الأولى بعد الغلاف، وقد أشار تلميذه الأخ عماد زغرات إلى حب الشيخ للقراءة بقوله: «كان يرقب كل جديد في ميادين العلم ويطلع على كل ما يصدر من كتب معاصرة تناقش قضايا الأمة، فالكتاب صديقه الأول يأنس به وينهل منه»^(٢).

ولا شك أننا بعد وقوفنا على قراءات الشيخ الغزيرة المتنوعة ببيانه المسهب وما حواه من مضامين تدرك أن الشيخ حفظه الله رعته عناية إلهية، ونظرة محمدية، فذل له ما صعب، ويسر عليه ما عسر، فبارك الله له في وقته مما جعله يتردد على العلماء في بلده، ويملاً وقته درساً وتدريساً، ومتابعة للعلم في مظانه ومصادره الأصلية القديمة والحديثة، فتمكن من أسبابه،

(١) الصفحة ٦ - ٧ - ٨ .

(٢) الشيخ، ٢ وانظر مقدمة كتابه الأنيس ٦ / ١ لترى منهجه وطريقته في القراءة وتبويبها وتصنيفها.

وتبحّر في أصوله وفروعه حتى أثمر هذا الثمر اليانع بطعومه اللذيذة المتنوعة، وفوائده المتعددة.

لقد أثرى الحياة العلمية بعدد من المؤلفات المفيدة، شهد بعلوها العلماء المحققون، وبقيمتها الأثبات المتقنون، فما عرفه إلا الأكابر، وما جهل به إلا الأصاغر، لقد وصل إلى القمم السامقة فأضحى علماً بارزاً من أعلام الفقهاء المتميزين، والدعاة الراشدين، والأولياء الكمّل العارفين، فله درّه ما أكثر مزاياه، وما أعظم سجايه في وقت قلّت فيه الأكابر الكمّل، وندرت فيه العلماء الأولياء، وما أجمل قول الرواس رحمه الله تعالى حين قال في هؤلاء العلماء نفعا الله بهم ورعانا بحقهم:

جَلَّ المهيمُنُ في الغيوب اختارهم	كرماً ويفعلُ كيفما يختارُ
أنصارُ دينِ الله جندُ رسوله	نعمَ الجنودُ ونعمتِ الأنصارُ
الله همُّهم وهمّةُ سرهم	ما همهم دارٌ ولا دينارُ
سبحتُ بروضات العلوم فهوهمهم	فالكُلُّ فيها بلبلٌ وهزارُ
كشفوا دياجي المغلقات بهمةٍ	منها تلالاً في الشؤون نهارُ
عرفوا الإلهَ على طريق محمدٍ	فتمكنوا فيما هناك وচারوا
لله منهم في الوجود أكابر	برجالهم يُستصغَرُ الكبَّارُ

الفصل الرابع

النشاط العلمي والتربوي

١ - دروسه العامة والخاصة:

لا شك أن التكوين العلمي العالي الذي حصله الشيخ من قراءاته وأساتذته سيثمر عن نشاط علمي متميز، لأن منهجه فريد حين جمع بين الشريعة والحقيقة على سنن واضحة، ومعالم ظاهرة، وقد تعددت مظاهر نشاطه فبدت لنا على النحو التالي:

١ - إقامة الدروس العامة والخاصة.

٢ - والمشاركة في تأليف الكتب ونشرها

أ - (الدروس العامة)

منذ صباه اعتاد على الوقوف بعد الصلوات ليعظ الناس، أو ينبه على خطأ لمحه عند المصلين، الأمر الذي أعطاه الجرأة والشجاعة على تصدره الحلقات العلمية فيما بعد، فما إن وصل إلى سن العشرين حتى ترأس حلقة تدريس، واجتمع حوله بعض الطلاب، ولا يخفى ما لتدريسه في المحمدية الشرعية أيضاً من أثر على تمرسه بالتدريس لاسيما أنه كان واحداً من الأساتذة اللامعين البارزين في المدرسة، فعهدي به أنه كان في هذه المدرسة مرشداً ومعلماً وأباً، لقد كنا نشاق إلى درسه كثيراً، ولا نكاد نشعر بالوقت لشدة انتباهنا إلى درسه،

وسعادتنا برؤيته.

ومن أجل مظاهر تربيته أنه كان يحضر الطلاب الصغار إلى المسجد الشرقي للإلقاء الدروس الدينية أمام الرجال الكبار لعلمهم بتشجيعهم لإرسال أولادهم إلى المدرسة المحمدية.

لقد اشتد عود الشيخ وتصدر للدرس والتدريس كغيره من العلماء، ففي المسجد الشرقي أقام درساً بعد صلاة الفجر - عاماً - في أيام رمضان المبارك، واعتاد الناس على هذا الدرس في كل عام، فكانوا يتهيؤون له منذ أواخر شعبان سائلين من له صلة بالشيخ عن هذا الدرس خوفاً من أن يتوقف عنه الشيخ، فكان المسجد يمتلئ بالناس يفيدون من علوم الشيخ - حفظه الله -، وقد ذاع صيت هذا الدرس في المدينة كلها فكنت ترى الناس زرافات ووحداناً يتوافدون إلى المسجد لحضور هذا الدرس، وقد غلب على هذا الدرس الترغيب والترهيب والإرشاد والنصح.

ولم يكتف الشيخ بهذا الدرس بل رأيناه يستثمر الاحتفال بالمولد النبوي، أو بليلة القدر، أو بليلة الإسراء والمعراج ليلقي دروساً خاصة حول المناسبة نفسها، وكان - أيده الله - حريصاً جداً على استمرار هذه الدروس مهما كانت العوائق، فإن حصل ما يمنع أرسل أحد طلابه لإلقاء الدرس بدلاً منه، من ذلك إرساله الأخ غالب المصري - وهو صغير السن - إلى مسجد المهنا لإلقاء الدروس هناك^(١).

وكان الشيخ - رعاه الله - يتألق في دروسه علماً وروحاً، يأخذ بمجامع القلوب، ويأسر أرباب العقول، نصاعة في البيان، وروعة في الإلقاء، وفصاحة في الأسلوب، مع روح مؤثرة تجعل للكلمات سحراً فتنسل إلى القلوب لتسكن فيها، ولتشعل فيها جذوة الإيمان،

(١) من ذكرياتي ٧ وتجربتي مع الشيخ ٢.

ونور الهداية، تراه - رعاه الله - يخلق تارة مع العلماء الفقهاء، وتارة مع العارفين الزاهدين، وثالثة مع المفسرين والمحدثين، غزير علمه، وكثيرة فنونه، يهدر من صدره كأنه يقرأ في كتاب^(١)، يستطرد إن رأى في الاستطراد فائدة، ويرجع إلى موضوعه حين يرى في وجوه الحضور حب العائدة، تجلس أمامه ساعة أو ساعتين كأنهما لمتعتهما دقائق، وتتمنى لو أنه لم يتوقف، تشويقه ممتع، وزجره رادع، يبسط العبارة، وينشر الإشارة، فالعقل به مأخوذ، والروح لسلطانه مأسور، والقوم في حبور وسرور - إن رغب - وفي حزن وإنابة وخشوع إن رهب، حاله عجيب، وشأنه عال، يفيد من دروسه أهل الحقيقة والشرعية على السواء، كل حسب استعداده ومشربه، فالكل يخرج مستفيداً وقد نعموا في بستان معارفه، ونهلوا من ينابيع علومه، والله در من قال:

له حِكْمٌ بألفاظٍ رقاقٍ لها بحرٌ عجائبه تموجُ

ب - (الدروس الخاصة ودار المشايخ):

استعان الشيخ - رعاه الله - لتحقيق غاياته السامية وأهدافه النبيلة بدار كان يستأجرها - مع قلة ذات اليد - يجمع فيها طلابه، وعلمي أن أول دار استأجرها لهذا الغرض كانت داراً لآل الصمصام في حي الشرقية خلف المسجد الشرقي، ثم تركها واستأجر دار الحاج عبد الله حاتم - نزيل المدينة - رحمه الله تعالى ثم تنقل بين عدد من الدور أذكر منها دار آل العليوي ثم دار آل منصور، ثم تم إغلاق آخر دار حين مرت البلدة بالأحداث الدامية المعروفة.

والمهم أن هذه الدار أطلق عليها «دار المشايخ» كما أطلق على الشيخ لقب (الأستاذ) واشتهر هذا الإطلاق عند طلاب الشيخ وغيرهم، لقد كانت «دار المشايخ» هذه مدرسة شرعية، ومنازة إسلامية، وطريقة أحمدية، تربط بين أفرادها الأخوة الحققة، والصحبة

(١) من ذكرياتي ٧.

الصداقة، في جو إيماني روحي تملؤه المحبة والمودة والصفاء، تعلقت قلوب الطلاب بهذه الدار لأن كل واحد منهم شعر أنه في مرتع إيماني فريد، تحوطه العناية الربانية، وترعاه العين الإلهية، وترافقه الصحبة الأحمدية، أفاض الشيخ - أعزه الله - عليهم من روحه وعلمه وأخلاقه، فهو الأب الحاني، والأم الرؤوم، والأخ الكبير، معلم ناجح، وعالم صالح، خبير بأدواء العقول، بصير بأمراض القلوب، وجد كل طالب في هذا الشيخ قدوته ونبراسه، لقد كانت هذه الدار كما قال الرواس:

من أتاني وطافَ حول رحابي شملته عنايةُ الخلاق

يتلقى فيها الطالب أنواع العلوم والمعارف، ففي الإجازة الصيفية تكثرت الدروس الصباحية والمسائية، وكأن الدار مدرسة، تجد غرفها القليلة غاصة بالطلاب، غرفة لطلبة الفقه، وأخرى لطلبة النحو، وثالثة للسيرة... وهكذا الأمر في كل يوم ضمن جدول أسبوعي يلصق على لوحة إعلانية، وقُسم الطلاب إلى مجموعات تم اختيارها بدقة وفق معايير في ذهن الشيخ، منها مراعاة السن، والقدرات العقلية عند الطلاب، والمراحل الدراسية المدرسية، ومن الطريف الجيد أن الشيخ أطلق على كل مجموعة من هؤلاء الطلاب اسم صحابي مع نشيد خاص بها، فمما أذكره أنه وضعني في أول أمري ضمن حلقة أطلق عليها اسم حلقة عمار بن ياسر رضي الله عنه، ونشيدها الذي كنا نردده:

نار نار نار على الطاغية الجبار
نحن أسرة ياسر وابنـه عمار

ثم نقلني إلى حلقة أخرى مع إخوة آخرين أذكر منهم الأستاذ حمدو حمشو والأخ الأستاذ حسن حبط والأخ غسان الرئيس والأخ المهندس إبراهيم صليعي - حفظهم الله جميعاً - وأطلق على هذه الحلقة حلقة أسامة بن زيد وكانت تردد:

سُدْ سُدْ سُدْ سُدْ

أسامة بن زيد
نحن جند طائعون
للفاعى تابعون
حافظون العهد
للفقه استعداد
للحديث أتلو
على النبى صلوا

وكانت الحلقات العلمية فى الصيف تبدأ منذ الصباح حتى صلاة الظهر، فنصلى الظهر فى المسجد ثم نعود إلى منازلنا ونرجع بعد صلاة المغرب فنصلى المغرب فى المسجد الشرقى ثم يقوم بعض من أخذ الورد من الشيخ بقراءة ورده، ثم نعود إلى المنزل لتناول طعام العشاء، وبعد صلاة العشاء فى المسجد نتوجه إلى الدار لحضور الدرس المسائى العام الذى كان يلقيه الشيخ - حفظه الله -.

أما فى فصل الشتاء فكانت دروس التقوية بعد صلاة العصر، ثم يعقد الدرس المسائى، وهكذا يسير النظام فى هذه الدار، وفى كثير من الأحيان كان بعض الإخوة يأتي إلى الدار بعد صلاة العصر ومعه كتبه المدرسية فيقوم بحل واجباته ووظائفه، فإذا صعب عليه تمرين أو حل استعان ببعض الإخوة ليساعدوه.

رحم الله تلك الأيام والليالى، ما أحلاها وما أسعدها.... ولكن:

فالكلُّ ظلٌّ والزمان حكايةٌ وبدايةٌ تسعى إلى الإتمام
والغيرُ غيرٌ لا بقاءَ لشأنه والحكمُ ظلٌّ لأحكامِ الحكامِ

وهكذا كانت دار المشايخ محطة إيمانية، ومنارة علمية، وشعلة نورانية، ينبوع علوم، ومهد معارف وفنون، تهوى إليها أفئدة الطلاب، وتسرع إليها مهج القلوب، فزاد عددها،

وانتشر أمرها، رعاها الشيخ بحكمته، وسار بها بفطنته، وعناية الله فوق هذا تحوطه، ورعايته تسوقه، ولسان حاله يقول:

أنظارُ كلِّ حَسودٍ في عَمَى أبداً عن أن تشاهد نوعاً من نظائرنَا
عوْلُ علينا ونم في مهدِ رأفتنا بُرِقتَ ما دمتَ حياً في ستائرنَا

ولعل القارئ صار في شوق لمعرفة منهج الشيخ التعليمي والتربوي، وهو ما ستحدث عنه فيما يأتي قبل الحديث عن مؤلفاته العلمية لتكتمل الفائدة.

٢ - المنهج التعليمي والتربوي عند الشيخ حفظه الله تعالى:

حرص الشيخ رعاه الله على إقامة التوازن بين الجانب النظري والتطبيقي في منهجه مع طلابه، فسلحهم بالعلم الشرعي والزاد الروحي مريداً بذلك أن يجمعوا بين الشريعة والحقيقة، وقد بدا الجانب التعليمي في منهجه في المظاهر التالية:

أولاً: اختياره الكتب النافعة المشهورة عند العلماء والمربين بفوائدها وآثارها الجيدة:

أ - ففي الفقه اعتمد كتاب متن أبي شجاع وهو كتاب يساعد حجه على حفظ أحكام الفقه الأساسية، ثم البناء عليها، ويشكل هيكلًا عظيمًا للفقه الشافعي، وكان الطلاب يسجلون عند قراءته شروحاً وتعليقات صارت - فيما بعد - حواشي نافعة للكتاب.

* - ثم ينتقل الشيخ إلى كتاب عمدة السالك وعدة الناسك لابن النقيب المصري وهو أوسع من متن أبي شجاع.

* - ثم يترقى الطالب عنده ليقراً المقدمة الحضرية وشرحها، ويتخلل ذلك كله إنشاء مذكرات فقهية كان يملئها الشيخ على الطلاب، وتقارير نافعة جيدة^(١).

(١) تجربتي مع الشيخ ٢.

* - وخص الشيخ بعض طلابه بجلسات فقهية خاصة درس فيها كتباً منها كتاب الإقناع بشرح متن أبي شجاع للخطيب الشربيني الذي يعد من الكتب العظيمة القيمة، وكأنه تلخيص للمجموع شرح المذهب للإمام النووي الذي يعد من أوسع كتب الدليل وأروعها من حيث الدقة وغزارة العلم والتحقيق واستيعاب الدليل، وكأن مؤلفه كتبه في هذا العصر كما يقول الأستاذ غالب المصري^(١).

ب - أما في التفسير فكان يبدأ بجزء - عم - حفظاً وتفسيراً، ثم بجزء - تبارك - ويقدم تفسيره بأسلوب مدرسي مبسّط^(٢) يهين الطالب فيما بعد ليقرأ كتب التفسير المتخصصة.

ج - واعتنى عناية خاصة بكتاب الأربعين النووية في علم الحديث النبوي الشريف، وهو كتاب مشهور فكان يطلب من الطلاب حفظ الأحاديث بسندها وشرحها.

* - ويتنقل بعد ذلك إلى رياض الصالحين، وخص بعض طلابه بحفظ المنظومة البيقونية وشرحها.

* - ويرتقي بالطالب بعد ذلك إلى مقدمة ابن الصلاح مع بعض الإملاءات حول أحاديث الأحكام^(٣).

د - واعتمد كتاب الشيخ العلامة أمين الكردي تنوير القلوب القسم الخاص بالتوحيد^(٤)، ولهذا الكتاب مكانة خاصة عند الشيخ، إذ درّس طلابه منه كثيراً لاشتغاله على

(١) تجربتي مع الشيخ ٢-٣.

(٢) تجربتي مع الشيخ ٢-٣.

(٣) تجربتي مع الشيخ ٥.

(٤) تجربتي مع الشيخ ٥.

جوانب متعددة، فقهية وسلوكية.

هـ- وفي علم الموايـث درس الشيخ كتاب الرحبية المشهورة.

و - وفي السيرة كان يقرأ على طلابه الشداة كتاب شرح نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري رحمه الله، ثم يرتقي إلى كتاب الأنوار المحمدية للشيخ يوسف النبهاني رحمه الله.

حـ - أما النحو فكان الكتاب المعبر عنه هو كتاب شرح قطر الندى لابن هشام الأنصاري، يتلوه كتاب شذور الذهب، يضاف إلى ذلك أنه كان يلقي على طلابه دروساً وفق المنهج المدرسي تقوية لهم^(١)، ويستعمل في دروسه هذه سبورة وضعت على جدار، ومما أذكره أني حضرت دروساً له في النحو ألقاها على بعض طلابه من منهج السنة الثالثة الإعدادية، وكنت حينها في الصف الخامس الابتدائي، وأكثر ما علق في ذهني يومها إعراب قولهم: «الظلم مرتعه وخيم» إذ حفظتها وبدأت أتحدى بها أقراني في المدرسة الحكومية حتى المرحلة الثانوية.

وهو في تدريسه للنحو لا ينسى التعرّيج على الصرف والبلاغة والأدب كلما سنحت له الفرصة ليتزود الطالب بكل العلوم اللغوية.

ط - ومن الرسائل التي اهتم بها رسالة الأستاذ عبد العزيز كامل المعنونة «آداب الأسرة والكتيبة» لأنها رسالة مفيدة نافعة تنظم العلاقة بين الطلاب ومعلميهم، وتزودهم بآداب العلم.

ثانياً: ومما يتصل بهذا الجانب التعليمي أنه حفظه الله ورعاه كان يشجع طلابه على اقتناء الكتب المتنوعة من هذه الكتب مؤلفات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وكتب

(١) تجربتي مع الشيخ ٣.

أبي الأعلى المودودي، وأبي الحسن الندوي، وكتب الراجعي والمنفلوطي، والعقاد، والشيخ علي الطنطاوي وكان كتابه تعريف عام بدين الإسلام من الكتب التي يوصي ويلح على شرائها وقراءتها، وكان للدواوين الشعرية نصيب أيضاً من هذا التشجيع كديوان الشافعي وابن الفارض وحسان والمثنبي ودواوين الرواس وأبي الهدى الصيادي، أما كتب الشيخ يوسف النبهاني فلها المنزلة العالية والمرتبة الراقية عنده، إذ كان لا يفتر عن التذكير بها واقتنائها.

ومما أذكره أنه كان يوصي أحد الدارسين في الأزهر وهو الأستاذ عبد الرزاق الحسن بشراء بعض الكتب من مصر ليوزعها علينا، منها فيما أذكر كتاب «أسد الغابة» الذي كان يصدر في أجزاء وقد اقتنيت عدداً منه، وكتاب «إعلام الساجد»، وكان الشيخ رعاه الله يعلم أننا لا نملك المال لدفع ثمن الكتاب مباشرة فكان يقوم بتقسيط ثمنه على دفعات تسهيلاً لنا وترغيباً، وحقاً لقد جمع كل طالب كتباً كثيرة قيمة، ناهيك عن اقتنائنا الكتب التي كان يدرسها في الحلقات العلمية في الدار، وناهيك عن الهدايا التي كان يوزعها علينا حفظه الله كسلسلة قصص الأنبياء والصحابة والتابعين، لاسيما بعد حصولنا على درجات عالية في المواد التي كان يجري لنا فيها امتحاناً كالفقه والعقيدة والسيرة، أعزه الله ما لاح فجر، وضاء صباح، فكم له من محامد ومآثر.

حدث وقل ما شئت من أوصافه الـ حسنى تجئ بكل أمرٍ معجبٍ

* - وأما الجانب الروحي فالشيخ ابن بجدتها، مسلك خير، وشيخ قدير، صاحب منهج متميز في التربية، فالشرط عنده هو التمكن أولاً من العلوم الشرعية، مع السير في طريق القوم فتحصل بذلك الثمرة، والسير في طريق القوم يجب أن يكون بعيداً عن الترهات والشطحات، قال مشيراً إلى منهجه هذا: «وأحببت منهج السادة الرفاعية والقادرية والشاذلية والنقشبندية، ولكنه المنهج الشرعي المجرد من الأوهام والخرافات والدجل والشعوذة، والانحراف عن قواعد الشرع، مع تقديره وحيي لكل من انتسب إلى طريق معتبر من طرق

الصوفية رضوان الله عليهم إذا كان منضبطاً بقواعد الشرع حالاً وقالاً^(١).

وقد نقل عنه تلميذه الأستاذ عوض قناني قوله: «لا يهمني إن أطلق عليّ وهابي»^(٢) وما ذلك إلا لتمسكه بالطريق الخالي من الخرافات والترهات فهو - حفظه الله - مع الحق يدور. وبناء على ذلك سار الشيخ في تربية طلابه.

ثالثاً: قراءته وتدرسه بعض الكتب التي تعتنى بالترغيب والترهيب منها مختصر تذكرة القرطبي، ومختصر منهاج القاصدين، وكتاب تنبيه المغترين، وكتاب العهود المحمدية للشعراني، وقراءة الجزء الثالث من كتاب تنوير القلوب وهو الجزء المتعلق بالتصوف، وكتاب إحياء علوم الدين.

قال الأستاذ غالب المصري بعد ذلك: «وكنا كلما أنهينا مجلداً من مجلداته الأربعة نجتمع على وليمة مصغرة فيما بيننا احتفاء باستكمالنا ذلك المجلد»^(٣)، وهو يرشد طلابه على المستويين العلمي والروحي إلى قراءة الكتب قراءة جيدة مفيدة، قال الشيخ عماد زغرات: «أرشدني - حفظه الله - إلى القراءة الصحيحة المتعمقة في النصوص ونهاني عن القراءة السطحية، وكثيراً ما كان يقول لي: فهم الدليل أهم من الدليل»^(٤)، وقال في موضع آخر: «علمني الصبر في طلب العلم وعدم اليأس إذا استصعبت علي غوامضه»^(٥).

ويمكن رصد منهجه على النحو الآتي:

أولاً: الالتزام الكامل بالإسلام قولاً وفعلاً، والاهتمام الخاص بحضور الصلوات

(١) اللوحة ٨.

(٢) من ذكرياتي ٢.

(٣) تجربتي مع الشيخ ٧.

(٤) الشيخ ٨.

(٥) الشيخ ٨.

الخميس جماعة لاسيما صلاتي الصبح والعشاء، فكان دائم الحث بعد الدرس المسائي إلى وجوب النوم باكراً بعد الانصراف من الدرس للاستيقاظ مبكرين لصلاة الفجر، ويردد حديث الرسول ﷺ: [صلاة العشاء في جماعة تعدل في ثوابها قيام نصف الليل، وحضور صلاة الصبح في جماعة يعدل قيام الليل كله].

وكان يطلب من بعض الإخوة أن يطرقوا أبواب دور إخوانهم ليوقظوهم، وأذكر أن واحداً من الطلاب قام بربط أصبعه بخيط طويل يسقطه من نافذة غرفة نومه إلى الشارع ليسحبه أحد الإخوة عند صلاة الفجر فيستيقظ.

ومن السبل التي استخدمها الشيخ للحفاظ على الصلوات ما ذكره لنا الأستاذ حمدو حمشو إذ قال: «كان الشيخ يكتب أحياناً جدولاً يتابع فيه أعمال الطالب وفيه يسجل الطالب كم صلاة جامعة حضرها».

والتفت الشيخ أيضاً إلى الصيام فكان يشجع على صيام النفل، كما حرص على إحياء بعض الليالي كليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، وليلة العيد، وطريقته في إحياء مثل هذه الليالي أن يبدأ فيها بدرس عام بعد صلاة العشاء، ثم يقوم ليصلي بطلابه قيام الليل، ثم تنعقد حلقة الذكر الجماعي، ثم الدعاء، ويستروح الطلاب بعد ذلك فممنهم من تأخذه سنة من نوم، وممنهم من يتلو القرآن، وممنهم من يصلي، وممنهم من يتجمع حول الشيخ يتذاكرون معه مسائل العلم، وبعضهم يختلي مع الشيخ ليحدثه حديثاً خاصاً قد يكون أسرياً بحاجة إلى حل أو مشورة، وهكذا ترى القوم - لا يشقى بهم جليسهم - حتى صلاة الفجر، فيذهبون إلى المسجد للصلاة وقد امتلأت أرواحهم زاداً، وزادت قلوبهم صفاء ونقاء.

ثانياً: الحث على قراءة القرآن وحفظه، مع تفسيره، وقد ذكرنا من قبل أنه قرر - حفظه الله - حفظ وتفسير جزء (عم) و(تبارك) على طلابه، ومما أذكره أن الشيخ حفظه الله كلف

الشهيد محمد العثمان رحمه الله تحفيظنا جزء عم بعد صلاة المغرب من كل يوم في الجامع الشرقي.

ومما أذكره أيضاً أن الشيخ تعاون مع الأخ أحمد الخاني والأخ علي البارودي حين عرضا عليه إقامة مجموعات طلابية لتحفيظ القرآن الكريم في المسجد الشرقي فكان المسجد يغص بالطلاب.

وقد ذكرنا قبل قصة الطالب الذي حضر إلى حلقة الشيخ القرآنية وكيف حاول أن يخرج الشيخ حين سأل الشيخ هل تحفظ أنت هذه السورة؟ فأجابه الشيخ بهدوء المربي: نعم اسمعها لي، فما كان منه إلا أن خجل وسكت^(١).

ثالثاً: العناية بالأذكار والأوراد المشهورة، إذ عقد حلقتين للذكر الشرعي:

الأولى: في الجامع الشرقي ليلة الجمعة.

والثانية مساء يوم الأحد بعد الدرس المسائي في دار المشايخ، والأول عام، والثاني خاص، وأهم ما يميز حلقة الذكر عند الشيخ هو أنه ذكر شرعي أثنى عليه العلماء حتى إن الشيخ عبد الغني حمادة رحمه الله تعالى طلب من الشيخ محمد أديب الحضور إلى إدلب لنشر الذكر الشرعي هناك^(٢).

ومما أذكره أن بعض طلاب الشيخ محمد الحامد رحمه الله ومعهم ابنه الأخ الفاضل محمد أمين كانوا من المداومين على هذا الذكر، فليس في هذا الذكر رقص أو تصفيق أو حركات ممجوجة أو تحريف للفظ الجلالة، وكان الذاكرون يستشعرون الأنس الروحي الذي كان يجيئ على الحلقة، والمنشدون يحركون القلوب بمدائح الرسول ﷺ مع نغمات تتفق

(١) انظر الفصل الثاني صفات الشيخ وأخلاقه.

(٢) تجربتي مع الشيخ ٧.

وحركة الذاكرين^(١)، وكم رأيت الرجل الصالح التقي النقي صاحب الكرامات الظاهرة
والمناقب الوافرة الذي أحبه الناس والعلماء والأولياء الحاج شريف الكامل - بلّ الله ثراه
بشآبيب رحمته - يجيش بالبكاء ثم يسعد ويُسر بالصفاء، وما زلت أذكره في إنشاده الأبيات
المشهورة ونحن نتهياً للذكر:

تعالوا بنا نصطلح فباب الرضا قد فُتِحْ
ويا مدّعي حُبِّنا دَعِ الروحَ ثم انطرح
وداو الفؤادَ الذي بسيف الهوى قد جُرِحْ

فتردد معه هذه الأهزوجة الماتعة وقد امتلأت القلوب شوقاً إلى الذكر، وحتت
الأرواح حباً باللقاء^(٢)، إنها حلقات إشراق للقلوب وصفاء للأرواح، وإسعاد للنفوس، فكم
من مذنّب غافل عاد بعدها إلى الطريق القويم؟ وكم من ضال اهتدى بحضور واحدة من
هذه الحلقات؟ وكم من منحرف استقام أمره بعد أن شاهد فيها حقيقة الصفاء، فانخرط بعد
ذلك مع طلاب الشيخ مداوماً على دروسه مستقيماً على طريقه.

أما الشيخ حفظه الله بعد أن يطمئن إلى أن حركة الذكر وألفاظه سليمة صحيحة
شرعية، تراه منجمعاً على نفسه مستغرقاً في ذكره، فيهم ويغيب ويشتد به الحال - وسبحان

(١) ومن كان يحضر هذه الحلقة الرجل الصالح المجذوب خالد ضباب رحمه الله (أبو محمود) الذي كان
مشهوراً بشجاعته وعنفوانه فكان حاله شديداً وجذبه قوياً، وكان محباً للشيخ حباً عظيماً، وهو مشهور
ومعروف عند أهل البلد.

(٢) ما أحسن قول أبي الفتح كشاجم حين قال:

إن كنت تنكرُ أن في الأ
انظرُ إلى الإبلِ التي
تصغي لأصواتِ الحُدا
لحانٍ فائدةً ونفعا
لا شك أغلظُ منك طبعاً
ة فتقطع الفلوات قطعاً

الله - مهما كانت شدة حاله فلا تراه أبداً يقفز أو يرقص أو يغير اللفظ الذي يذكر به، فترى رجله ثابتين في الأرض، وتشعر كأنه يطير في السماء فرحاً بذكر الله، مبتهجاً بعالمه الذي يعيش فيه مع ذكره، فكان بعض الإخوة يهرع إليه - أحياناً - ليمسك به، وإذا انتهى الذكر رأيت الإشراف والأنوار، وشعرت بالجمال، وأدركت أنك كنت في سياحة روحية أمدتك بطاقات إيمانية وإمدادات روحية تنعكس على سلوكك نحو العبادة والطاعة والسير نحو طريق القوم والجماعة حيث الأنس والحبور، وعالم الملاء الأعلى والنور، فما أجمل قول الرواس في مثل هذا:

وسر إلى الحق من أبوابِ حضرتنا فإنها حضرةٌ وضاحةٌ النورِ
يا حضرةً حقها الهادي بنظرته فأصبحتَ خيرَ محفوفٍ ومنظورِ

وتنتهي حلقة الذكر بدعاء للشيخ فترى الذاكرين جميعاً قد انبلج جبينهم بأنوار الفرح والسرور ولذة الحضور والقبول.

وإلى جانب مجالس الذكر هذه كان هناك ورد يومي يأمر الشيخ طلابه به بعد صلاة الفجر وصلاة المغرب وهو:

١ - الابتداء بقراءة الفاتحة وإهداء ثوابها إلى الرسول ﷺ.

٢ - أستغفر الله العظيم ١٠٠ مرة.

٣ - لا إله إلا الله ١٠٠ مرة.

٤ - اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم ١٠٠ مرة.

٥ - حسبي الله ونعم الوكيل ٢٣ مرة.

وكان يطلب من الأخ بعد ذلك أن يستحضر صورة إخوانه ويقرأ: «اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة

شريعتك، فوثق اللهم رابطتها وأدم ودها واهدها سبلها، واملاًها بنورك الذي لا يخبو،
واشرح صدورها بفيض الإيمان بك، وجمل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك، وأمتها على
الشهادة في سبيلك إنك نعم المولى ونعم النصير».

ثم يدعو بها شاء، وينهي الورد بقراءة الفاتحة أيضاً على نية القبول.

ومما أذكره أيضاً أنه كان يعلم الإخوة كيف يبدوون هذا الورد ويقول: «عليكم أن
تطردوا كل الخواطر الدنيوية، وأن تتمثلوا أنكم جالسون أمام الرسول ﷺ، وفي حال قولكم
لا إله إلا الله عليكم أن تتخيلوا أن لفظ الجلالة قد وقع في قلوبكم».

وإلى جانب هذا الورد اليومي كان لبعض الإخوة أورد أخرى خاصة تتفق مع
مراتبهم وأحوالهم.

رابعاً: ملء فراغ الطلاب بالأنشطة الترفيهية التي حث عليها الشرع تقوية لشخصية
الطلاب، وتنمية لقدراتهم الجسمية عملاً بحديث الرسول ﷺ [المؤمن القوي خير وأحب
إلى الله من المؤمن الضعيف]، فأسس في الصيف لطلابه ضمن دار المشايخ نادياً رياضياً أسماه
(نادي الفجر الإسلامي) فكنا نخرج إلى أرض قريبة من ثانوية عثمان الحوراني بعد صلاة
الفجر من يوم الاثنين فنلعب أنواع الرياضات، ومنها كرة القدم ثم نعود لتناول طعام الفطور
في دار المشايخ، وفي أيام آخر كنا نمارس رياضة السباحة بعد صلاة الفجر أيضاً في منطقة
البشريات، وما زلنا نذكر تلك النزعات الجميلة التي كان يصحبنا الشيخ فيها إلى بستان بيت
(الحمشو) الكرماء على طريق منطقة الدوار، إذ كنا نمضي يوماً كاملاً من الصباح حتى
المغرب في البستان على شاطئ النهر، ثم نعود أدراجنا مشياً إلى البلدة، وقد أشار إلى هذا
الجانب الأستاذ غالب المصري فقال: «وكثيراً ما كان ينظم لنا رحلات ترفيهية إلى أماكن
اصطيافية مثل متنزهات أبي قبيس، وعين قصارين شرقي حماة عندما كان النبع جنات خضراء

يقصدها الناس من كل حذب وصوب للنزهة والاستمتاع بمروجها وعيونها وجداولها الرقاقة، وكذلك منطقة الدوار على ضفاف العاصي وإطلالته الجميلة على النهر والنواير والبساتين الغناء، ولم يكتف الشيخ بهذه الرحلات الداخلية بل نظم - أعز الله شأنه - رحلة إلى المسجد الأقصى قبل عام النكسة جعلها عامة أيضاً لكل من يرغب من أهل الحي وغيرهم، قال عنها الأستاذ غالب المصري: «وزرنا المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة ومسجد الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبيت لحم وغير ذلك من الأماكن الأخرى في الأراضي المقدسة»^(١).

خامساً: حثه طلابه - دائماً - على احترام غيره من العلماء وتوقيرهم، وعدم الخوض في خلافاتهم إلا إذا كان وراءها فائدة علمية، ولهذا يعد الشيخ من طائفة العلماء الذين يتسمون بالتوازن والاعتدال في موافقة الأئمة المختلف حولهم كابن تيمية وابن عربي.

وقد بدت مظاهر احترامه للعلماء وحثه طلاب العلم على تقديرهم في الصور الآتية:

١ - كثرة أحاديثه عنهم ورواية حياتهم وتكوينهم الثقافي والروحي سواء أكانوا قدما أم محدثين، قال الأستاذ غالب المصري مشيراً إلى ذلك: «كانت مجالسنا مع أستاذنا مجالس علم وذكر تاللات بذكر الصحابة والتابعين والعلماء الصالحين من أمثال الحسن البصري وسعيد بن المسيب والأئمة الأربعة وأئمة الحديث وغيرهم من علماء الأمة، كما عمرت بإحياء فقه وسيرة ثلة مباركة من علماء الشام ولاسيما علماء حماة الذين لم يعرف فضلهم ومستواهم العلمي، بل ولم يسمع بأسماء بعضهم إلا قلة من الناس ممن فقدنا منهم، ومن أولئك العلماء الشيخ فارس الشقفة والشيخ مصطفى الحداد المعروف بالشيخ مصطفى حنحون والشيخ سعيد الجابي والشيخ سعيد النعسان مفتي حماة السابق والشيخ محمود الشقفة والشيخ محمد

(١) تجربتي مع الشيخ ١٤.

الحامد والشيخ محمد منير لطفي وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى جميعاً^(١).

٢ - تشجيعه طلابه على الذهاب إلى جلسات العلماء الموثقين عنده، من ذلك أنه كان يصحبنا إلى جامع المدفن ثم السلطان لحضور خطبة الجمعة عند الشيخ محمد الحامد - بلّ الله ثراه بوابل رحماته - وقد حضرت عدداً من دروس الشيخ في جامع السلطان بعد صلاة المغرب وقد ذكرنا من قبل مدى حب وتقدير الشيخ لأستاذه العلامة الشيخ محمد الحامد، وتأثير الشيخ محمد الحامد على المنهج العلمي عند الشيخ محمد أديب الذي دفعه إلى إنتاج مؤلفات عظيمة النفع كثيرة العطاء، وقد بيّن الأستاذ غالب المصري هذه الصورة بقوله: «وكان أستاذنا - حفظه الله - يبالغ في تشجيعنا على احترام أهل العلم والصلاح، بل يصحبنا لحضور مجالس العلم التي كانوا يعقدونها، فقد حضرت معه جلسات علمية لدى الشيخ توفيق الصباغ رحمه الله، وكنا نصحبه من حين لآخر لزيارة الشيخ محمود الشقفة رحمه الله في جلساته المسائية في التكية الهدائية بحماة، والشيخ خالد الشقفة، والشيخ محمد منير لطفي، والشيخ سعيد العبد الله، والشيخ عبد الحميد طهماز»^(٢).

ولم يكتف الشيخ بتوجيه طلابه نحو علماء بلدته بل حثهم حين يذهبون إلى الجامعة للدراسة أو إلى خدمة العلم (العسكرية) أن يتصلوا بعلماء البلد الذي سيقطنون به ليستفيدوا من علومهم ومعارفهم، قال الأستاذ غالب المصري: «وفي دمشق كنا لا نتخرج عن حضور الجلسات العلمية والوعظية وخطب الجمعة والدروس الأسبوعية لدى ثلة من المشايخ العلماء من أمثال الشيخ حسن حبنكة، والشيخ عبد الكريم الرفاعي، والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، والشيخ الدكتور محمد عجاج الخطيب، والشيخ العالم العامل محمود الحبال الذي كانت له جلسة صباحية يتلو علينا عن ظهر قلب أكثر من جزأين من القرآن الكريم ثم

(١) تجربتي مع الشيخ ٢٠.

(٢) تجربتي مع الشيخ ١٠ - ١١.

نكمل جزءاً نطبّق من خلاله أحكام التجويد، وله جلسة مسائية يدرس فيها إعانة الطالبين في الفقه الشافعي^(١)، وأكد على ذلك الأخ عماد زغرات حين قال: «استفدت من الشيخ حب الله ورسوله - ﷺ - والتفاني في خدمة هذا الدين ومحبة العلماء وإجلالهم وملازمتهم لأنهل من علومهم ومعارفهم وأحوالهم»^(٢).

والشيخ الكامل كما يقول الرواس - بل الله ثراه -
وَيُجِلُّ الْقَوْمَ الْأَكْبَرِ طَرّاً طارحاً في الطريق غُوشَ التعالي
ولا شك أن اتصال طلاب العلم بالعلماء والمشايخ فيه إثراء لملكاتهم، وتنويع لمواردهم، ويثمر عن تكوين علمي متفتح، ينعكس على محصولهم الفكري ونتائجهم الثقافي.
٣ - ومن مظاهر احترامه للعلماء تشجيع طلابه على تقبيل أيديهم مع أنه كان هو نفسه يسحب يده إن أراد واحد من طلابه تقبيلها^(٣).

ومما أذكره أننا كنا نقبل يد الشيخ محمد الحامد رحمه الله بعد صلاة الجمعة عنده في مسجد المدفن مع أننا كنا صغاراً.

وكان - رعاه الله - لا يتردد حين يزور بعض العلماء من جمع طلابه ليستفيدوا مما يقوله ذلك العالم الزائر، فقد كان الشيخ رشيد الراشد التاذفي الحلبي وهو من علماء حلب، وله مؤلفات كثيرة يزور الشيخ محمد أديب في دار المشايخ، فيحسن الشيخ وفادته ويدعو الطلاب لحضور لقاءه والاستماع إليه.

وهو لا يفتأ أيضاً من تشجيع طلابه على حضور مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ

(١) تجربتي مع الشيخ ١٠.

(٢) الشيخ ٨.

(٣) تجربتي مع الشيخ ١٣.

الذي كان يعقد بعد صلاة الفجر من صباح كل يوم جمعة مرة في مسجد التكية في الحاضر، ومرة في المسجد الكبير في السوق بعناية الشيخ محمد علي المراد رحمه الله، وكنا نرجع بعد حضور هذا المجلس المبارك لتناول طعام الفطور جميعاً عند بعض الإخوة، وهو (فتة حمص)، وما زلت أذكر كيف كان الشيخ - حفظه الله وزاده رفعة - يحثنا على لعق الإناء، تربية وتوجيهاً^(١).

سادساً: تشجيعه طلابه على فن الإلقاء، فكان - حفظه الله - وأحسن إليه يطلب من الطلاب إعداد مقال ليلقيه الطالب بعد الدرس المسائي أمام إخوانه مكتوباً، وما زلت أذكر أنه طلب مني أن أكتب موضوعاً حول الإسراء والمعراج مستعيناً بكتب السيرة، بعد سماع خطبة عنه من الشيخ محمد الحامد - رحمه الله - في جامع المدفن وأنا في المرحلة الإعدادية، كما كان يطلب من أفراد حلقتنا القيام بتلخيص الكتب التي قرأناها أيضاً.

ومن مظاهر هذا التشجيع أنه - كما يقول الأستاذ غالب المصري - كان يوكل إليه إلقاء بعض الدروس بدلاً عنه في جامع الشرقي أو جامع المهنا، أو في الجلسات العلمية المسائية اليومية، وأضاف قائلاً وكنت وقتها في أواخر المرحلة الإعدادية وأوائل الثانوية، بل كان في كثير من الأحيان يقدمني للإمامة في الصلاة رغم تمنعي، ويصرّ عليّ حتى أقف للإمامة، وقال في موضع آخر: «كان يشجعني على نظم الشعر ويحتفل بذلك حتى إنه كناني «أبو حسان» نسبة إلى شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه^(٢).

سابعاً: اعتنى حفظه الله بتكوين فرقة للإنشاد ضمت عبد الكريم حجازي وزياد

(١) فائدة: يبدو أن هذا المجلس تم تأسيساً بالمجلس الذي كان يعقده الشيخ نور الدين الشنواني رحمه الله في الأزهر الشريف، والظاهر أن الشيخ محمد علي المراد رحمه الله وهو الأزهرى دراسة قد أنشأ تأسيساً بذلك. انظر الأنوار المحمدية ٢٦.

(٢) تجربتي مع الشيخ ١٣ - ٣٠.

السفاف رحمهما الله تعالى، وقد أحسن الظن بي بعض إخواني حين سمعوا صوتي أنشد معهم في قصيدة جماعية، فشجعوني إلى أن صرت واحداً من مجموعة المنشدين، وكان الشيخ يختار لي بعض القصائد لأنشدها حين استراحة الذاكرين منها القصيدة التي أولها:

قُمْ فِي الدَّجَى يَا أَيُّهَا الْمَتَعَبُ
حَتَّى مَتَى فَوْقَ الْأَسْرَةِ تَرْقُدُ
قُمْ وَادْعُ مَوْلَاكَ الَّذِي خَلَقَ الدَّجَى
وَالصَبْحَ وَامضِ فَقَدْ دَعَاكَ الْمَسْجِدُ

وإلى جانب هؤلاء المنشدين الأساسيين كان هناك مجموعة تساعدتهم في الأناشيد الجماعية منهم الأستاذ غالب المصري وحسن حبط وإبراهيم خليفة وآخرون لم أعد أتذكر أسماءهم، وكنا في رحلاتنا الترفيهية ننشد الأناشيد الجماعية ونتعلم على أداؤها لنقوم بإنشادها في حلقتي الذكر العام والخاص.

ثامناً: محاولته الدائمة إيجاد التوازن والاعتدال مع الحركات الفكرية والجماعات الإسلامية، على أن لا يشكل مع تلامذته جماعة مستقلة، بل كان رجلاً للجميع منفتحاً على كل جماعة بميزان شرعي دقيق فلا يميل إلى جماعة دون أخرى أو فئة دون فئة^(١)، التوسط منهجه، والاعتدال طريقه، إن رأى منكراً عند أحد نبهه إليه، وإن لمس خيراً شكر عليه وشجع عليه وأرشد طلابه إلى ذلك مؤمناً أن «العلم» هو الطريق الصحيح الذي يجب أن يتسلح به المسلم حتى لا يقع في المزالق، قال الأخ عماد زغرات: «أخذ بيدي يافعا ووضعني على طريق القوم وأصبح يرنو إلي بعينه كي لا أتعثّر، ولطالما كنت إذا أملت بي ملمة كنت أهرع إليه فأجد الملاذ الآمن والحصن الحصين، وأجد بين جنبيه القلب الشفيق الذي أنار لي معالم الطريق»^(٢).

ولقد كان درسه العام في المسجد الشرقي يغص بالطلاب الذين يفدون إليه من كل

(١) تجربتي مع الشيخ ٩.

(٢) الشيخ ٨.

حذب وصوب منهم الصوفي ومنهم السلفي ومنهم من ينتمي إلى مذاهب سياسية متنوعة، كل يجد بغيته، يستفيد من عطاء الشيخ وينهل من معينه، وما ذلك إلا لأن الشيخ حفظه الله تمثلت في شخصه الكريم المدارس الفكرية، فكان بذكائه يتألف الجميع ما لم تمس الأصول التي تؤثر على العقيدة أو على أحكام الشرع الحنيف، وهو دائم الدعوة إلى نبذ الخلافات وترك المحاججات التي لا طائل من ورائها إلا الابتعاد عن منهج الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد بين الأخ الأستاذ غالب المصري في عبارة جامعة منهج الشيخ فقال: «كان يرشدنا إلى محاسن كل طريق ويحضننا على التوازن بين الالتزام بأحكام الشريعة ومراعاة أدب السالكين إلى الله تعالى دون أن يطغى أمر على أمر أو يصر إلى المبالغة في بعض الأمور أو التنطع في تطبيق الأحكام على حساب الشريعة»^(١).

وقال في موضع آخر مشيراً إلى منهجه الصوفي ما نصه: «ولعل أسلوب الشيخ في التربية كان يجمع محاسن معظم طرق التربية والسلوك إلى الله تعالى»^(٢).

تاسعاً: حرصه - أعزه الله - على الجمع بين علوم الدين والدنيا، وحضه على تفوق الطالب في مدرسته وجامعته لأنه أدرك - رعاه الله - أن الزمن كما يقول هو زمن الشهادات^(٣)، وأن المسلم المتفوق يفيد الإسلام كثيراً في الوظيفة التي سيتولاها فيما بعد، وما أكثر تغور الإسلام في هذا الزمن، لذا عمد إلى إقامة دروس تقوية في دار المشايخ يتقوى بها الطلاب في المواد التي لم يفهموها من مدرسيهم في المدارس الحكومية كاللغة الإنجليزية والرياضيات والنحو والصرف... إلخ.

(١) تجربتي مع الشيخ ١٦.

(٢) تجربتي مع الشيخ ١٦.

(٣) الصفحة ٤.

وكان يستعين على ذلك ببعض الإخوة ليساعدوه في هذه المهمة، فمما أذكره أن أستاذنا الفاضل غالب المصري كان يدرسنا اللغة الإنجليزية والرياضيات وعلوم العربية والكيمياء، وكان هذا الرجل أعجوبة في الذكاء - حقاً - وأشار الأستاذ عوض القناني إلى هذا المظهر، وأضاف أن الشيخ كان يستعين بمدرسين من خارج دار المشايخ ليدرسوا الطلاب حباً في طلابه وإيماناً بمبدئه، ورحم الله الرواس فكأنه يرمق صنيع الشيخ بقوله:

محاضرُ القومِ لا تتركُ بها الأدبا	فإنهم لشؤونات الحفا رُقبا
كم جاءهم جاهلٌ والذل يصحبه	فعادَ بالعلمِ والخيراتِ مُنْقَلِبا
وكم فقيرٍ أتاها مخلصاً ولهاً	صار التراب له في تبرهم ذهباً
واحفظ فؤادك يا هذا بحضرتهم	فكم رأينا لهم من طورهم عجباً
لله عزمهم الفعّالُ كم فعلا	لله كفهم الفياضُ كم وهباً
دع الحسودَ على أسقامِ باطنه	قد يستلذ حكاكَ الجلدِ مَنْ جرباً

هذه هي أهم المظاهر التي بدت لنا من منهج الشيخ حفظه الله التعليمي التربوي وهي بمجملها تجمع أركان الشخصية الإسلامية المتكاملة المتزنة المعتدلة.

وتثمر بعون ربها وتوفيقه عن فلاح للمرء في الدنيا والآخرة، وهو المرغوب المطلوب.

٣- مؤلفات الشيخ ومظاهر منهجه العلمي:

تمثل مؤلفات الشيخ - حفظه الله - المظهر الثاني من مظاهر نشاطه الإسلامي، إذ إنه بعد أن تملك أسباب العلم، وبرز في أصوله وفروعه لا بد أن يثمر ذلك عن مصنفات مفيدة ومؤلفات رائدة في عدد من العلوم الشرعية ولهذا قال لي الشيخ الفاضل العالم محمد سعيد الطنطاوي - أمد الله في عمره - حين أخبرته أنني بصدد الكتابة عن الشيخ محمد أديب كلل: «إنك ستنوء بكلل» إشفافاً عليّ من هذا العمل، ومراده أن علوم الشيخ متنوعة، وبحوثه دقيقة، فيصعب عليك في مثل هذا العمل العلمي البسيط أن تلم بشخصيته، كما

يعسر عليك الوقوف على حقيقتها لكثرة شوائبها، وقلت في نفسي ما لا يدرك كله لا يترك
جله، فلعلي فيما أقدمه يشجع الباحثين من طلاب الدراسات العليا على دراسة هذه الأعمال
العلمية، وبيان قيمتها في فنونها وفروعها المختلفة، وإني لعلّ يقين بأن نتائج بحوثهم ستكون
الغاية في القبول، ذات نفع عظيم للعلم وطلابه، وللمكتبة الإسلامية عامة.

وهاأنذا أسرع الخطأ لأقدم تعريفات عامة حول مؤلفات الشيخ، واحداً تلو الآخر،
محاولاً في نهاية المطاف أن أبرز أهم الخصائص التي تميز بها المنهج العلمي للشيخ لعلها تكون
منارات يهتدي بها من أراد فهم علم الشيخ وفقه معارفه والوقوف على آرائه التي تفرد بها فيما
كتب وألف، ومن أراد البحر استقل السواقيا، وعلى العموم فمؤلفاته تنقسم إلى قسمين:
القسم الأول: مؤلفات تناول فيها موضوعات مخصوصة في فنون متنوعة وهي:

١ - تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر.

٢ - الفقه المبسط في ثلاثة أجزاء.

٣ - الأضحية والعقيدة وأحكام التذكية.

٤ - إتحاف السائل بما ورد من المسائل في ثلاثة أجزاء.

٥ - حكم الإسلام في النظر والعورة.

٦ - الحج والعمرة.

٧ - صون الإيمان من عشرات اللسان.

٨ - قرّة عين رسول الله ﷺ.

٩ - منتخب النفائس لأبناء المدارس.

١٠ - تطبيب المرأة وثمر علاجها.

١١ - اعدلوا بين أولادكم.

١٢ - الأنيس في الوحدة وهو موسوعة معارف ضمنه اختياراته من قراءاته المتنوعة،
يقع الكتاب في مجلدين.

القسم الثاني: مؤلفات ورسائل حققها الشيخ ونشرها بعد خدمتها بدراستها وهي:

١ - السهام الصائبة لأصحاب الدعاوى الكاذبة في الرد على مدعي الاجتهاد للشيخ
يوسف النبهاني.

٢ - حسن الشريعة في مشروعية صلاة الظهر إذا تعددت الجمعة للشيخ يوسف
النبهاني.

٣ - بداية السؤل في تفضيل الرسول ﷺ للعز بن عبد السلام.

٤ - لفتة الكبد إلى نصيحة الولد لابن الجوزي.

٥ - رسالة أيها الولد والقواعد العشر للغزالي (ضمن كتاب واحد).

٦ - الأدب في الدين والرسالة الوعظية ورسالة الطير (ضمن كتاب واحد)

ولتقدم للقارئ الآن تعريفاً موجزاً حول كل كتاب:

الكتاب الأول

تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر

وهو بحث علمي يكشف عن فضائل الذكر وحقيقته الشرعية يقع في ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط وطبع أكثر من مرة، وأول طبعاته صدرت عام ١٣٨٧ هـ الموافق ١٩٦٧ م.

بين فيه الشيخ أهمية الذكر وفوائده... وأنواعه وأحواله وآدابه ومشروعيته... إلخ ما يتعلق بالذكر والذاكرين، وأوضح رأي العلماء في كل مشكلة أثرت، أو شبهة ظهرت، ولب موضوعه هو الرد على من زعم أن ذكر الله يجوز فيه التحريف والتشويه، والدعوة إلى الذكر الشرعي، وقد ذكر الشيخ في مقدمة الكتاب أسباب تأليفه فقال: «فإني والحمد لله منذ سن مبكرة، متعلق بذكر الله تبارك وتعالى، وارتياذ مجالسه، والتنعم في رياضه لا أنقطع عنها غالباً، أذكر كما يذكر أهل تلك الحلقات وألفظ كما يلفظون... وسرعان ما تنبهت عن طريق بعض أهل العلم ممن كان يقيم تلك المجالس إلى أن كثيراً من تلك الألفاظ المحرفة، والحركات المصطنعة لا يرضاها الشرع ولا يقرها بل ينكرها أشد الإنكار، وبدأت أبحث عن الحقيقة وأفتش عنها في ثنايا الكتب حتى انكشفت واتضح وضوح الشمس في رابعة النهار» ثم بين أنه حين أعلن ما توصل إليه من أحكام حول هذا الذكر حورب من قبل بعض الجاهلين المتعصبين للأشخاص... مما دفعه إلى الاتصال بالشيخ محمد الحامد لعرض الأمر عليه.. فصارحه الشيخ محمد الحامد بألمه، وشجعه على متابعة البحث وتمحيص الأمر تمحيصاً علمياً لئلا يرد عليه راد، وبعد أن أطلع الشيخ محمد أديب أستاذه الشيخ محمد الحامد على ما جمعه، كتب إليه ما نصه: «فقد أجدت وأفدت أيها الأخ الناصح» وظل الشيخ محمد أديب يتابع

البحث والتنقيب في أمهات الكتب حتى نضج البحث واستوى على سوقه، فطبعه كتاباً يحمل العنوان المذكور وضمنه كلمة الشيخ العالم محمد الحامد رحمه الله تعالى حول هذه الشبهة^(١).

والحق أن هذا الكتاب لم يؤلف في بابيه مثله، عظيم النفع، كثير الفائدة، ويكفي أن الشيخ العالم المحقق محمد الحامد - بل الله قبره بشايب رحماته - وصفه بالكتاب الشريف^(٢) وقال عنه: «لم يسبقه فيه أحد في هذا المضمار فقد أعطى هذا الموضوع حقه إنه على الحق، وأضاف قائلاً: «والله إني أحب هذا الرجل وكررها ثلاثاً»^(٣).

وقد وضع الأستاذ غالب المصري قصة الكتاب من حين كان فكرة إلى حين ظهوره، ورأي الشيخ الحامد فيه، ومتابعته الشيخ محمد أديب في تأليفه فقال: «وقصة هذا الكتاب تتلخص في أنه كانت حلقات الذكر غير الشرعية التي لا تتقيد بالأسلوب الشرعي السليم منتشرة في كل مكان، ولا يقبل أصحابها أية مناقشة أو مراجعة بشأن الحكم الشرعي الصحيح في التصرفات التي تتناقض وحال الذاكر لله سبحانه وتعالى، إذ من شأن من يذكر الله الالتزام بالأدب مع الله تعالى وعدم التصرف تصرف الراقصين أو تحريف لفظ الجلالة، وما هو مطلوب في الصلاة من نطق سليم صحيح للفظ الجلالة ينسحب على النطق به في كافة الأحوال الأخرى، حتى إن بعض مشايخهم أفتاهم بمقاطعة قراءة هذا الكتاب حتى لا يطلعوا على ما فيه من حق صريح واضح وأدلة ناطقة ساطعة، وقبل التفكير بنشر الكتاب كان عبارة عن مذكرات ونصوص عرضها الشيخ «الأستاذ» من قبل على الشيخ محمد الحامد فأقره عليها وأيد ما جاء فيها، وقبل نشرها بفترة قصيرة حملت كتاباً كان يتضمن فتاوى غريبة يعتمد عليها أصحاب الذكر المحرف يقول فيه مؤلفه: إنه يجوز الذكر بـ (إيل) و (لاها) وغير

(١) انظر كتاب تنبيه الفكر المقدمة ٨ .

(٢) انظر الملحق ٩ .

(٣) تجربتي مع الشيخ ٣٣ .

ذلك من الألفاظ الغريبة على أنها أسماء لله تعالى، وبكيفيات غريبة أيضاً لا تتلاءم والأدب مع المذكور عز وجل، وذهبت به إلى الشيخ محمد الحامد، وكان في ذلك الوقت يدرس مادة التربية الإسلامية لطلاب الثالث الثانوي في ثانوية ابن رشد بمدينة حماة، وكنت وقتها في الثاني الثانوي في تلك المدرسة، فما أن اطلع على ما ورد فيه حتى سارع إلى القول بحرقة وألم وتأثر: «كم مرة قلنا إن ذلك لا يجوز.. لا يجوز.. لا يجوز» قلت له: يا أستاذ لو تكرمت بكتابة الرد ليكون نصاً يستفاد منه، فاعتذر في البداية وقال: «إنه مريض» وكان ذلك صحيحاً فقد كان يشكو من عدة أمراض نظراً للأعباء التي كان يتحملها ويعجز عنها الرجال الأشداء، واستدرت لأذهب، وإذا به بدافع الشعور بعظم المسؤولية عن تبليغ الحق وعدم السكوت عن الباطل يناديني: «تعال يا ابني.. هات.. تعال غداً وخذ الرد» وفي الغد أعاد إلي الكتاب ومعه الرد المفصل، ومما ورد فيه من عبارات علمية قيمة: «وإلى الفقهاء الرجوع في الأحكام، لا إلى المفسرين والمحدثين والصوفية على احترامنا لهم» وهذه قاعدة جليلة يخلط بسبب عدم استيعابها كثير من الناس في فهم الأحكام الشرعية، ويقعون في كثير من (المطبات العلمية).

وفي إحدى المرات التقيت الشيخ محمد الحامد وهو ذاهب لإلقاء خطبة الجمعة فاستأذنته في نشر كلمته ضمن كتاب تنبيه الفكر في طبعته الأولى فقال لي: «ولم لا؟ وهل أسأنا الأدب فيها حتى لا تنشر؟ قل للشيخ محمد ديب ينشرها» وبعد أن صدر الكتاب واطلع عليه ألقى خطبة الجمعة حول موضوع الكتاب دون أن يشير إليه بالاسم، وكان مضمون خطبته تأييداً لما ورد فيه. وقد وجه إليه أحد الإخوة سؤالاً عن حكم الذكر فقال له بعد أن أورد عليه الحكم الشرعي: «اقرأ كتاب تنبيه الفكر، فإنني أوافق عليه حرفاً حرفاً» ذكر لي ذلك أحد إخواني ممن أثق بكلامه نقلاً عن الشخص السائل، وكانت ردة فعل الناس بين ثلاثة فرقاء: فمن الناس من فرح بما في الكتاب من وضوح أزال اللبس وجلا وجه الحق في هذه المسألة، ومنهم من قاطع الكتاب سماعاً لوصية بعض المحرفين للذكر غير الشرعي، وفريق ثالث لا

يجب الذكر رغم ادعائهم بأنهم دعاة إلى الإسلام، مع أن الآيات الداعية إلى ذكر الله كثيرة يزخر بها كتاب الله تعالى، وكانوا يدعون بأن هناك قضايا تهم الأمة أكثر من هذه المسألة، وكأن وجود قضايا مهمة يعفي المسلم من بيان حكم الله في أمور دينه وسماح ذلك الحكم، وقد رجع كثير من أولئك الإخوة إلى الذكر الشرعي بعد ذلك وأيدوه^(١).

والمهم أن الكتاب صدر وانتشر وأعجب به الشيخ محمد الحامد كثيراً، فراح يرسل نسخاً منه إلى العلماء في شتى المحافظات السورية، والأقطار الإسلامية، فقد أرسل نسخة من هذا الكتاب إلى العالم الفاضل الشيخ الصالح موسى شرف وهو من جماعة كبار العلماء الرسمية في مصر، وعضو من أعضائها، وسكرتير جامع الأزهر، فأرسل إلى الشيخ محمد الحامد رسالة جاء فيها: «بداية الكتاب - تنبيه الفكر - تدل على النهاية، وبدايته تدل على قيمته العلمية»^(٢).

ونحو هذا صنع مع الشيخ عبد الغني حمادة من علماء إدلب المشهورين، فأرسل الشيخ محمد الحامد ما ذكره الشيخ عبد الغني حمادة حول الكتاب المذكور مظهراً إعجابه به، وطالباً منه ترجمة ليضع الشيخ محمد أديب في سجل العلماء العاملين^(٣).

وأشاد به الشيخ العالم عيسى الخطيب في رسالته التي أرسلها إلى فضيلة الشيخ محمد أديب إذ قال فيها: «قد منَّ الله علي بقراءته من بدايته حتى نهايته فوجدته حسن الترتيب والتبيين، جامعاً لما تفرق في غيره من الكتب العلمية، ومنبهاً إلى فوائد الذكر وشروطه وآدابه التي لا بد منها لمن عكف على باب مولاه وأراد التقرب إلى ذاته العلية، وبودي أن يطالع عليه جميع شيوخ الطرق الصوفية في سائر الأقطار الإسلامية، حتى يلقنوا صيغ الذكر لمريديهم

(١) تجربتي مع الشيخ ٧-٨-٩.

(٢) انظر الملحق ٦.

(٣) انظر الملحق ٩.

وأتباعهم سالمة من التحريف والتشويه، ليتم بها النفع ويعظم بها الأجر ويطمئن إليها القلب وينشرح لها الصدر... أسأله تعالى أن يجزيكم عني خيراً وأن يجزل لكم الأجر على ما قدمتم للأمة الإسلامية من نصح وما بذلتم في تصنيفكم من جهد، آملاً منكم أن لا تنسوني من دعواتكم الصالحة»^(١).

وأبدى فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة إعجابه وسروره بمضمونه قال: «نظرت في الكتاب من أيام قريبة.. والله يا أخي:

لو أنصف الناس استراح القاضي وبات كلُّ عن أخيه راضي

قرأت أكثر كتابك وسرني فيه إلحاحك على لزوم التأدب مع ذكر اسم الله تعالى وتكريمه قلباً ولساناً وحالاً ومظهراً، فالله الذي يجزي من يدافع عنه، وهو قد قال في كريم كلامه ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ فيا هناءهم ويا سعادتهم، لهم الله وكفى»^(٢).

وتحدث الأخ عماد زغرات عن هذا الكتاب وأثنى عليه بقوله: «وأما كتاب تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر فهو كتاب أشرق من ثنياه أنوار الحقيقة صافية تبدد ظلمات الجهل لتنير للسالكين طريق الحق وتكون العلاج الروحي الذي يتداوون به لصفاء أرواحهم وإشراقها وتخليصها من طغيان المادة، ولتبعث الذكر في النفوس وتقطع مادة الغفلة عن الله تبارك وتعالى في تلك القلوب التي تكاثفت عليها الأوزار والأسقام حتى رانت فحجبت عن تلك الحقيقة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)، ولكن المولى تبارك وتعالى شاء له السعادة والفلاح فأيقظها من سباتها وغفلاتها، وهذا الكتاب الذي أتحدث عنه له قصة يحكيها الشيخ عن نفسه في مقدمته أثرت فيه أيما تأثير، ولكن يد العناية داركته وأسعفته فعابن الحقيقة

(١) انظر الملحق ٧.

(٢) انظر الملحق ٤.

ساطعة... فانبرى حفظه الله ورعاه للدفاع عن الحقيقة وأهلها كالليث يدافع عن عرينه
ويذود عن حياضه، فما كان من هؤلاء الجهلة إلا أن أغروا به سفهاءهم وسقوه من هذه الفتنة
مر شراهم، ولكن الله تبارك وتعالى تداركه مرة حرى بنعمة منه وفضل، فأنار في هذا الكتاب
للسالكين ذلك الحق المبين مدعماً بالأدلة الناصعة والنقول الصحيحة من الكتاب والسنة
والمطهرة وأقوال العلماء المخلصين الصادقين، وهذا هو الذكر الذي أتت به الشريعة الغراء
وهو المرضي عند الله تبارك وتعالى، فجزى الله الشيخ خير الجزاء»^(١).

والحق أن الشيخ - رعاه الله - تألق فيه مع أنه باكورة بحوثه العلمية، فبدا عالماً محققاً،
ومهما حاولنا وصف الكتاب وبيان ما تضمنته فصوله وبحوثه، فإن ذلك لن يغني عن قراءته
ودراسته لما فيه من خير ونفع وفوائد علمية، ولعلي لا أبعد عن الحقيقة إن قلت إن هذا
الكتاب يعلم طلبة العلم طرق البحث العلمي الجيد، فهو يبسط الأدلة ويورد الردود ثم
يضعف أو يرجح ما يراه متفقاً مع الأصول الشرعية الصحيحة، رابطاً بين الأفكار بلغة سهلة
بسيطة راقية، إلى أن تظهر الحقيقة التي ينشدها واضحة جلية، فيوقن القارئ أن ما ذهب إليه
الشيخ - أدام الله عزه - هو المتجه وهو الصحيح، ويرى أدلة الخصوم تتهاوى واحداً بعد
الآخر لقوة أدلته وبراهينه.

ومهما أفضنا في الحديث عن هذا الكتاب فإن ذلك لا يوفيه حقه، فهو بحث علمي
متميز، وفيه إضافة واضحة إلى المكتبة الإسلامية حيث لم أقف على واحد من القدماء أو
المحدثين أفرد هذه القضية بالبحث والتأليف سوى الشيخ محمد أديب - رعاه الله - وكأني
بالشاعر الرواس يريده وأمثاله حين قال:

مُطْلَسُ القومِ لا تهملُ مكانته	فربَّ كنزٍ كثيرٍ الدر مختومٌ
الحال يعبُّ مسكاً ضمن حامله	وكيف ينشق ريح المسك مزكومٌ

(١) الشيخ ٤.

الكتاب الثاني

الفقه المبسط

جاء هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء تضمّن الجزء الأول فقه العبادات وصدر عام ١٣٩٨ هـ الموافق ١٩٦٩ م وفي ٤٠٠ صفحة وطبع خمس طبعات.

وتضمن الجزء الثاني فقه المعاملات (أحكام البيع) وصدر عام ١٤٢٦ هـ الموافق ٢٠٠٥ م في ١٢٦ صفحة وطبع مرتين.

وتضمن الجزء الثالث (فقه المعاملات المالية) وصدر عام ١٤٢٨ هـ الموافق ٢٠٠٧ م في ١٣٦ صفحة.

وإنما تباعدت المدة الزمنية بين صدور الجزء الأول والجزأين الأخيرين لظروف صعبة مر بها الشيخ - حفظه الله - أهمها المرض العضال الذي ألمّ بالشيخ، فكان من المتوقع أن يتوقف عن التأليف لكن المهمة العالية، والعزيمة القوية، والعون الإلهي أولاً وآخراً، كل ذلك ساعد الشيخ على إتمام هذا العمل العلمي المتميز، والكتاب من عنوانه يدل على منهجه، وبهذا المنهج تميز الكتاب عن غيره من كتب الفقه فقد رأى الشيخ - أمد الله في عمره - أن الكتب الفقهية قد لا يفهمها من لم يقرأها على يدي شيخ، فارتأى أن يقدم كتاباً سهلاً واضح العبارة، مرتباً ترتيباً جيداً لتسهيل قراءته، ويعم نفعه، وإلى ذلك أشار في مقدمة الجزء الأول من الكتاب قائلاً: «وقد بسطت العبارات الفقهية ما استطعت، وأكثر من التقسيمات لئتم الانتفاع بها، ويسهل فهمها، وتعم الفائدة منها، ورتبتها ترتيباً متناسباً مع متطلبات الدراسة»^(١).

ومن ميزات هذا الكتاب الجليل أن الشيخ مع تبسيطه للعبارة اهتم بإيراد الأدلة قال:

(١) الفقه المبسط - قسم العبادات ٦ .

«وأكثر من إيراد الدليل في أكثر الأحكام حتى بلغت الأحاديث التي ضمنتها الكتاب تقارب الخمسمئة حديث شريف^(١)».

ولكي تعم الفائدة ذكر الشيخ في المقدمة المصادر التي استقى منها أصول هذا الكتاب، وذلك لمن أراد الرجوع إليها.

ومما يلفت الانتباه أن الشيخ - حفظه الله - أهدى الكتاب إلى عالم قريش محمد بن إدريس الشافعي، ثم إلى فقيه العلم والإسلام وإمام الدعوة والإرشاد سيدي الشيخ محمد الحامد عليه الرحمة والرضوان. مع أن الشيخ محمد الحامد حنفي المذهب، لكنه الحب والوفاء والتقدير كما قال الشاعر:

بيني وبينك في المحبة نسبةٌ مستورةٌ عن كلِّ هذا العالمِ
نحنُ اللذان تعارفنا أرواحنا من قبل خلقِ الله طينةَ آدمِ

أما الجزء الثاني من الكتاب وهو قسم المعاملات (أحكام البيع) فقد تناول الشيخ فيه أحكام البيع فقط، وبين في المقدمة الغاية من تأليفه فقال: «وجب على كل من يمارس عملاً من الأعمال أن يعلم حكم الله عز وجل فيه أولاً، هل هو حلال أم حرام؟ ثم يتعلم كيفية القيام به وأدائه أداء صحيحاً حسب الأحكام والضوابط التي وضعتها له الشريعة ليكون الأداء صحيحاً نافذاً معتبراً»^(٢).

وأضاف قائلاً: «ومن جملة تلك الأحكام أحكام البيع والشراء، فيجب على كل من يمارس ذلك أن يتعلم الأحكام المتعلقة بهما حتى لا يقع في مخالفة أو محذور»^(٣).

(١) الفقه المبسط ٦، وهذا العدد أورده في الجزء الأول فقط .

(٢) الفقه المبسط - المعاملات ٥ .

(٣) المرجع السابق ٦ .

واستطاع - حفظه الله وشفاه من الأسقام - أن يصدر الجزء الثالث من هذا الكتاب مخصوصاً بالمعاملات المالية، وقد ضمنه كما قال في المقدمة (أحكام الربا والصرف والقرض والرهن والشركات والمزارعة والإجارة وبطاقة الائتمان)^(١).

وقد اشتهر هذا الكتاب وشاع أمره، فأقبل طلاب العلم على دراسته في كثير من حلقات العلم فهو يدرس في المعاهد الشرعية، وقررت جامعة الخرطوم على طلاب كلية الشريعة^(٢)، كما اعتمدته بعض الجامعات الجزائرية.

وعلمت مؤخراً أن بعض الكليات الشرعية في الكويت اعتمدته مصدراً من مصادرها، وبلغ الإقبال عليه كما ذكر أحد الناشرين أن بعضهم يطبعه دون الحصول على إذن من المؤلف أو الناشر وذلك لكثرة الطلب عليه^(٣).

وعلى العموم فالكتاب احتل مرتبة عالية في المكتبة الفقهية وطار ذكره، إذ قل أن تجد طالب علم أو باحث تخصص لا يثني على هذا الكتاب، ولا أدل على ذلك من كونه قد طبع - الجزء الأول - خمس مرات والله يعطي الفضل لمن يشاء، وقد وصفه الأستاذ عماد زغرات بقوله: «قد أجاد الشيخ فيه وأفاد ليكون للطلاب ذخيرة حية ترسم لهم معالم الطريق الفقهي القويم، وتنير لهم طريق العبادة الصحيحة المبنية على أساس متين لا لبس فيه ولا غموض ولا زيغ فيه ولا شرود، وتمدهم بملكة علمية يستطيعون على ضوئها ضبط عبادتهم التي يتقربون بها إلى الله.... لذا أسأل الله تعالى أن يثيب الشيخ على عمله هذا خير الجزاء وأن يجزل له المثوبة والعطاء»^(٤).

(١) الفقه المبسط - المعاملات المالية ٣.

(٢) من ذكرياتي ١، الشيخ كما عرفته ٥.

(٣) تجربتي مع الشيخ ٣.

(٤) الشيخ الذي عرفته ٥.

الكتاب الثالث

الأضحية والعقيدة وأحكام التذكية

يقع هذا الكتاب الفقهي في ١٢٦ صفحة، ضمنه - حفظه الله - كل الأحكام الفقهية المتعلقة بالأضحية والعقيدة والتذكية، وطبع ثلاث مرات آخرها طبعة عام ١٤٢٠ هـ الموافق لعام ١٩٩٩ م.

وقد وضح - رعاه الله - الأسباب التي دفعته إلى تأليفه فقال: «والذي دفعني إلى جمع هذه الرسالة جهل الكثيرين في هاتين القربتين وعدم اهتمامهم بشأنها وأصبح البعض يتنكر لمشروعيتها ويبخل ويأمر غيره بالبخل بالتقرب إلى الله بمثلها ومن الناس من يؤديها ولكن على غير بيئة من الأمر واستجلاء للأحكام المتعلقة بهما^(١).

ثم راح يوضح سبب إلحاقه أحكام التذكية بهما فقال: «وألحقت بهما أحكام التذكية للعلاقة القائمة بينها وبينهما»^(٢).

وجهد المؤلف - رعاه الله - واضح فيه إذ جمع فيه ما تفرق في أمهات كتب الفقه، وتفرد بكونه يورد آراء المذاهب الأربعة في كثير من الأحكام، بأسلوب سهل واضح قريب المأخذ، ليعم نفعه ويسهل بيانه، وازدان هذا الكتاب بلفتة ممتعة فريدة وذلك حين ختمه بنظرة الإسلام إلى الحيوان والرأفة به، فجاء من ذلك ما يؤكد على البعد الإنساني الذي يرمي إليه الفقه الإسلامي، والمقالة قطعة علمية أدبية قل أن تجد لها نظيراً عند من ألف في هذا الجانب العلمي الثقافي.

(١) الأضحية والعقيدة ٧.

(٢) المرجع السابق ٧.

الكتاب الرابع

الحج والعمرة «أحكام فقهية صادرة عن المذهب الشافعي وبقية المذاهب الأربعة»

جاء هذا الكتاب في ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط وطبع طبعة أولى عام ١٣٩١ هـ الموافق لعام ١٩٧١ م ونشر عن طريق مكتبة دار الدعوة بحماة.

اشتمل على كل الأحكام الفقهية المتعلقة بالحج والعمرة جعله - حفظه الله - على المذاهب الأربعة، لتكتمل الفائدة ويعم النفع، بدأه بمقدمة بين فيها مكانة الكعبة ومكة المكرمة ووضع بأسلوب عال مشاهد الحج والعمرة، فتشعر كأنك مع الحجاج والمعتمرين، فيا لله - كما يقول الشيخ - ما أبهجها من رحلة، وما أسعده من وصال، ثم عرج إلى الحديث عن أهمية الحج ومكانته في الإسلام، وعلى العموم فالكتاب - كما يقول الشيخ - يوضح أحكام المناسك بطريقة سهلة وأسلوب مبسط وعرض مناسب يساعد على أدائها أداء صحيحاً، ويؤهلها للقبول إذا اقترنت بالإخلاص إن شاء الله تعالى^(١).

ومن تصفح هذا الكتاب يدرك القارئ أنه لم يعد بحاجة إلى دليل أو مرشد في حجه أو عمرته لأن الشيخ - رعاه الله - لم يترك شيئاً يعرض للحاج والمعتمر إلا أظهره وبينه على المذاهب الأربعة مضمناً إياه مباحث ممتعة تبعث القارئ إلى استشعار روحانية الحج وفوائده، من ذلك حديثه عن كيفية حج الرسول ﷺ ملخصاً من رسالة المحدث محب الدين الطبري المتوفى ٦٩٤ هـ، وتسجيله خطبة الوداع كاملة، ثم بيانه فضل مدينة رسول الله ﷺ وكيف يكون دخول المدينة ثم المسجد النبوي ثم الروضة ثم زيارة البقيع والمساجد المشهورة، وكل ذلك بأسلوب مشوق يظهر فيه أنس الرسول ﷺ وأريجيه، فكان الشيخ - حفظه الله - حين

(١) الحج والعمرة المقدمة ٥.

كتب ذلك كانت الروح تستمتع بتلك الأماكن المقدسة وتهفو إليها، فتتنقل المشاهد بصورة روحية عجيبة لا يستطيع القارئ إلا الاعتراف بتأثيرها ونفاذها إلى القلوب، ولا عجب من ذلك فالشيخ كما ذكرنا دائماً ينشد في تأليفه الجمع بين الشريعة والحقيقة وفي ذلك الخير العميم.

ومن أهم مظاهر هذا الكتاب ذلك الجدول الذي اشتمل على أعمال جميع المناسك مع حكم كل عمل في المذاهب الأربعة، مما يدل على عقلية رياضية عند الشيخ استثمارها لصنع هذا الجدول.

ولقد أثنى على هذا الكتاب فضيلة الشيخ عبد الغني حمادة رحمه الله بقوله: «فقد توسعتم في تأليفه توسعاً علمياً نافعاً فصار أشبه شيء بدائرة معارف فيه كل شيء يتعلق بالحج والعمرة يحتاج إليه الطلاب الراغبون، ولا يستغني عنه العلماء العاملون، يزداد الطالب منه علماً ومعرفة بالمناسك وفوائدها وأحكامها فمن مشى من الحجاج على ضوء تعاليمه كان حجه صحيحاً ومقبولاً عند الله تعالى ومبروراً ومشكوراً، وكان جزاؤه الجنة كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ^(١).

الكتاب الخامس

تطبيب المرأة وثمر علاجها

رسالة صغيرة الحجم، عظيمة النفع، عنوانها يدل على مضمونها، تقع في ٥٦ صفحة من القطع الصغير، ذكرها الشيخ في كتابه إتحاف السائل ثم أفرد لها متوسعاً بهذه الرسالة لأهميتها، وهي إجابة عن سؤال ورد إليه يسأل فيه صاحبه عن يجب عليه تجهيز المرأة

(١) انظر الملحق ٢.

وتكفينها ودفنها حال موتها؟ وعمن يجب عليه ثمن دوائها؟^(١)

فبسط الشيخ - عطر الله مقالته - الجواب مشيراً إلى أن أحد المفتين من أنصاف المتعلمين قد خطأ الشيخ في فتواه معتمداً في ذلك على قول لأحد الفقهاء فراح الشيخ يوضح رأيه، مفنداً زعم من ردّ عليه بالأدلة الواضحة والبراهين القاطعة، وانتهى بعد ذلك كله إلى القول: «لذا نرى وجوب نفقة الدواء على الزوج كغيرها من النفقات الضرورية، وهذا الوجوب هو الذي يتلاءم مع علاقة الرجل بالمرأة، وهو ما توجه به المروءة وحسن العشرة، وقد جرى به العرف بين الناس»^(٢).

ثم أرسى أساساً من أسس البحث العلمي موضحاً لذلك الشيخ الطريق الواجب سلوكها لتنمية الملكة العلمية قبل التصدر للفتوى وتخطئة العلماء قال: «وبعد: فلعل ما سبق فيه الكفاية لفهم هذه المسألة فهماً صحيحاً لا لبس فيه، وفيه بلاغ لإقناع الشيخ فلان بأن القضية ليست مجرد قراءة ونقل... وإنما هي قضية فهم واستيعاب وطول أناة وتفكر ومثابرة على القراءة المتنوعة حتى تحصل الملكة العلمية التي يستطيع بها الموازنة بين الأقوال واختيار الراجح منها، وعليه أن يعلم أي ما أخطأت في جوابي وما نأيت عن الصواب»^(٣).

الكتاب السادس

إتحاف السائل بما ورد من المسائل

وهو كتاب غزير العلم وسفر منوع الفوائد، ظهرت فيه عبقرية الشيخ من فقه وتفسير وسيرة وحديث إلى آخر ما فيه من العلوم الشرعية واللغوية فهو شبيه بموسوعة علمية

(١) المقدمة ٥ وانظر إتحاف السائل ١ / ٩٨.

(٢) تطيب المرأة ٤٦.

(٣) تطيب المرأة ٥٦.

متنوعة.

يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء صدر حديثاً عام ١٤١٩ هـ الموافق لعام ١٩٩٨ م أقامه الشيخ على طريقة السؤال والجواب إذ كثير من مباحثه كانت أسئلة أجاب عنها الشيخ ثم ضمنها هذا المؤلف النفيس، وقد أبان عن طريقته هذه بقوله: إنها طريقة مشهورة قديمة، فقد سئل رسول الله ﷺ عن كثير من الأمور فأجاب القرآن عن بعض منها مثل ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ و﴿يسألونك عن الأهلة﴾ و﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ وأجاب رسول الله ﷺ عن البعض الآخر، وهكذا تتابعت الأسئلة وتواردت على العلماء في كل عصر فكانت الإجابات عنها ليزداد الناس علماً ومعرفة ولتكون نبراساً لهم في مسيرة هذه الحياة^(١).

وأشار - نور الله قلمه - إلى سبب تأليفه وجمعه فقال: «وقد أحسن الظن بي بعض الإخوة فأوردوا علي بعض الأسئلة بين الحين والآخر، فأجبت عليها بقدر علمي ومعرفتي، وقد جمعتها في هذا الكتاب لتكون تحفة للسائلين ونفعاً عاماً للمؤمنين»^(٢).

وعلى منهج العلماء العاملين المتواضعين أضاف قائلاً: «فإن أصبت الحق فله الحمد في الأولى والآخرة، وإلا فرحم الله امرأً دل على صواب، وأرشد إلى حق من غير تعصب لمذهب أو رأي، أو اتباع لهوى، أو تبين لفكرة مسبقة في ذهنه، لأن المؤمن كثير بإخوانه، والعين تبصر ما دنا ونأى ولا تبصر نفسها إلا بمرآة»^(٣).

وبهذا التواضع الرائد المعهود من الشيخ - حفظه الله وزاده عزاً ورفعة - ينهي الشيخ مقدمته لسفره العظيم الذي يعد موسوعة معارف علمية، ظهر فيها الشيخ مجتهداً إزاء

(١) إتحاف السائل ١ / ٥.

(٢) إتحاف السائل ١ / ٥ - ٦.

(٣) إتحاف السائل ١ / ٦.

المشاكل الاجتماعية المستحدثة، التي تحتاج إلى نظر واسع في الفقه وبصر دائب في أصوله، وتنقيب دائم في مطولاته، وملكة علمية تستظهر النصوص وتدرك مضامينها وغاياتها، مع توفيق من الله، وغايته الوصول من وراء ذلك كله إلى حل مشاكل المجتمع الإسلامي، فهناك أسئلة عن الحوالات المصرفية، وبيع الإيصالات، وخلو الحوانيت، وفقد الزوج وانقطاع خبره، وبطاقات الائتمان، واعتماد الحسابات الفلكية في الصوم... إلخ مما استحدث في هذه المجتمعات المعاصرة مما يلزم حله، ناهيك عما تضمنه الكتاب من أسئلة متنوعة الأغراض، متعددة الجوانب، فبرز الشيخ - كما ذكرنا - ابن بجدة، يورد السؤال ويبسط الأدلة والبراهين المعتمدة على الأصول المعتمدة، حتى يخرج بالفتوى الناصعة البرهان، الواضحة الظهور، وهو في هذا الكتاب وصل إلى درجة العالم المحقق الثبت الذي تمكن من أسباب العلم، وتملك أصوله وفروعه، وصار به من جملة العلماء المتميزين النحارير، والله الفضل والمنة.

وإني لعلّ يقين أن هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة يصلح ليكون دراسة علمية ينال صاحبها درجة علمية أكاديمية لما حواه من آراء تفرد بها الشيخ بعد مناقشات علمية هادئة متزنة وفق المنهج العلمي السليم، الأمر الذي جعل هذا الكتاب مادة علمية مليئة بأصناف العلوم، وثمرات الفهوم، فهو كما قال الرواس رحمه الله:

مَنْ تَحَلَّى بِكَلَامِي فَازَ فِي كُلِّ الْعِلْمِ
وَأَتَى مِنْ كُلِّ فَنٍ بِأَفَانِينَ الْفُهْمِ

أيد الله الشيخ بتأييده، وأعز به شرعة نبيه، وبارك له في علومه ومعارفه، فتحقق فيه قول شيخه الرواس رحمه الله:

أَفْضَنَّا عُلُومَ الْحَقِّ فِي كُلِّ بَقْعَةٍ فَسَارَتْ بِهَا الرِّكْبَانُ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ

نعم إن هذا الكتاب سيكون رائداً للطلاب، ومصدراً أساسياً للمتخصصين، إذ لا

يصح لباحث يشتغل بمسألة عرض لها الشيخ أن يغفل عما ذكره الشيخ، لأنه سيجد الشيخ لا شك مجتهداً فيها متفرداً برأي ارتضاه، فالكتاب حقاً إضافة علمية متميزة إلى المكتبة الفقهية خاصة والإسلامية عامة.

ولقد أشار الأخ عماد زغرات إلى ما تميز به الشيخ من ميزات فقهية ومؤهلات علمية جعلته في دائرة العلماء المتمكنين المبرزين، قال: «إن أسباب ذلك تعود إلى عدة أمور:

١- أنه يتمتع بملكة فقهية، والملكة الفقهية هي: صفة راسخة في النفس تحقق الفهم لمقاصد الكلام الذي يسهم في التمكن من إعطاء الحكم الشرعي للقضية المطروحة إما برده إلى مظانه في مخزون الفقه أو بالاستنباط من الأدلة الشرعية أو القواعد الكلية، وهي تحصل للفقيه بتحقيق مقوماتها من استعداد عقلي وروحي وشخصي للفقيه، ومنهاج أصيل يقوم على فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة مواطن الإجماع والاختلاف في الفقه الإسلامي ومعرفة أصول الفقه واللغة العربية والعلم بمقاصد الشريعة الإسلامية وفهم الواقع بما فيه من تغيرات وتطورات، والناظر في شخصية الشيخ محمد أديب لكلل حفظه الله يجد أن جميع تلك المقومات قد تحققت فيه، فالشيخ حفظه الله لديه منال فطنة والذكاء ما يؤهله لذلك، فهو على معرفة واسعة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو متضلّع في اللغة العربية، أضف إلى ذلك تمكنه من أصول الفقه وعلم الفقه بما فيه من مواطن اتفاق واختلاف، تجد ذلك جلياً في كتبه إنحاف السائل بما ورد من المسائل بأجزائه الثلاثة.

٢- أنه عالم بالمقارنات الفقهية بين المذاهب، ونقصد بالمقارنة بين المذاهب الإسلامية جمع الآراء الفقهية المختلفة والموازنة بينها بالتماس أدلتها وترجيح بعضها على بعض، وتفيد هذه المقارنة الفقه من حيث الكشف عن مكنون جواهره وعدالة مبادئه ورسوخ قواعده، وتظهر ما فيه من روائع الاجتهاد والاستنباط والتخريج.

٣- أنه أحد الدعاة إلى صياغة الفقه صياغة جديدة وهو لا يعني بهذا الكلام التخلص من القديم أو محاولة هدمه بل الحفاظ به وإدخال الحسين عليه، فالمجدد للفقه يحتفظ بجوهر بناء الفقه ويبقى على طابعه وخصائصه ويعمل على إبرازه والعناية به، ويدخل التحسينات عليه إما بالجهتة في القضايا الجديدة أو بالدراسة المقارنة بين المذاهب الإسلامية أو بصياغته صياغة لغوية جديدة في ثوب جديد، ومن أراد الاستزادة والوقوف على ما ذكرناه فليرجع إلى كتب الشيخ وفقه الله ورعاه»^(١).

الكتاب السابع

حكم الإسلام في النظر والعورة

يقع الكتاب في ١٩٢ صفحة وطبع أربع طبعات آخرها عام ١٤٢٤هـ الموافق لعام ٢٠٠٣م وتأتي أهميته بتناوله مسألة خلافة كثرت فيها الآراء، وتشعبت حولها الأقوال، فاستطاع - برك الله قلمه - أن يعرضها بأسلوب بسيط واضح، ذاكرة في المقدمة أهمية البصر والنظر على سلوك المسلم «فكم من منظر حسن يحدث في نفس الإنسان سمواً في روحه، وصفاء في نفسه، وقوة في إيمانه، فيحسن به سلوكه، وتستقيم أحواله، وكم من منظر سيئ يحدث في النفس انعكاساً في الأوضاع وارتكاساً في الطبع، وانحرافاً في السلوك» لذلك كما يقول الشيخ - رعاه الله - : «جمعت في هذا الكتاب ما يحل النظر إليه وما يحرم ليقف المسلم على حكم الشريعة في النظر الحلال والنظر الحرام، وعلى فوائد غض البصر وما فيه من يقظة روحية، وإشراق نفسي، وعلى آفات إطلاق البصر وما فيه من مثيرات هائلة»^(٢).

(١) الشيخ ٤، ٣، ٢ بتصرف.

(٢) حكم الإسلام في النظر ٥ - ٦.

ثم عرض لمسألة الستر السابع الفضفاض مع مناقشة الأدلة وإقامة البراهين على وجوب ذلك.

ولا تخلو قراءة هذا الكتاب من فوائد نافعة لما حوى من إرشادات ونصائح وترغيب وترهيب ومناقشات علمية تتصل بهذه المسألة، لعل من أهمها مسألة إظهار الوجه ومسألة تحرر المرأة وغير ذلك من المسائل المعاصرة، ولا يخفى أن انتشار الفضائيات بات وباء عضالاً، إذ قل أن تجد قناة فضائية اقتصرت في تقديم برامجها على الرجال، والمسلم الغيور بات في حيرة من أمره، فمثل هذا الكتاب ينير سبيله ويرشده إلى الطريق الأقوم الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، وتحفظ به أعراض المجتمع الإسلامي.

وقد ذاع أمر الكتاب واشتهر عند الناس، فقد ذكر لي بعض الأجلة أنه كان جالسا أمام الكعبة المشرفة وبجانبه أخ مصري فتعارفا، وحين علم الأخ المصري بأن محدثي هو من مدينة حماة أثنى على أهلها وشيوخها قائلاً له: هنيئاً لكم بالشيخ محمد أديب كلكل صاحب كتاب حكم الإسلام في النظر والعورة فهو من أحسن الكتب التي تحدثت عن هذا الجانب. ويعد الشيخ من الرواد في تنبيهه على خطر الانحلال والفجور. فله الحمد والمنة.

كما أئنت عليه سيده فاضلة ومربية كريمة بقولها:

ولقد قرناظري وانشرح خاطري بمطالعة كتاب حكم الإسلام في النظر، فخلوت في قراءته ليالي وأيام هي في وجه الدهر غرة، وفي فم الدنيا ابتسام، ولو أنني أنفقت عمري في الثناء عليه لما وفيت جانب حقه، وكيف لا أئني عليه الثناء الحسن وهو الدواء الناجح لداء أهل هذا الزمن^(١).

(١) المقالة ١٦.

الكتاب الثامن

صون الإيمان من عشرات اللسان

صدر الكتاب في ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط، وطبع ثلاث مرات آخرها ١٤١٣ هـ الموافق لعام ١٩٩٣ م وقدم له الشيخ الفاضل محمد منير لطفي رحمه الله مقدمة ماتعة أثنى فيها على صنيع الشيخ وذكر أنه شجعه على تأليف هذا الكتاب لما له من فوائد قال: «دفعت الغيرة الدينية الأخ الصالح محمد أديب كل كل للقيام بالنصيحة لإخوانه وتحذيرهم من عشرات اللسان، وتفصيل آفاته الخطيرة ليتقوها قبل فوات الأوان، وقد كنت ممن حثه على إنجاز هذا الموضوع وإبرازه إلى حيّز الوجود لتعم فائدته المؤمنين، ويفوز المؤلف بالأجر العظيم، فلبى الطلب وحقق الرغبة، وأخرج لنا هذا المؤلف النافع للمؤمنين.. فجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين، وأدام نفعه وشكر الله له ولمن يؤازرونه في نشر هذا الدين المبين»^(١).

أما المؤلف الشيخ محمد أديب - رعاه الله - فقد ذكر في المقدمة خطورة اللسان وبين أن الشيخ الكريم محمد منير لطفي شجعني على تأليف مؤلف يتناول هذه الآفة قال: «وحتني المرة تلو المرة على إنجازته حتى هيا الله سبحانه وتعالى الأسباب، وذل الصعاب فتقدمت به إليه ليدلي بملاحظاته وإرشاداته، وقد استفدت من أكثرها فجزاه الله خير ما يجزي المخلصين»^(٢)، وقد قسم الشيخ حفظه الله تعالى إلى أبواب وفصول وقدم الأهم فالأهم، وأتي في كل ما عرضه من آراء بالأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال الصحابة والعلماء والصالحين، ثم ذيل الكتاب بخاتمة في فوائد نافعة^(٣).

(١) صون الإيمان ٦.

(٢) صون الإيمان ٥.

(٣) صون الإيمان ٦.

وما أجدر بالمسلم أن يقرأ هذا الكتاب فهو يُغنيه عن مراجعة المطولات التي تناولت هذه الآفة من جهة، ويوقفه على خطورتها من جهة ثانية، وينتفع بتلك الفوائد النافعة والإرشادات السامية التي ختم بها الشيخ كتابه كحديثه عن الشرك وأنواعه وأسباب حسن الخاتمة، وبعض الأذكار التي يرطب بها اللسان، لينال المسلم الفوز والرضوان.

حفظ الله الشيخ ورعاه، ما أجمل موضوعاته وما أنفعها لمجتمعه، فهو ابن بيئته يعرف أمراضها وأدواءها الناجعة، كثر الله فوائده ونفع بعلمه.

الكتاب التاسع

قرة عين رسول الله ﷺ

بحث في آداب الصلاة وفوائدها وفقهها

يقع هذا الكتاب في ١٤٤ صفحة من القطع الكبير، طبع سنة ١٤٢٠هـ الموافق لعام ٢٠٠٠م أتى فيه الشيخ - أعزه الله - على كل ما يتصل بالصلاة من آداب وأحكام، مقدماً له بمقدمة مفيدة أوضح فيها بإيجاز حقيقة الصلاة وأهميتها وميزاتها، وأثرها على المسلم قال: «فجدير بمن ذكر كل يوم خمس مرات أن لا ينسى ولا يغفل عن تلك الخصائص والمميزات التي تضمنتها الصلاة، وخاصة إذا أُدِّيت على الوجه المطلوب من خشوع وخضوع وتعظيم لجلال الله سبحانه»^(١). وقد تحدث عن أبوابه وفصوله تلميذه الأخ عماد زغرات ثم أنهى حديثه بالقول: «فالكتاب يعد مدخلاً لطالب الفقه إلى الكتب الأخرى التي تبحث في العبادات، فهو يعتبر الحلقة الأولى حتى يتمرس الطالب على فهم العبارة وحل الألفاظ والوقوف على مرامي الشريعة الغراء»^(٢).

(١) قرة عين رسول الله ﷺ ٦.

(٢) الشيخ ٧.

واشتمل الكتاب على توجيهات مفيدة، ونصائح نافعة ضمنها الشيخ أحاديثه الفقهية، مما جعل الكتاب - فيما أحسب - متميزاً عن غيره من الكتب المؤلفة في هذا الجانب، من ذلك - مثلاً - حديثه عن اللباس إذ بعد أن بين أنه نعمة من الله على عباده، ذكر ما يحرم صنيعه على الرجال والنساء من أعمال تتصل بالألبسة كزيادة الثوب عن الكعبيين، ولبس الثياب الضيقة الشفافة، راح - أيده الله - يدلي بنصيحته الرائعة التي يريد منها الحفاظ على هوية المجتمع الإسلامي، قال: «وعلى الرجال أن يحافظوا على الزي العربي في اللباس لتبقى لهم شخصيتهم وكيانهم، وفي ذلك تحقيق للذات، ويجذروا التقاليد المستوردة من شرق أو غرب، وذلك يدل على ضعف السلوك»^(١). حفظ الله الشيخ وأيده.

الكتاب العاشر

منتخب النفائس لأبناء المدارس

وهو كتيب صغير يقع في عشر ورقات، أنجزه يوم الثلاثاء في ٥ صفر ١٣٧٦ هـ الموافق ١١ أيلول ١٩٥٦ م أعدده لتلميذه عبد الله كرزون - حفظه الله - الذي تردد إلى الشيخ وهو طفل صغير، وقد كفانا الشيخ - أفاض الله عليه العلوم والمعارف - مؤونة الحديث عنه في مقدمته الموجزة قال: «هذا كتاب لطيف وسفر نفيس جمعت فيه جملة من مكارم الأخلاق التي يجب على الطالب أن يتحلى بها منذ الصغر، لكي يكون منطبعاً على الأخلاق العالية، والآداب المرصية فيما بعد، ولأن العلم في الصغر كالنقش في الحجر، وقلب الطفل كالمرآة صفاء، فهو قابل لأن ينطبع فيه كل شيء من خير أو شر، وقد اختصرت هذا الكتاب الميمون من دروس القراءة والأخلاق لخليل شانوحة وكتب أخرى نفع الله به المسلمين وخاصة هذا

(١) قررة عين رسول الله ﷺ ١٣٨.

النشء الذي هو ابن اليوم ورجل المستقبل»^(١).

وما أجدر هذا الكتاب أن يكون منشوراً متداولاً بين أيدي الأسر المسلمة التي باتت تفتقد إلى هذا النوع من المختصرات المفيدة كي يتعلم أولادها ما تضمنه هذا الكتيب من مكارم الأخلاق في المأكل والمشرب والأدب مع الأساتذة، وحسن المعاشرة... إلخ.

ولأن هذا الكتيب نادر بل هو أندر من الكبريت الأحمر، أسوق للقارئ هذا النص المَعْنُون بـ «الأدب مع الأساتذة» لتبدو منه أهمية هذا الكتاب ونفعه قال: «يا بني إن أستاذك في المدرسة هو أبوك الأكبر الذي يدبر أمورك، وينظر في مصالحك فله عليك حقوق يجب أن تراعيها، وأن لا تقصّر فيها، وأن تطيعه في جميع أوامره المدرسية، وأن تحسن الكلام إذا حدثته، وأن تنصت إليه إذا حدّثك، ولا ترفع صوتك فوق صوته، واحذر كل الحذر من أن تكذب عليه بل لك أن تسأله عن كل مسألة لم تفهمها بأدب ولطف واحتشام، فإنه أفضل من أبيك لأن الأب يربي البدن والمعلم يربي الروح»^(٢) (١).

وعلى هذا النحو ألفت هذا الكتاب، فجمع فيه ما تفرق في أمهات الكتب - بلّغه الله مناه -.

الكتاب الحادي عشر

اعدلوا بين أولادكم

وهو رسالة صغيرة تقع في ثلاثين صفحة أعانها الله على إتمامه مع كتاب الأنيس في الوحدة، مع أن الشيخ يعاني من آلام شديدة، والكتاب إجابة عن سؤال كان قد ورد إليه حول تفضيل بعض الأولاد على بعض وعدم التسوية بينهم في العطية، قال الشيخ: «بعض

(١) منتخب النفائس - المقدمة ١.

(٢) منتخب النفائس ٦.

الفقهاء يرى منع التمييز وأوجب العدل ما لم يكن هناك مبرر شرعي، وبعض آخر يرى جواز ذلك مع الكراهة ولكل من الفريقين دليله... وإن كان دليل الموجبين للعدل والتسوية أقوى وأصرح في الدلالة على وجوب التسوية بين الأولاد في العطية «وأضاف الشيخ موضحاً الهدف من تأليف هذه الرسالة قائلاً: «ولكن أحد المتفقهة الآخذين بالاجتهاد القائم على جواز التفضيل لم يعجبه جوابي... ظاناً أن ما عليه وأمثاله هو الحق... والواجب التزامه» ثم راح كعادته ينصح أمثال هؤلاء بنصائح يفيد منها طلبة العلم عامة في حياتهم العلمية، قال: «لقد رسخ في عقول بعض المتفقهة إلغاء الآخر وعدم الاكتراث به، وظنوا ألا فهم إلا فهمهم ولا صواب إلا ما هم عليه» ثم بين صنعته بقوله: «وقد رأيت أن أكتب في هذه المسألة بحثاً أذكر فيه أقوال الفقهاء من مجيزين ومانعين ودليل كل طرف ثم أوازن بين الأدلية وأبين الراجح منها، وأرد على أدلة المجيزين حسب القواعد والأصول التي قعدها وأصلها العلماء، ليتضح في النهاية الحق الذي لا لبس فيه كالشمس في رابعة النهار، لأن القول بعدم جواز التمييز بين الأولاد والتفاضل بينهم في العطية هو الذي ينبغي معرفته واعتماده لصحة الأدلة وصراحة دلالتها»^(١).

الكتاب الثاني عشر

الأنيس في الوحدة

يقع الكتاب في جزئين كبيرين، طبعتهما المكتبة العربية بحماة عام ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

وعنوان الكتاب يدل على مضمونه، فهو روضة معارف فيحاء، ودوحة علوم غناء، يجتني كل طالب علم ما يريد منها من ثمار يانعة وأزهار بديعة وورود زاهية تسر الناظر

(١) اعدلوا بين أولادكم، ٣.

وتبهج القلب وتسعد الروح، وهو من الكتب التي إن وقعت إليك تشدك لتقرأها كلها لأسلوبها الجذاب وفوائدها الماتعة ومعارفها الغنية.

تحدث الشيخ في مقدمة الكتاب عن القراءة وأهميتها في حياة الأمم، ثم بين كيف جمع المادة العلمية للكتاب وأهدافه وعرض إلى منهجه في القراءة فقال: «هذا وإني - والحمد لله على فضله ونعمائه - منذ مطلع الخمسينيات من القرن الماضي كنت أقرأ الكتاب والجريدة والمجلة، وكنت أدون ما حل لي من وأعجبني منها في دفتر خاص من غير تبويب ولا تحقيق ولا تدقيق ولا توثيق ولا عزو في الغالب، لأن هذه الأمور لا بد منها للبحث العلمي الموثق، أما تلك الكتابات والاختيارات التي كنت أدونها فليست من هذا القبيل، وإنما كان المقصود منها العظة والعبرة والذكرى، بغض النظر عن صحة نسبتها إلى قائلها أو تصنيفها وتبويبها وتوثيقها، ولذلك تركتها كما سجلت على السجية والفطرة، وكان من عادتي في تلك الأيام إذا قرأت كتاباً أن أكتب اسم الكتاب واسم مؤلفه وعدد صفحاته ورقم طبعته، وكنت أفعل ذلك في كل كتاب قرأته حتى تجمع لدي الكثير الكثير من ذلك عبر السنين، فأحببت اختيار نصوص هذا الكتاب مما تجمع لدي من مختارات كتب ومجلات وجرائد، واخترت له عنواناً (الأنيس في الوحدة) جعله الله أنيساً وجليساً محبباً لقارئه من هواة القراءة وشدة الثقافة العامة.

أسأل الله عز وجل أن ينفعنا به جميعاً وأن يرفع هممنا لممارسة القراءة المتنوعة، حتى تنمو ملكتنا الفكرية وتتوسع مداركنا العلمية»^(١).

هذه هي الكتب التي ألفها الشيخ وتناول فيها موضوعات شرعية متنوعة.

* - أما الطائفة الثانية من أعماله العلمية فهي تحقيقه ونشره عدداً من الرسائل رأى أن المجتمع بحاجة إليها وهي:

(١) الأنيس في الوحدة، ٦.

الكتاب الثالث عشر

حسن الشرعة في مشروعية صلاة الظهر إذا تعددت الجمعة

للشيخ يوسف النبهاني

كتيب صغير يقع في ٥٢ صفحة من القطع الصغير قدّم له، وترجم لمؤلفه، وطبعه في دار الدعوة بحماة، وساق في هذه المقدمة أهمية صلاة الجمعة، وأنها لأهميتها صار الأصل فيها أن تقام في مسجد واحد، ثم لأمر ما حصل التعدد، واختلفت أنظار المجتهدين فيه، ثم بيّن - رعاه الله - أنه ظهرت في هذه الأيام ظاهرة جديدة تدعو إلى عدم مشروعية صلاة الظهر بعد الجمعة، وأن صلاتها بدعة لا أصل لها في التشريع، وانتهى إلى القول: «أحببت أن أنشر هذه الرسالة لتكشف لنا الحقيقة، ويتضح لنا حكم الشريعة في هذا التعدد، وصلاة الظهر بعدها على المذاهب الأربعة»^(١).

ثم أشار إلى ما صنعه أيضاً في تحقيقه فقال: «وقد قدمت الرسالة بلمحة خاطفة عن حياة الشيخ وختمتها بمختارات من الرائية الكبرى له»^(٢).

وفي ترجمة الشيخ يوسف النبهاني أشار الشيخ المحقق إلى مكانة النبهاني ومنزلته العالية مشيداً بإنتاجه العلمي وأثره على النفس والمجتمع، مؤكداً على أن لمؤلفات النبهاني تأثيراً خاصاً في تكوين الشيخ محمد أديب العلمي^(٣).

(١) حسن الشرعة ٤ - ٥.

(٢) حسن الشرعة ٥.

(٣) انظر الحديث عن شيوخه في الصفحة ٤٩ من هذا الكتاب.

الكتاب الرابع عشر

السهام الصائبة لأصحاب الدعاوى الكاذبة

في الرد على مدعي الاجتهاد للشيخ يوسف النبهاني

وهو رسالة صغيرة تقع في نحو ٦٠ صفحة من القطع الصغير، يجدر بكل غيور على دينه أن يقرأها، لما حوت من فوائد عظيمة وردود مكينة على أولئك - أنصاف المتعلمين - الذين يظنون أنهم وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد - وما أكثرهم في زماننا، وما أشد خطرهم على بنيان ديننا - وقد وضع الشيخ المحقق أهمية الالتزام بالمذاهب المعتمدة، ثم أشار إلى تلك الطائفة من أدعياء العلم فقال: «وقد حلا لبعض من انحرف مزاجه، وفسد عقله، وعميت بصيرته، أن يقطع صلة الأمة بقادتها.... ويفرق وحدتها، فأخذ ينادي بالتفقت من قيود المجتهدين، وإعادة النظر في اجتهاداتهم والرجوع إلى الكتاب والسنة، والاجتهاد من جديد، زاعماً أن الأمة ضلت الطريق وجانبت الصواب في تقليدها للأئمة»^(١).

وشنَّ على هؤلاء بقوله: «وقد استجاب لهذه الدعوة من لم يُعرف منه العلم ولا التقوى ولا النزاهة والأمانة والحياء، وقاموا بحملة دعائية كبيرة أوقعوا في شركها بعض الأغمار البسطاء، وهذا ينذر بشر مستطير، وخطر كبير حيث تلبس الأحكام وتتشوّه الحقائق»^(٢).

ثم ألمح الشيخ إلى أن أول من وقف أمام هذه البدعة الخطيرة هو الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله، وتبعه في ذلك الشيخ محمد الحامد رحمه الله حيث ألف رسالة في هذا الموضوع عنوانها (لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية)، ثم ألف الدكتور محمد

(١) السهام الصائبة ٤.

(٢) السهام الصائبة ٤.

سعيد رمضان البوطي ألف كتاباً آخر عنوانه (اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية).

ثم بين الغاية من نشر رسالة الشيخ يوسف النبهاني قائلاً: «وقد رأيت أن أنشر هذه الرسالة ليزداد الإخوان الأكارم وقوفاً على الحقيقة، وحيطة لأنفسهم، وحذراً من أولئك الطغام اللئام الذين همهم الجدل وتشويه الحقائق وتبديل المعالم وتعكير الصفو، وإشاعة الفوضى والفساد»^(١).

ولأهمية هذا الموضوع زاد الشيخ المحقق - حفظه الله - في نهاية الرسالة أقوالاً أخرى للمؤلف وغيره تتصل بهذا الموضوع لتبدو القضية واضحة، وليظهر خطر هذه الدعوة الفاضحة - والعياذ بالله -.

«وليت طلبة العلم يعكفون على قراءة هذه الرسالة ليكونوا على بصيرة من أدياء العلم الجهلة الذين ضلوا وأضلوا في دعواهم هذه فإنهم كما قال الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى من أعظم جنود إبليس وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويسوقون للأمة هداية ونفعاً، وما علموا أنهم يكتسبون بذلك قبيح الآثام، ويكونون سبباً في إضلال الأنام»^(٢).

الكتاب الخامس عشر

لفتة الكبد إلى نصيحة الولد

لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

وهي رسالة صغيرة الحجم أيضاً تقع في ٢٧ صفحة، قدم لها الشيخ المحقق - حفظه الله - بمقدمة مفيدة ضافية حول تربية الأبناء، وواجبات الآباء إذ عليهم أن يغرسوا في قلوب

(١) السهام الصائبة ٤ - ٥.

(٢) السهام الصائبة ٣٢ - ٣٣.

أبنائهم معاني التوحيد الخالص من الشوائب، ويعلموهم حقيقة المراقبة لله تعالى في السر والعلن، والاحتكام لشريعته، والوقوف عند حدوده، ويعودوهم الجراءة الأدبية في الجهر بالحق حتى لا يسكتوا على ضيم، ولا يقرّوا على منكر، ويرغبوهم في الفضائل والمكرّمات، وأضاف ملمحاً إلى أهمية هذه الرسالة بعبارة جامعة فقال: «وليكن كل منا لقمان الحكيم في توجيه أبنائه أو ابن الجوزي مع ولده في نصيحته»^(١).

وهذه الرسالة مشهورة عند أهل العلم، فهي غزيرة الفوائد، عميمة النفع.

الكتاب السادس عشر

رسالتان

أيها الولد والقواعد العشر

لحجة الإسلام الغزالي

وهما من الرسائل الصغيرة الحجم أيضاً إذ تقع الأولى في ٢٥ صفحة من القطع الصغير، والثانية في ٨ صفحات.

ومع صغرهما فنفعهما كبير، وعطاؤهما غزير، لقد وضح المحقق - أدامه الله ذخراً للعلم - أنه منذ نعومة أظفاره تعلق بالشيخ الغزالي وبكتبه، فرآه حبر هذه الأمة ومفخرة تاريخها، ورجل فكرها، فهو نبراس هداية، وخضم علم زاخر، لذا فهو يستضاء به، ويُسار على منهجه، فاختر - حفظه الله - هاتين الرسالتين يقدمهما إلى رواد الفضيلة والعلم والأخلاق والتوجيه الحسن^(٢).

(١) انظر لفظة الكبد ٣ - ٤ - ٥.

(٢) انظر مقدمة الرسالتين ٣.

وعرض إلى مضمون الأولى فقال: «هي رسالة توجيهية قدمها إلى أحد تلامذته، رسم له فيها معالم الطريق، وأقام له الدلائل إلى الحقيقة، فكانت خير هدية يقدمها مرشد إلى مسترشده، وأستاذ إلى تلميذه، فلينسج على منوالها العارفون، وليستضيئ بنورها المسترشدون»^(١).

ثم ذكر ما زاده عليها بقوله: «وقد وضعت لها عناوين متناسبة مع سياق الكلام ليتم بها النفع العام»^(٢).

أما الثانية فقد تحدث فيها الغزالي عن الأسس التي قام عليها بناء طريق الحق ومنهج الصدق، وكشف عن القواعد العشر التي ارتكز عليها بناء المعرفة الحقنة الخالصة من الشوائب^(٣).

وعلى عادته حفظه الله ترجم للغزالي ترجمة وافية ضمنها كثيراً من الإرشادات والتوجيهات النافعة المفيدة منها قوله: «وهكذا المؤمن الصادق المخلص، المستنير بنور الله يكون فناء جسمه غير مانع له من استمرار حياته التي ينفع فيها نفسه وغيره، وتكون آخرته استمراراً لجهاد دنياه، وتبقى آثاره حية باقية بعلو شأنه، ومظهراً لخلوده السرمدى ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ هذا في الوقت الذي يكون فيه الغافلون عن الله وهم أحياء في الدنيا بأجسادهم أمواتاً في واقع الأمر لا ينتفعون ولا ينفعون، ألا فلتبقي حياتنا خالدة بعد الموت، بإقبالنا على الله، ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾»^(٤).

ولا أعتقد أن طالباً يقرأ هذه القطعة الأدبية التوجيهية لا تشتد عزيمته ولا تقوى

(١) انظر المقدمة ٤.

(٢) المقدمة ٤.

(٣) المقدمة ٤.

(٤) انظر المقدمة ١٣.

شكيمته نحو العلم والعمل والإقبال على الطاعات، وسلوك النهج الأحمدى، والطريق المحمدى، فله در الشيخ.

الكتاب السابع عشر

وهو ثلاث رسائل لحجة الإسلام الغزالي

الأولى: الأدب في الدين.

الثانية: الرسالة الوعظية.

الثالثة: رسالة الطير.

ومجموع صفحات هذه الرسائل هو ٥٧ صفحة من القطع الصغير.

وعلى عادته - أيده الله - بيّن ما في هذه الرسائل من فوائد في المقدمة فقال: «إن هذه الرسائل عنصر من عناصر التوجيه، وعلاج نافع من علاجات الوهن الفكري، والتأزم النفسي، والشروذ الذهني، وسياج واق يحفظ الشباب من الانفلات من قيود الآداب والفضيلة وخاصة في مثل هذا العصر الذي طغت فيه المادة على الروح، والشهوات على القيم الأخلاقية، وتصدّع فيه بنيان الفضائل والمعاني الإنسانية»^(١).

ثم راح يتحدث عن مضمون كل رسالة فقال: «لقد تحدثت الرسالة الأولى عن الأدب بأوسع معانيه فهو عنصر من عناصر السعادة في الدنيا والآخرة، وعماد من أعمدة هذه الشريعة، ومن لا أدب له ولا أخلاق فلا دين له، لقد تحدثت حجة الإسلام الغزالي عن الآداب الاعتقادية والتعبدية، والفردية والاجتماعية، والخاصة والعامة، والعلمية والتعليمية

(١) المقدمة ٣-٤.

فكانت حقاً رسالة جامعة لما تفرق في غيرها»^(١).

أما الرسالة الثانية فقد تحدث فيها الغزالي عن الطريق المستقيم، والمنهج القويم الواجب سلوكه في معالجة النفس، وتخليصها من عوائقها وعلائقها، وتصعيدها نحو المعاني الشريفة، والغايات النبيلة، وتوجيه الهممة إلى الدار الآخرة... «وختمها بذكر جملة من مقتضيات العقيدة الصحيحة المعتد بها شرعاً»^(٢).

ويبين أيضاً مضمون الثالثة قائلاً: «تحدث فيها حجة الإسلام عن حقيقة سير المؤمن في طريق التصفية وما ينتابه من عقبات، وعن نهاية السير وما فيه من راحة للروح، وشفاء للنفس، وقرب من الله جل وعلا، وحصول على الثمرة المطلوبة ألا وهي المعرفة الحقبة الخالصة من الشوائب، وحينذاك يحظى بالنعيم المقيم في حياة هادئة ناعمة، كل ذلك بأسلوب أهل الإشارات، والتعبير الرمزي الذي يسلكه أهل المعرفة»^(٣).

وإتماماً للفائدة ترجم للغزالي أيضاً ترجمة موجزة، قدم لها بالحث على قراءة كتب الغزالي لأنه شخصية إسلامية قلّ نظيرها، أحيا الله به الشريعة، وأرشد الناس بواسطته إلى سلوك المحجة البيضاء كما قال الشيخ - حفظه الله -^(٤).

ووعده القارئ في نهاية هذه الرسائل بأنه سيصدر مجموعة أخرى من رسائل الغزالي هي: كيمياء السعادة، ومنهاج العارفين، ورسالة موجهة إلى بعض علماء عصره، والظاهر أن كثرة الشواغل حالت دون ذلك.

(١) المقدمة ٤.

(٢) المقدمة ٤.

(٣) المقدمة ٥.

(٤) المقدمة ٥.

ولعل الشيخ - حفظه الله - رأى أن طلاب العلم لو أخذوا بها في هذه الرسائل التي نشرها للغزالي ولابن الجوزي لترقوا في الآداب وصلح حالهم وفعلهم، فالتفت إلى صنع تأليف وتحقيقات أخرى وجد أن الطلبة بحاجة إليها كرسائل الشيخ النبهازي، والكتب الفقهية التي ألفها ونشرها.

وفي نهاية هذه المجموعة قدم اختيارات ثقافية إسلامية لتزاد الفائدة وهي: تصوير الشاعر إقبال للشباب المسلم ثم علامة المؤمن ثم وصية لبعض العلماء ثم زهور الكتب والبساتين.

والحق أن هذه الاختيارات هي قطع أدبية ثقافية تربوية إرشادية، وكأني به يلفت انتباه الطلاب إلى العلماء المحدثين لينهلوا من معينهم لأنه أشار إلى أن ما اختاره حول صورة الشباب المسلم عند الشاعر الهندي محمد إقبال نقله من كتاب روائع إقبال لأبي الحسن الندوي، وهذا قبس من منهج الشيخ التربوي إذ نرى فيه الربط بين أصالة القدماء وجهود المحدثين من العلماء المعاصرين، فعلى الطالب أن يطلع على هذه الشخصيات العلمية، وأعمالها لتكون شخصيته الإسلامية متكاملة.

* - ومن هذا العرض الموجز لمؤلفات الشيخ يبدو أنه - حفظه الله - كان يصدر في هذه الأعمال جميعها عن منهج تربوي متكامل رسخ في عقله، وأدرك غاياته، فهو المربي والمرشد البصير بأمراض القلوب، والخبير بأدويتها، يعرف ما تطلبه تربية الصغار من مناهج، وما تطلبه استقامة الكبار من طرق.

لذا نلاحظ أنه في المجال التربوي بدأ برسالة صغيرة هي منتخب النفائس ثم أتبعها برسائل الغزالي ثم ابن الجوزي... إلخ فكأنه بعد أن أدرك نفع أعماله العلمية الأولى أتمها بالأعمال العلمية الثانية ليكتمل المنهج، وتتضح الصورة التي رسمها لهذا النشء المسلم، جيل

المستقبل، وإذا نظرنا إلى رسائله التي حققها ونشرها تلك التي ألفها الشيخ يوسف النبهاني - عليه الرحمة والرضوان - أدركنا أيضاً أن الشيخ - حفظه الله ونور قلمه - أدرك ما يعترى هذا النشء من الدعاوى الباطلة، والأفكار الهدامة مما بعثه على تحقيق ونشر السهام الصائبة، وحسن الشريعة، ومضمون الرسالتين يدل على العلاقة الوثيقة بين الداعين إلى اللامذهبية والقائلين بعدم صلاة الظهر بعد الجمعة.

والظاهر أيضاً أن الشيخ اعتنى عناية خاصة بالجانب الفقهي - والفقه - كما قالوا عمدة العلوم، لأن المجتمع في مدينة حماة بات يتطلب ذلك، نتيجة الأحداث الدامية التي شهدتها المدينة عام ١٩٨٢م، إذ نتج عنها مشاكل اجتماعية صعبة، كان - حفظه الله - المؤئل الذي يفرع إليه الناس لحل مشاكلهم، والاستفسار عن طرق تسهيل أمورهم، فكان الشيخ حلالاً لهذه المشاكل موجهاً لأبناء قومه نحو ما يصلح أحوالهم، مستعيناً بثقافته الفقهية الواسعة المتنوعة، ولعل كتابه إتحاف السائل يعد دليلاً على صحة ما ذكرناه.

فله در الشيخ على ذكائه اللامح، وفطنته النادرة، ففي صنعه هذه التأليف بهذا التعدد والتنوع ما يدل على سعة أفق، واستشراف للحياة، وخبرة في التسليك والتوجيه، بتنا نفتقدها عند من تصدّروا للدعوة، فهو بحق كما قال الشاعر الرواس عليه الرحمة والرضوان:

حين منّ الكريمُ إلحقي الد	ه بأهل الهدى وأصلح حالي
وحباني من حضرة الفضل علماً	أحمدياً به ارتقيت المعالي
قد سقاني من حانة القرب كأساً	نبوياً عذباً لطيفاً الزلال
حلّ عنك القول المزخرفَ وافعل	لا يكون القولُ كالفعال
كم أناسٍ تصدروا بالدعاوى	وبحق هم دون صفّ النعال

وعلى العموم فهذه هي مؤلفات الشيخ - كثر الله فوائده ونفع بعلمومه ومعارفه - والناظر فيها يدرك أن للشيخ منهجاً علمياً سار عليه في تأليفه وتصانيفه يتضح هذا المنهج

مما يأتي:

١ - اتسم منهجه بالشمول مع الدقة، فلا تكاد تجد مسألة عرض لها في مؤلفاته لم تقم على استقراء تام، بل إنك لتدهش من كثرة تفتيشه عن أقوال العلماء فيها، وتنقيبه عن آرائهم في بطون الكتب المعنية بها، فتعجب حقاً من سعة اطلاعه ودأبه، على الإمام بالمسألة من كل جوانبها مراعيًا المنهج العلمي المعتبر عند المحققين الأثبات، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً جداً.

ولو نظرت في أي كتاب من كتبه لرأيت هذه الظاهرة واضحة تماماً^(١)، فلو نظرت مثلاً إلى كتابه حكم الإسلام في النظر والعورة لوجدت أن مناقشته حول وجوب ستر وجه المرأة وكيفية استغرق أكثر من ٣٠ صفحة، سرد فيها كل ما قيل في هذه المسألة، فلم يترك رأياً إلا وناقش صاحبه وحاوره بأسلوب علمي، ومنهج دقيق، فتعجب لطول نفسه، وسعة علمه، ودقة فهمه، حتى انتهى إلى القول: «والخلاصة أن على المرأة ستر جميع بدنها بما في ذلك الوجه والكفين بثوب سابغ فضفاض، لا يصف ولا يشف، ولا يغترن أحد بفتوى مفسر أو محدث متهور أو كاتب مأجور قد باع دينه بدنياً غيره، وبمتاع من الدنيا قليل، وإلى الفقهاء الرجوع في الأحكام لا إلى المفسرين والمحدثين والصوفية على احترامنا لهم، كما أخبر بذلك سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى^(٢)».

وهذه الشمولية دفعت بالشيخ إلى توسيع دائرته الفقهية، فصار يتكلم في المذاهب الأربعة، ثم يرجح ما يراه حلاً للمشكلة، مثال ذلك ما ذكره حول سؤال ورد إليه يتعلق باشتراط الأجل في القرض هل يجوز؟ فترى الشيخ - حفظه الله - ينقل من أقوال العلماء

(١) انظر مثلاً في كتاب الفقه المبسط - أحكام البيع ١ / ٢٩٤ - ٢ / ٣٦ - ٤٩ و ٣٢٢ و ٣ / ١٩٤.

(٢) انظر الصفحة ٥٩ من الكتاب المذكور، وانظر من صفحة ٣٠ إلى ٦٣ وانظر رسالته: اعدلوا بين الأولاد، لترى ذلك أيضاً.

القدماء والمحدثين، ويقف أمامهم مرجحاً ما يراه راجحاً، ومضعفاً ما يراه ضعيفاً، حتى انتهى إلى القول: «والخلاصة: إن قول المالكية ومن نحا نحوهم هو المعقول

والمناسب لمقتضيات هذا العصر، حيث تشابكت المعاملات التجارية، ومصالح الناس تقضي بتحديد آجال القروض حتى يتم التعاون والتناسق في جميع الأعمال»^(١).

ومثل ذلك صنع في حديثه عن بيع الوكيل من نفسه، إذ عرض كل ما قيل حولها في المذاهب الأربعة، مرجحاً رأي المالكية والحنابلة وبعض الشافعية فيها، مورداً ما يؤيد رأيه، ثم قال: «ولو تأملنا أقوال المذاهب لعلمنا أن محور الخلاف قائم من أجل عدم الإذن واتحاد الموجب والقابل الذي يتولد منه التهمة والمحابة كما يقولون، فلو انتفت التهمة والمحابة ووجد الإذن واتقى الله عز وجل الوكيل، وباع من نفسه بضمن المثل، أو بمثل ما يبيعه للناس زماناً ومكاناً من غير إجحاف في حق الموكل، لقلت: إن ذلك البيع جائز»^(٢)، وراح يعلل سبب اختياره هذا.

ومثل ذلك صنع في مسألة بيع السباد الحيواني فبعد أن أورد النصوص الفقهية، وآراء المذاهب الأربعة انتهى إلى القول: «والخلاصة: أن بيع فضلات الحيوانات جائز مطلقاً عند الحنفية والمالكية وعند الحنابلة وبعض الشافعية» وختم قوله هذا بالنكير على أنصاف المتعلمين، إذ الظاهر أن الشيخ في هذا الرد يصحح خطأ، لكنه لم يشر - حفظه الله - إلى صاحبه. قال: «وبعد فهذا هو القول الجامع في هذه المسألة، ولا يُلتفت إلى الذين يبلبلون الأفكار ويحاولون الظهور الذي كم قصم من ظهور ويا ليتهم جدوا واجتهدوا حتى يجدوا، ولكنهم قنعوا بالقليل، ولم يحملوا أنفسهم عناء البحث وأعباء المطالعة، وما علموا أن العامي

(١) انظر إتحاف السائل ٣ / ١٠١، وانظر نحواً من ذلك ٢ / ٢١٢.

(٢) الفقه المبسط ٢ / ٣٦.

ليس له مذهب، ومذهبه مذهب مفتيه، ولو أنصفوا لاستراحوا وأراحوا بدلاً من التعامل والاستكبار»^(١).

لقد خلقت ملكة البحث العلمي مع الشيخ، وقوامها الاستقراء الكامل حول المسألة، مع الدقة والدراسة المتأنية، لاسيما في تلك الموضوعات الفقهية التي تحتاج إلى روية وتفكير، قبل الإقدام على الفتوى، ولعل هذه الملكة البحثية تـّماها عنده وصية الشيخ محمد الحامد له حين أراد تأليف كتابه الأول (تنبيه الفكر) فقد ذكر الشيخ في مقدمته ما نصه: «وشجعتني على متابعة البحث وتمحيص الأمر تمحيصاً علمياً لئلا يردّ علي رادّ فجمعت أقوالاً كثيرة لعلماء أفاضل تثبت الحقيقة... وتابعت البحث أكثر وأكثر...» وفي عام ١٩٦٧م كتب لتلك الأقوال أن تخرج مطبوعة في كتاب يحمل اسم تنبيه الفكر^(٢).

ولا شك أن الشيخ في هذا الكتاب لم يترك شاردة ولا واردة تتعلق بهذا الموضوع إلا عرضها، إذ ساق كل الأقوال التي وقف عليها، فجاء كتاباً جامعاً مانعاً لهذه المسألة، والظاهر أن هذا الكتاب - كما ذكرنا - أصل هذه الملكة عند الشيخ وغذاها فثمرت عن تلك الكتب العلمية المعتبرة عند أهل التحقيق والله الفضل والمنة.

وتبرز هذه الشمولية العلمية، والحرص على الاستقصاء التام في كتابيه الأضحية والعقيدة، والحج والعمرة أيضاً، إذ أقامهما ابتداء على المذاهب الأربعة، فلست واجداً مسألة لم يذكر فيها أقوال المذاهب حولها منتهياً إلى الرأي الذي يراه راجحاً على غيره وفق ما تجمّع لديه من أدلة يتقوى بها، وقد أجمع من قرأ له على هذه الخصيصة المعرفية الدقيقة.

قال تلميذه الأستاذ غالب المصري: «ومن خصائص منهج الأستاذ العلمي استيعابه

(١) الفقه المبسط ٢ / ٣٩.

(٢) انظر المقدمة ٨.

لجوانب القضايا التي يطرقها، بحيث لا يترك مما يتعلق بها شيئاً إلا ويذكره، وكثيراً ما كنت أسمع قضية من القضايا الشرعية أو الفكرية من أحد من الدعاة أو العلماء فأجده يقتصر على بعض الجوانب والأدلة أو الحثيات، فيتولد لدى السامع تصور غير متكامل عن القضية أو المسألة»^(١).

وأكد على هذه السمة أيضاً الأستاذ مرهف سقا وساق مثلاً قال: «وأقرب مثال على ذلك أذكر أنني كنت أسأله عن مسألة من مسائل الحج، فأخذ الشيخ يعدد لي فيها أقوال الفقهاء ويبين أدلتهم، واستطرد في ذلك حتى بدا التعجب في وجهي وأمارات الاستفسار من أين له هذه الآراء المتعددة في المسألة الواحدة، ثم علمت من أين له ذلك عندما أخبرني أنه قرأ قبل أن يؤلف كتابه عن الحج والعمرة حوالي ثلاثة آلاف صفحة من كتب المذاهب والفقه المقارن قبل أن يؤلفه»^(٢).

ورحم الله الشيخ وأمد في عمره لقد أكد على هذا المنهج كثيراً، ودعا طلبة العلم إلى الأخذ به حتى يسلموا من عثرات العلم، ويسيروا على الطريق الواضح اللائق، قال موصياً لهم: «فعلى طالب العلم أن يستوعب الحكم أولاً، ويمحصه ثانياً، ويتعقله ثالثاً، ثم يرجع إلى مصادره الأصلية رابعاً، ثم يعطي بعد ذلك الجواب حتى يكون منضبطاً بالأصول والقواعد، وليحذر التسرع والتصلب الفكري، وإلا وقع في الخطأ الفاحش الذي يجعله لا يُعتد بقوله مهما كان صواباً»^(٣)، وها هو طالبه عماد زغرات ينقل ما نصحه الشيخ به في سيرته العلمية، قال: «علمني حفظه الله الإنصاف والتجرد في الحكم، فكان يقول لي: اقرأ بموضوعية من دون أن تحمل فكرة مسبقة عما تقرأ. وكان يقول: حكمك على الشيء فرع عن تصوره.

(١) تجربتي مع الشيخ ١١.

(٢) الشيخ كما عرفته ٨.

(٣) إتحاف السائل ٢ / ٢٠٢.

وعلمني احترام الأئمة وإجلالهم واحترام آرائهم واجتهاداتهم دون تعصب أو غلو، وكثيراً ما كان يقول: لا قدسية إلا لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، متمثلاً قول الإمام مالك رضي الله عنه: كل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام - قاصداً بذلك قبر رسول الله ﷺ - . وعلمني ألا أكون جامداً في تفكيري فهو كثيراً ما كان يعيب على بعض المتفقهة الجاهلين وأنهم سبب من أسباب تخلف هذه الأمة، كل ذلك كان سبباً في دفعي قدماً في ميادين العلم وترشيد سلوكي وتفكيري بالنسبة للعلم^(١).

٢ - ربط الأحكام الشرعية بالحكمة منها وإظهار ثمراتها الأخلاقية، وكأني بالشيخ - حفظه الله - وهو المربي الخبير يريد الجمع بين الشريعة والحقيقة، فليس الغرض عنده بيان الحكم الشرعي فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى جعله تزكية وسلوكاً، وترقية وسمواً روحياً، وهذا ما درج عليه الغزالي في إحيائه وغيره من العلماء الذين أبرزوا مقاصد الشريعة.

وقد اتخذ الشيخ هذا المسلك منهجاً له، إذ غلب على كتابه الفقه المبسط^(٢) بيان الغايات السامية والمقاصد الحميدة من الأحكام الفقهية المتعلقة بالطهارة، والصلاة، والصيام، والاعتكاف.. إلى آخر ما تضمنه الكتاب، من ذلك قوله عن الحكمة من مشروعية الصلاة فقد قال بعد أن عرّفها لغة وشرعاً: «والحكمة من مشروعيّتها تمرين الإنسان على التذلل والخضوع بين يدي الله عز وجل، ومناجاته بالقراءة والذكر، واستعمال الجوارح في خدمته، وبعث حقيقة الذكر في نفس العبد، وقطع مادة الغفلة عنه وإشعاره بعظمة خالقه وبارئته»^(٣).

(١) الشيخ، ٣.

(٢) انظر مثلاً الصفحات الآتية من الكتاب المذكور ٣٥ - ٣٧ - ١٣٤ - ٣١٨ - ٣٤٥ - ٣٥٣، وانظر

كتاب الحج والعمرة ٢٧، وتنبية الفكر ٥١.

(٣) الفقه المبسط ١ / ١٤٣.

ومن ذلك بيانه في كتابه أحكام الأضحى والعقيقة سر التأذين في أذن المولود اليمنى، فبعد أن نص على أنه سنة قال: «وسر التأذين أن يكون أول ما يقرع سمعه كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له بشعار الإسلام عند دخول الدنيا، كما يلحق كلمة التوحيد عند خروجه منها...».

ثم أضاف وجهاً آخر لهذا التأذين قائلاً بعد أن انتهى من بيان الحكمة الأولى: «وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثره به وإن لم يشعر، مع ما في ذلك من فائدة أخرى وهي هروب الشيطان من كلمات الأذان.... وفيه معنى آخر وهو أن تكون دعوته إلى الله وإلى دينه الإسلام وإلى عبادته سابقة على دعوة الشيطان، كما كانت فطرة الله التي فطر الناس عليها سابقة على تغيير الشيطان لها ونقله عنها»^(١).

وفي كتابه قرّة عين رسول الله ﷺ تحدّث عن أقسام الطهارة، ثم عرّج مباشرة إلى الحديث عن الطهارة المعنوية فعرفها بقوله: «وهي طهارة الجوارح عن الجرائم والآثام، وطهارة القلب من أدناسه الباطنة كالحقد والكبر والرياء والعجب إلخ وطهارة السر عما سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم، والصديقين من الورّاث والتابعين»^(٢).

ثم راح يدلّل على كل نوع من هذه الطهارات بما تقرّ له العين، وينشرح له الفؤاد، وذكر بعد ذلك وسائل الطهارة الحسية، وأتبعها بوسائل الطهارة المعنوية ومقاصدها^(٣).

ومن ذلك حديثه عما يحرم على المرأة الحائض والنفساء، إذ بيّن الحكمة من ذلك

(١) الأضحى والعقيقة ٨١ وانظر نحواً من ذلك ٩٤-١٢٥، وانظر إتحاف السائل ٣ / ١٥٨.

(٢) انظر قرّة عين رسول الله ﷺ ٩٠.

(٣) قرّة عين رسول الله ﷺ ٩٠-٩١-٩٢-٩٣ وانظر ١٣٨.

بحديث ممتع مفيد قال: «ويحرم بالحيض والنفاس: الصلاة والصوم وقراءة القرآن ومس المصحف وحمله إلا لعذر ودخول المسجد والطواف والوطء والاستمتاع بها بين السرة والركبة على قول»^(١).

ثم أفاض ببيان الحكمة من كل واحد مما ذكر فقال: «هذا وقد حرم الله سبحانه هذه الأشياء على المرأة لحكمة ظاهرة فالصلاة وقوف بين يدي الله تعالى، ومناجاة له، والحائض والنفساء ملوثتان بالدم النازل عليهما، وكما لا يجمل بالإنسان أن يقابل أحد العظماء في الدنيا وهو في ثياب قدرة متلطيخة بالنجاسة، فإن الله أولى بأن تتأدب في حقه لأنه أعظم من كل عظيم. والكعبة التي هي أقدس مكان عند الله تعالى: خليفة بأن نحترمها ونعظمها، فمنع من الطواف بها نساءنا إذا كنَّ في هذه الحال.

وهل تدري لماذا حرم الله عليهما مس المصحف وحمله؟ إنه لمراعاة حرمة هذا الكتاب الكريم الذي له المنزلة العالية، والدرجة الرفيعة، والذي هو أهم مصادر التشريع الإسلامي. وهل تعلم الحكمة من تحريم الصيام عليهما؟ إن نزول الدم يحدث من الجهد عندهما والمشقة العظيمة ما يضعف صحتهم، ويورثهما التعب والآلام، وفي الصوم مشقة ظاهرة فاقتضت رحمة الله ألا يجمع عليهما بين مشقتين: مشقة الصوم، ومشقة الدم، فتقضي الصوم لعدم تكرره دون الصلاة لتكرارها.

أما حرمة الاستمتاع بها ووطئها في هذه الحالة فقد أثبت الطب ما في ذلك من الضرر العظيم الذي يلحق بالرجل والمرأة جميعاً على حد سواء، ولهذا ونحوه من المصالح حرّمه الله تعالى»^(٢).

(١) قرّة عين رسول الله ﷺ ١٠٨.

(٢) قرّة عين رسول الله ﷺ ١٠٩.

ومن ذلك ذكره الحكمة من صلاة الاستسقاء قال بعد أن تحدث عنها: «والحكمة منها الالتجاء إلى الله تعالى في كشف الضر، وتبديل العسر باليسر، والاعتراف بأنه وحده القادر على ذلك، وفيها من الحكمة التوبة ورد المظالم إلى أهلها»^(١).

ويندرج تحت هذا أنه يحرص كثيراً على الحث على العبادة بعد حديثه الفقهي، فبعد أن انتهى من الحديث عن الوتر ووقته، أردفه بالحديث عن قيام الليل فأورد عدداً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال التابعين، ثم انبرى حاثاً المسلمين على صلاة القيام والتهجد بأسلوب أدبي عال فقال: «يا أخي المسلم، أتدري كيف مرّ على العباد الليل؟ ألك علم بما جرى للقوم يا أسير الغفلة والنوم؟

قم وانتبه أيها الغافل ولا تدع قيام الليل، فإنه رَوْحٌ وريحان، ونضرة نعيم، وأنس وسرور، الحقُّ بأقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، واقتد بمن أنزل عليه ﴿إِنْ رَبُّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ وكن ممن مدحهم الحق جل وعلا ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ والزَّمْ أَقْوَامًا صَفَتْهُمْ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وحاول أن تكون ممن ﴿يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَقِيَامًا﴾^(٢).

ولم يكتف بذلك بل راح - وفقه الله - يذكر الأسباب الظاهرة والباطنة التي نص عليها الغزالي، تلك التي يتيسر بها قيام الليل^(٣).

٣ - نشدانه الحقيقة، ورغبته الوصول إلى الرأي الصحيح، مع حرصه على الأصول الشرعية المعتمدة، فقد ذكر مراراً: «أن الحكم الشرعي لا يؤخذ إلا من مصادره المعتمدة شرعاً،

(١) قرأه عين رسول الله ﷺ ٧٥.

(٢) الفقه المبسط ١ / ٢٠٦.

(٣) الفقه المبسط ١ / ٢٠٦.

كتاباً وسنة، وقياساً صحيحاً، وإجماعاً»^(١).

وقد ضمّن مسأله - دائماً - هذه المصادر المعتبرة خاصة في كتبه الفقهية، إذ تراه يورد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ويتبعها بالإجماع إن وجد، وبالقياس إن حصل، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً تظهر من أول نظرة في كتبه، منها ذكره الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع للدلالة على أن الربا حرام^(٢).

ومنها استدلاله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن تارك الصلاة كافر^(٣).

ولم يكتف الشيخ - حفظه الله - ببيان الدليل للحكم الشرعي على نحو ما ذكرنا، بل كان يستثمر هذه الأدلة أو بعضاً منها لرد رأي أو تقويته من ذلك ما ذكره حول وجه حرمة الأكل من المعينة بالجعل، فترى في مناقشته مدى تمكنه من هذه الأصول، واعتماده عليها للوصول إلى ما يريد قال: «والله ما أدري ما هو وجه حرمة الأكل من المعينة بالجعل؟ أما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلم يردّ فيها شيء يحرم الأكل من المعينة بالجعل لا صريحاً ولا تأويلاً، وكذلك لا يوجد إجماع سلف على حرمة الأكل منها، بل كلام الشافعي رحمه الله تعالى يدل على حل الأكل.

أما القياس فقد علمت أن الأضحية إذا أطلقت تنصرف إلى الأضحية المسنونة التي أباح الشارع الأكل منها، ولم يقل أحد بحرمة الأكل من أضحيته إلا إن كانت مندورة، وعلى خلاف في ذلك، وقد بيّن العلماء في علة حرمة الأكل أن المندورة خرجت من ملك الناذر إلى

(١) حكم الإسلام في النظر ٦١، وانظر تنبيه الفكر ٩٩، والفقه المبسط ٣ / ٥٦.

(٢) والفقه المبسط ٣ / ٦.

(٣) قرأه عين رسول الله ﷺ ١٩ - ٢١، وانظر المواضع الآتية لترى ما ذكرناه الفقه المبسط ٣ / ٣٨ - ٤٤ -

٦٦ - ١٠٢ و ٢ / ٨ - ٤٤ - ٧٤ - ٩٤ - ١٠٢ - ١٢٠ والأضحية والعقيقة ١١ - ٧٣ وإتحاف

السائل ١ / ٢١ - ٨٨ و ٣ / ١٣٥.

ملك الفقراء فهي مستحقة للفقراء ولا يجوز الأكل من مال الفقير^(١) ثم انتهى إلى القول: «وإذا انتفت علة حرمة الأكل وهي كون العين مملوكة للفقراء انتفى معها ما اقتضته تلك العلة وهي حرمة الأكل»^(٢).

وبعد ذلك وجه حديثه إلى من يعارض هذا الرأي بعد أن ضيق عليه المسالك باعتياده الأصول المعتبرة التي رأيناها فقال: «فليأت المعارض بنص من أي كتاب قبل كتب الشيخين (النووي والرافعي) ينقل أن واحداً ممن يُعتدّ بقوله وممن لا يعتد به قال بأن المعينة بالجعل يحرم الأكل منها، ولكن ليس ببعيد على مثل أفهام هؤلاء المعارضين لما لا يستطيعون الخوض فيه أن يردوا كلام السابقين بكلام اللاحقين كما زعموا وتصوروا في أذهانهم ولكن هيهات هيهات»^(٣).

فمما سبق ندرك مدى اهتمام الشيخ - رعاه الله - بهذه الأصول سواء حين يكون سردها للتعليم أو للترجيح أو للتضعيف على نحو ما رأينا في الأمثلة السابقة.

وهو - رعاه الله - حريص على هذه الثوابت الشرعية، فهي المانع الحصين أمام أنصاف المتعلمين الذين لم يتمكنوا - بعد - من فقهاها، وفهم مرامي الأقوال فيها، لذا نراه يؤكد على مراعاتها، والجمهور على الغالب اعتمدوا عليها، لذا فالسير مع الجمهور هو الأساس المعبر قال: «المؤمن الحق يدور في فلك الجمهور، ويعلم أن يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار، ولا يتبع أقوالاً شاذة، ولا يتصيد أباطيل وترهات ليثير من ورائها مفسد خطيرة»^(٤).

وأضاف قائلاً: «المؤمن الحق لا يحوم حول الحمى لأنه يعلم يقيناً أن من حام حول

(١) إتحاف السائل ١ / ٨٨.

(٢) إتحاف السائل ١ / ٨٨.

(٣) إتحاف السائل ١ / ٨٩.

(٤) الفقه المبسط ٢٩٦.

الحمى أوشك أن يرتفع فيه، ومن سلك مسلك الصالحين، وأخذ نفسه بمنهجهم ترك ما لا بأس به حذراً وخشية مما به بأس»^(١).

ولكن الشيخ مع دعوته العوام وأنصاف المتعلمين إلى الالتزام بآراء الجمهور كان يرى أن الفقيه الحق من ينظر إلى الأحكام نظرة عامة وشاملة بعين ظاهرة وعين باطنة، وينظر بالعين الظاهرة إلى الأحكام المتعلقة بالظاهر من حيث الهيكل والشكل، وينظر بعين باطنة من حيث الحكمة والمضمون والغاية، فالوقوف عند حرفية الألفاظ والمباني، والإعراض عن المقاصد والمعاني، خطأ كبير، وطمس لمعالم الحقيقة والبيان الذي أراده الله عز وجل لعباده أن يفهموه ويدركوه، ولذلك ينبغي للفقيه أن يكون ذا نظر كامل شامل وواسع حتى يستطيع بناء أمة، وإحياء تشريع، وبعث حضارة، وتكوين مجتمع فاضل يعرف مرامي هذه الحياة وكيف يتابع مسيرته فيها^(٢).

والشيخ - حفظه الله - تمكن من هذه الأصول، ورسخت قدمه فيها، ورأى أن المجتمع الحديث بحاجة إلى مرونة فقهية، والأصول الشرعية مرنة، فلم لا يتبع الدليل القوي الصحيح مادام فيه حل لمشكلة وقع فيها مسلم، لاسيما أن الشيخ عاصر أبناء بلده - حماة - بعد المعارك الدامية التي شهدتها البلدة عام ١٩٨٢م، وعاش معهم مشاكلهم الاجتماعية العسرة الصعبة، فلعل هذا الأمر دفعه إلى توسيع دائرة فتواه، فتراه مفتياً على المذاهب الأربعة حيناً، وأحياناً مخالفاً إياها، وفي أحيان أخرى تراه مؤيداً لرأي من أي مذهب مادام الدليل قوياً مكيناً.

والشيخ في كل ذلك على بُصر بما سلك، وخبر بما انتهج قال: «نعم قد تختلف الأنظار

(١) الفقه المبسط ٢٩٧.

(٢) قرأه عين رسول الله ﷺ ٨٧، ٨٨.

العلمية والمدارك الاجتهادية والتأويلية، ومتى كان الأمر كذلك، فلا مجال للتكفير أو التفسير أو التبديع، مادامت تلك الأنظار والمدارك لم تخرج عن أصول الشريعة وقواعدها، ولم تشذ عن مصادرها، ولم تخالف التأويلات المقبولة التي تستقيم مع أساليب اللغة العربية وقواعدها»^(١).

ويبين خطوات بحثه العلمي بقوله: «علينا أن نعتمد الروايات الصحيحة دون غيرها أولاً - مراده هنا الأحاديث النبوية الشريفة، أما الآيات القرآنية فهي الأساس الأول في بحثه العلمي - ونبحث الأمر من جميع جوانبه ثانياً، ونقابل الروايات بعضها ببعض ثالثاً، حتى نصل إلى قول صريح وحكم صحيح مبني على أسس البحث والعلم، وبهذا تستقيم الأمور ويتضح الحق»^(٢).

ويبين هذا المنهج أيضاً في موضع آخر مشيراً إلى كيفية تناول المسائل العلمية فقال: «فالفقه في أصل معناه اللغوي هو الفهم، والفهم هو ارتسام شيء في الذهن على وجهه الصحيح، فلا بد إذن من تصور المسألة أولاً ثم فهمها فهماً صحيحاً واقعياً مبنياً على أسس وقواعد العلم الذي هو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع ثانياً، وهكذا ينبغي أن تكون الدراسة العلمية مؤسسة على هذين المبدئين، فحينما أقرأ لا أضع عقلي أمامي لئلا أضل، ولا خلفي لئلا أكون جامداً ناقلاً وحاكياً، ولكنني أقرأ وعقلي معي أستنير به وأستهدي به»^(٣).

وهو لا يغيب عن باله قول من فترت همته إن الأوائل لم يتركوا شيئاً للأواخر فقد أجابه بقوله: «أنا لا أرضى لنفسي ما قاله كبيرهم: إن الأوائل قد طبخوا لنا وقدموا لنا الطبخ جاهزاً على طبق من ذهب فما علينا إلا الإقبال على طبخهم والأكل منه من غير سؤال لأن

(١) تنبيه الفكر ١٣٢.

(٢) إتحاف السائل ١ / ١١٢، وانظر مقدمة رسالته: اعدلوا بين أولادكم.

(٣) تطيب المرأة ١٥ - ١٦.

إمكاناتنا لا تستوعب ذلك.... لقد رضي لنفسه هذه الدرجة العلمية وهو حر، أنا لا يهمني الطبق إن كان من ذهب أو فضة أو نحاس وإنما يهمني ما في الطبق يهمني أن أعلم كيفية الطبخ ومكوناته ومقاديره والحرارة التي طبخ بها وهل الطبخ ناجح أو غير ناجح علي أن أعلم ذلك كله حتى أحصل على الملكة العلمية التي أستطيع بواسطتها الموازنة بين الأقوال وأيها أقرب إلى الدليل»^(١).

وقد تضافرت أقواله حول منهجه هذا فهو يشير إليه كلما سنحت له الفرصة موضحاً حقيقته ومبرزاً ثمرته. قال حين سئل عن خلو الحوانيت والمحال التجارية: «وبعد: فلا يضيق ذرعاً متمذهب بمذهب معين، أو متبن لفكرة مسبقة في ذهنه بما ذهب إليه غيره مخالفاً مذهبه أو فكرته المسبقة، ويضرب صفحاً عن حججهم ودلائلهم واستنباطاتهم ويعلن النكير عليهم..... وكل قول أو مذهب يحل مشكلة اجتماعية، بأن يجلب المنفعة للأمة، ويدفع عنها المضرة ويحقق لها مصالحها بانتظام أمرها وحفظ حقوقها وأموالها وجهودها من الضياع لا مانع من الأخذ به إذا استند إلى أصل من أصول الشريعة، والمشقة تجلب التيسير وما ضاق أمر إلا واتسع، ومن أراد حصر نفسه برأس الزاوية وإغماض عينيه عن مواجهة الواقع، ويملاً الدنيا صراخاً وإنكاراً على مخالفه فله ما أراد بعد أن يقدم الحل والبديل، ولكنه لا يملك إلزام الناس بما ألزم به نفسه، والله تعالى أعلى وأعلم»^(٢).

ويكاد هذا المنهج الذي ذكره الشيخ هنا هو الغالب على كل مؤلفاته - حفظه الله -.

وقريب من هذا ما ذكره أيضاً حين تحدث عن شروط عقد البيع قال: «إن الشريعة قد وضعت حلولاً لكل ما يستجد في هذه الحياة، وما يحدث فيها من مشكلات، وتراثنا الفقهي

(١) تطيب المرأة ١٦- ١٧.

(٢) إتحاف السائل ٢ / ١٢٦.

كفيل بذلك، واختلاف الأئمة رضوان الله عليهم شاهد على ذلك، كل ذلك من أجل رفع الحرج ودفع الضرر «وأضاف موضعاً حال المجتمعات الإسلامية اليوم، وحاجتها إلى توسيع دائرة الإفتاء لحل مشاكلها قال: «إننا أمام وقائع وأحداث ومستجدات لا نستطيع التهرب منها أو تجاهلها، أو إغماض العين عنها، ولا يليق أن نمر بها مرور الكرام، ولا نستطيع أيّ كان مَن ضاق أفق تفكيره، وتزمت عقله، وضاق صدره، أن يلزم الناس بمذهب معين التزمه، أو قول اعتمده فانتصر له، ويضيق ذرعاً بمذاهب وأقوال وحجج الآخرين، مهما كانت قوية، ومن أراد إلزام نفسه بما اقتنع به فلا حرج عليه، أما أن يعمم الحكم بما ألزم به نفسه، وينكر على الآخرين التزامهم بما وصلوا إليه بعد بحث ودأب وقناعة قائمة على صحة الدليل، فهذا مرفوض وغير مقبول في لغة العلم والبحث العلمي، علينا أن نعلم أن العبادة مبنية على الاحتياط، والخروج من مواطن الخلاف ما أمكن مطلوب ومرغوب، وأن المعاملات مبنية على التيسير ودفع الحرج، فأى مذهب يحل مشكلة اجتماعية، ويدفع الضرر عن الناس فليس هناك ما يمنع من الأخذ به متى صح النقل وقوي الدليل»^(١).

وبهذا الدرس العلمي الأصيل الداعي فيه إلى امتلاك الملكة العلمية، وأركان البحث العلمي الصحيح على نحو ما بيّن وشرح، انطلق - حفظه الله - مرعياً بعناية الله وتوفيقه ليناقد العلماء ويحاورهم في آرائهم وأدلتهم، ليخرج من ذلك برأي إما مؤيداً فيه غيره، أو مضعفاً، أو منفرداً، ولا يهمه حينئذ بعد رجحان الرأي عنده أن يأخذ به ولو خالف مذهبه، من ذلك أنه رجح رأي ابن القيم من الحنابلة وابن حجر من الشافعية - والشيخ كما نعلم شافعي - على آراء الفقهاء في طواف الحائض والنفساء، فبعد عرضه أقوال الفقهاء في المسألة قال: «هذه خلاصة ما جاء في طواف الحائض والنفساء في كتب الفقه، ولدى تأمل أقوال

(١) إتحاف السائل ١ / ٣٣ وانظر تأكيده على هذا المنهج في إتحاف السائل أيضاً ٣ / ٢٣ و ٢ / ١٥٤.

الشافعية والحنفية في شأن طوافهما نجد أنه من الصعوبة بمكان تحقيق ذلك»^(١).

ثم راح ذاكراً وجوه الصعوبة الحاصلة مرجحاً رأي ابن القيم - رحمه الله - من الحنابلة وابن حجر من الشافعية.

وانتهى إلى القول: «وكلام الفقهاء وفتاويهم في اشتراط الطهارة والوجوب إنما هو في حال القدرة والسعة، لا في حال الضرورة والعجز، فالحائض والنفساء إذا خشيتا الانقطاع أو عدم انتظار الرفقة ولم تطهر فإنها تطوفان بالبيت ولا شيء عليهما، لأنهما فعلتا ما استطاعتاه وهو قول ابن القيم من الحنابلة وابن حجر من الشافعية، فإن من قواعد الشرع الكلية أنه لا واجب مع عجز، ولا حرام مع ضرورة»^(٢).

وقد يسوقه الدليل إلى مخالفة المذاهب الأربعة، وذلك في مسألة تطيب المرأة وثمان علاجها، فبعد أن نص على أنه لا يجب على الزوج ذلك في المذاهب الأربعة، خالفهم وارتأى وجوب نفقة الدواء على الزوج كغيرها من النفقات، متبعاً في ذلك رأي ابن الحكم من فقهاء المالكية»^(٣).

وقد أشار تلميذه الفاضل مرهف سقا إلى هذه السمة التي تحل بها الشيخ في منهجه العلمي فقال: «إن من منهجه الفقهي اتباع الدليل الصحيح، ولا أقصد بهذا الكلام أن الشيخ حفظه الله كان لا مذهبياً، على العكس بل أقصد في هذا الكلام الكشف عن عقلية الشيخ العلمية، وكيف يقرأ الفقه ويدرسه، فالناظر في فتاويه، والجالس في مسامراته العلمية يرى هذا المنهج فيه جلياً، فمثلاً إذا نظرت إلى مسألة الشرط في العقد، وحكم شروط الجزاء التي

(١) إتحاف السائل ٣ / ٢٣.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ٢٣ - ٢٤، وانظر مخالفته لمتأخري الشافعية في الأضحية إذا تعينت ٤٢ - ٤٥ - ٥٤.

(٣) إتحاف السائل ١ / ١٠٣ وانظر رسالته تطيب المرأة.

تكون في عقود المفاولين، وتجار العقارات خاصة، تجد أن الشيخ يحفظه الله يرجح قول المالكية في صحة هذا الشرط مخالفاً مذهبه الشافعي، وذلك لسبيين رئيسين هما: أن الدليل يؤيده حديث جابر عندما باع بغيره للنبي ﷺ، والثاني: أن هذا الشرط يحقق مصلحة الناس خاصة في زمن فسدت فيه الذمم، بل كان يقول: «الناس مع شرط الجزاء لا تنضب فكيف بعدهم» ذلك لأن كثيراً من التجار إذا أتاهم من يدفع في البيت أو الأرض أكثر مما باعه يقلب على البيع، ويبيع لمن يدفع أكثر.

وإذا كانت المسألة المبحوثة اجتهادية لا دليل عليها فإنك تجده يبحث فيها بحثاً اجتهادياً يظهر عقله وسعة مدركه، فمن ذلك تقدير كفارة اليمين والفطر في رمضان فكان يقول: «لا يوجد نص عن رسول الله ﷺ، وإنما هي اجتهادات، ولكن الله تعالى يقول: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ وهل حفنة من قمح تكفي لإطعام مسكين». والحقيقة فإن الأمثلة في ذلك كثيرة وكتاب إتحاف السائل شاهد واضح لمنهجية شيخنا الفقهية^(١)، وقد أكد على ذلك المنهج الأخ عماد زغرات بقوله: «فهو حفظه الله تعالى مطلع اطلعا واسعا على المذاهب الفقهية الأربعة، ينتقي منها في فتاواه ما يتناسب مع حاجات الناس في هذا العصر، فهو مع كونه شافعي المذهب إلا أنه يسير مع الدليل فتراه إذا عرضت عليه مسألة مستجدة يستجمع أقوال العلماء فيها ويناقشها مناقشة علمية، وله آراء فقهية خاصة به نابعة عن فهم صحيح للدليل، تجد ذلك جلياً في كتبه، فهي مليئة بالأحكام الشرعية التي بنيت على فهم صحيح الدليل ورؤيا ثابتة لحال الأمة، وما استجد فيها من أحوال تحتاج لقياس صحيح على الأصول الشرعية المقررة في الشريعة الغراء، وكثيراً ما كان يقول لي: لو أن الأئمة رحمهم الله تعالى كانوا في عصرنا هذا لتغيرت نظرتهم الفقهية ولتغير كثير من الأحكام الفقهية وذلك بناء

(١) الأستاذ الشيخ كما عرفته ٧-٨.

على تغير العرف والاستقراء وغير ذلك»^(١).

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن هذا المنهج الذي سلكه الشيخ في بحثه العلمي لم يقتصر على المسائل الفقهية بل نراه في جميع بحوثه العلمية، فهاهو يستنكر على بعض المتصوفة تقديسهم لشييوخهم جهلاً منهم، من ذلك قوله في بعضهم: «إن المشكلة التي يعاني منها المصلحون تتمثل في تمسك كثير من المريدين بأقوال شييوخهم، وانتصارهم لها سواء كانت حقاً أم باطلاً، وسواء خالفت صريح الكتاب والسنة وجمهور العلماء أم لا، من غير وقوف على دليل سليم، ومنطق مستقيم، فكانوا كالبيغاوات يرددون ما يسمعون، ومن قيل لهم فقالوا، وكفروا بعقولهم، والنقل الصحيح، وسلموا لذوق فلان، ووجد فلان، وحال فلان، وفعل فلان»^(٢).

لكن الشيخ - حفظه الله - يعد من أئمة الصوفية، ومن مشاهيرهم كما ذكرنا في سيرته، ومع ذلك لم يرض بصنيع هذا الفريق منهم، ولا يهمه إلا بيان الحق، إذ هو الغاية السامية عنده، وهو الأصل المعتبر لديه، لذا نراه بعد أن استنكر، راح ينصف غيرهم ممن استنكر على المتصوفة عموماً قال: «والمنكرون على التصوف إنما أنكروا الدجل الذي دخل عليه، والشبهات والخرافات التي تسلت إليه، وإنكارهم هذا المقصود منه نصره الشرع لا إنكار أصله، وقد تحون المنكر العبارة، ويجانبه التوفيق في اتباع الحكمة، ويخونه الأسلوب العلمي المبني على الحقائق فيقسو في إنكاره، ولا أظن مسلماً مَهْماً قسا في تعبيره، أو انحرف في أسلوبه يكون قصده إنكار الكتاب والسنة»^(٣).

هذا هو الشيخ الفقيه الذي غرس منهجاً للبحث الفقهي، يدرك فائدته ونفعه العلماء

(١) الشيخ، ٣ بتصرف.

(٢) تنبيه الفكر ٨٣ وانظر أقواله عن الصوفية الجهلة في الصفحة ١٧٥ من هذا الكتاب.

(٣) تنبيه الفكر ١٣٢.

العاملون المخلصون الذين ملكوا أدوات البحث العلمي، وارتقوا قممه، وينكره من ضاق فكره، وقلّ زاده، فلم يوفقه الله إلى نفع عباده، فظل حبيس جهله، وضلالات عقله.

اللهم فقهنا في الدين، وعلمنا التأويل، وافتح مغاليق القلوب والعقول، يا رب العالمين.

٤ - عنايته بالشواهد القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، واستئناسه بالأقوال والقصص والأشعار، وعلوم العربية:

ذكرنا من قبل أن الشيخ - رعاه الله - رام الوصول إلى الرأي الراجح في تناوله لمسائل الفقه وغيرها، واعتمد في ذلك على الكتاب والسنة والإجماع والقياس والعرف، أي على مصادر التشريع الأساسية، وسردنا عدداً من الأمثلة الدالة على ذلك.

والحق أن اعتماد الشيخ على الكتاب والسنة لم يقتصر على هذا الجانب فقط، بل نراه في كتبه كلها يعتمد عليها كثيراً لأغراض أخرى، وأهداف متعددة، ولا ننسى أنه - وفقه الله - حافظ لكتاب الله، لذا لا نعجب من كثرة سرده للشواهد القرآنية، كلما لزم الأمر، فتارة يأتي بالآية لبيان معنى لغوي يفيد منه في مسائله الفقهية، من ذلك استدلاله بقوله تعالى: ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهم إنه هو السميع العليم﴾ لبيان أن الصرف من معانيه الرد والدفع. وبقوله تعالى: ﴿صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ لبيان أن الصرف من معانيه النقل والتحويل أيضاً^(١). ونحو ذلك كثير جداً.

وتارة يأتي بالآيات القرآنية للترغيب والترهيب، ففي حديثه مثلاً عن الصلاة ذكر أن الشارع اهتم بها اهتماماً كبيراً، فذكرت في القرآن الكريم في تسعة وتسعين موضعاً، ثم راح يذكر كل موضع ذكرته فيه مع ما قرنت به، قال: «والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أن الله

(١) الفقه المبسط ٣ / ٣٨ .

تعالى يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾، وتارة يقرنها بالزكاة ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ إلخ ثم سرد آيات كثيرة تتصل بكيفية السفر والحرب والأمن، وأن الرسل أوصوا أممهم بالقيام بها^(١).

وسوقه للآيات القرآنية ترغيباً وترهيباً لا تكاد صفحة من صفحات كتبه تخلو منها^(٢).

وفي أحيان كثيرة جداً يأتي بالآية الكريمة على أنها دليل شرعي الغاية منها إقرار الحكم الشرعي^(٣).

ومن أمثلة ذلك أنه بعد أن عرّف الفقه قال: «وكان اسم الفقه يطلق في العصر الأول على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، والعلم بحقارة الدنيا يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾^(٤).

والشيخ - أدامه الله - على دراية بعلوم القرآن، والقراءات، ففي حديثه عن حكمة نزول القرآن على الأحرف السبعة تلمس مدى تمكنه من ذلك، قال بعد أن بيّن المراد من الأحرف السبعة: «والحكمة في نزول القرآن على الأحرف السبعة هو التيسير على الأمة الإسلامية كلها خصوصاً الأمة العربية التي شوفهت بالقرآن، فإنها كانت قبائل كثيرة، وكان

(١) قرّة عين رسول الله ﷺ ١٥ - ٤١.

(٢) انظر للاستئناس الفقه المبسط ١ / ١٦ - ٢٠٥ و ٢ / ٦ و صون الإيمان ١٤ - ١٥ وحكم الإسلام في النظر ١٧٧ وإتحاف السائل ٣ / ١٨٣.

(٣) ذكرنا أمثلة لذلك أيضاً تحت رقم ٣: من خصائص منهجه، وانظر رسالة: اعدلوا بين أولادكم.

(٤) قرّة عين رسول الله ﷺ ٨٧ وانظر الفقه المبسط ٢ / ٦ - ٥٥ و ٣ / ١٠ - ١١٢ وإتحاف السائل ٣ / ١٣٥.

بينها اختلاف في اللهجات ونبرات الأصوات، وطريقة الأداء، وشهرة بعض الألفاظ في بعض المدلولات على رغم أنها كانت تجمعها العروبة، ويوحد بينها اللسان العربي العام، فلو أخذت كلها بقراءة القرآن على حرف واحد لشق ذلك عليها كما يشق على السوري أن يتكلم بلهجة المصري، أو الدمشقي أن يتكلم بلهجة الحموي أو الحلبي، وإن جمع بينهم اللسان العربي»^(١).

وبدهي أن الاعتماد على الشواهد القرآنية قد يتبعه كلام المفسرين حولها، فترى الشيخ أكثر من نقولهم لإيضاح المراد من الشاهد القرآني، ليكون استخلاصه النتيجة قائماً على استقراء كامل حول الآية الكريمة.

ففي كتابه تنبيه الفكر مثلاً أورد آراء المفسرين (الفخر الرازي والقرطبي وابن جرير الطبري والنسفي والشربيني وابن القيم والمراغي) ليرد على من قال إن كلمة - آه - مشتقة من لفظ الجلالة الله، فردّ عليهم: «إن هذا قول المشركين إن أسماء أصنامهم مشتقة من أسماء الله عز وجل، ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ وانتهى من أقوال المفسرين الذين ذكرناهم حول هذه الآية إلى القول: «نعلم مما تقدم من أقوال المفسرين أن الإلحاد في أسمائه تعالى هو الاشتقاق منها، أو نسبة ما ليس منها إليها، أو أن يزداد عليها، وينقص منها لأن أسمائه تعالى توقيفية»^(٢).

* - أما الحديث النبوي وهو المصدر الثاني من مصادر التشريع، فقد ساقه الشيخ - حفظه الله - لعدد من الأغراض أيضاً، فحيناً يشرح بعض ألفاظه كشرحه للفظ (يؤدم) الواردة في قوله ﷺ للمغيرة بن شعبة حين خطب امرأة [انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم

(١) تنبيه الفكر ١٠٤.

(٢) تنبيه الفكر ١٠٢-١٠٢ وانظر إتحاف السائل ١ / ٦٠ وحكم الإسلام في النظر ٣٢-٣٥-١٣٣.

بينكما] المودة والألفة، قال الشيخ بعد أن خرّجه: «ومعنى يؤدم: يدوم فقدّم الواو على الدال، وقيل: من الإدام، مأخوذة من الأدم وهو آدم الطعام، لأنه يطيب به، حكى الأول الماوردي عن المحدثين، والثاني عن أهل اللغة»^(١).

والغاية من ذلك هو الوصول إلى المراد منه بدقة، وقد قام - حفظه الله ورعاه - بشرح عدد من الأحاديث شرحاً لغوياً مطوّلاً لشهرتها ونفاستها، من ذلك شرحه لحديث أم زرع الذي استغرق ثماني صفحات^(٢).

وإذا لزم الأمر بيان مرتبة الحديث وتخريجه ترى أن الشيخ من علماء الحديث، ففي رده على سؤال: هل يجوز صوم التطوع بعد النصف من شعبان؟ أورد رأي الجمهور بأنه يجوز الصوم تطوعاً وساق دليلهم وهو قوله ﷺ: [لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين إلا رجل كان يصوم صوماً فليصمه] وعلق على رأي المانعين المستدلين بقوله ﷺ: [إذا انتصف شعبان فلا صيام] قائلاً: لكن الحديث تكلم فيه من هو جليل العلم والقدر كابن مهدي وأبي زرعة الرازي والأثرم، قال الإمام أحمد وابن معين إنه منكر، قال الإمام أحمد: ويرده حديث [لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين]. إذ مفهومه جواز التقدم بأكثر منها، وأشار الأثرم إلى أن صومه ﷺ شعبان كله يخالفه، أي فهو شاذ، وذهب الطحاوي إلى نسخه، وحكى الإجماع على ترك العمل به^(٣).

ومن ذلك تعليقه على حديث وضع الجوائح وهو [أن الرسول ﷺ أمر بوضع الجوائح] قال: «قلت: الحديث ثابت رواه الأئمة منهم أحمد بن حنبل ويحيى بن معين

(١) إتحاف السائل ٣ / ٢٢١.

(٢) إتحاف السائل ٢ / ١٥٤.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ٥٨ وانظر: اعدلوا بين أولادكم.

وعلي بن حرب وغيرهم عن ابن عيينة عن حميد الأعرج عن سليمان بن عتيق عن جابر رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه، وابن ماجه وغيرهم، فيكون بذلك مذهب الشافعي مطلقاً أيضاً وضع الجوائح»^(١).

وفي كثير من الأحيان يسوق الشيخ الحديث لبيان رأيه وتأكيد فكرته، وردّه على معانديه، من ذلك ذكره لقوله ﷺ: [أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله] وقوله: [لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله] فقد علق بعد ذلك بما يفيد مدى تمكن الشيخ - رعاه الله - من علم الحديث قال: «هكذا ينطق رسول الله ﷺ كلمة التوحيد، ولفظ الجلالة نطقاً واضحاً، لا عوج فيه ولا أمتاً ولا زيادة ولا نقصاناً، ولا خلط ولا خبط، ومعلوم عند علماء الحديث ومتتبعي الأسانيد والروايات أنه إذا ورد حديث ما وآخر بخلاف الأول سواء كان بزيادة بعض الكلمات أو بعض الحروف أو نقصانها، فإنهم يجعلون لكل لفظ رواية «ثم راح يسرد أمثلة على ذلك ليخرج بنتيجة مؤداها أن الذكر بـ لا إله إلا الله أو الله، هو من السنة أيضاً، فوجب بمقتضى ذلك الحفاظ على اللفظ الوارد دون تحريف أو تشويه»^(٢).

ولا ننسى أن الشيخ له أجوبة كثيرة تتعلق بمراتب الحديث من حيث القوة والضعف منها حديث [أنا مدينة العلم وعلي بابها]^(٣). بل إنه عقد إجابة خاصة موسعة حول الحديث المرسل^(٤) والاحتجاج بالأحاديث الضعيفة^(٥) والعمل بها^(٦).

(١) الفقه المبسط ٢ / ٨٤.

(٢) تنبيه الفكر ٦٤ وانظر ٤٥-٥٩-١٢١ وإتحاف السائل ٢ / ٥٦-١٠٥ و ٣ / ١٢٥.

(٣) إتحاف السائل ١ / ١١٦ وما بعدها، وانظر ٢٠٥-٢١٧.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ١٢٥ وانظر أيضاً ١٣٠-١٤٧-١٤٨-١٧٨-٢٢٠-٢٤٩.

(٥) إتحاف السائل ١ / ١٢٣.

(٦) إتحاف السائل ٢ / ٤٦.

وأحياناً يسوق الحديث ليصحح فهمه عند الناس، من ذلك حديث الرسول ﷺ [أنت ومالك لأبيك]^(١).

أما استدلاله بالأحاديث النبوية الشريفة لبيان حكم فقهي، وجعل الحديث عماده وأصلاً من الأصول فذلك كثير جداً تلحظه من اطلاعك على كتبه الفقهية خاصة، من ذلك سوقه الأدلة الدالة على جواز البيع، قال: «وجواز البيع مما تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة:

أ - من الكتاب قوله تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾.

ب - من السنة: قوله عليه الصلاة والسلام: [اليِّعان بالخيار] رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد، وقال ﷺ: [إنما البيع عن تراض] رواه ابن ماجه وابن حبان والبيهقي.

ج - الإجماع منعقد على جوازه^(٢).

ومن ذلك أيضاً قوله في ثبوت فرضية السعي قال: «وثبتت فرضية السعي أيضاً بفعله ﷺ وبقوله وهو يسعى [اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي]، وأورد أيضاً رواية أخرى عن الدارقطني وغيره وذكر أن إسنادها حسن وهي قوله ﷺ: [أيها الناس اسعوا فإن السعي قد كتب عليكم] ثم شرح معنى لفظة كتب بقوله إنها بمعنى الفرض^(٣).

ومن المفيد أن نذكر أن استدلاله بالأحاديث النبوية تأتي في الغالب بعد استدلاله

(١) إتحاف السائل ٢ / ٢١٠.

(٢) الفقه المبسط ٢ / ٨ وانظر الأضحى والعقيقة ٣١.

(٣) الحج والعمرة ٩١ وانظر مثل ذلك في ٩٨ وانظر الفقه المبسط ٢ / ٨ - ٢٤ - ٤٤ - ٥٧ - ٦٦ - ١٠٢ و

٣ / ١٦ - ١٩ - ٨٣ - ١١٣ وإتحاف السائل ٢ / ١٠١ وحكم الإسلام في النظر ٩٧ - ١١٩ والأضحى والعقيقة ٣١ - ١١٠.

بالقرآن الكريم، من ذلك أنه حين أجاب عن سؤال: هل الإصابة بالعين حقيقة ثابتة؟ أورد أنها ثابتة نص عليها الكتاب والسنة ودل عليها الواقع المشاهد، ثم ساق دليل الكتاب وهو قوله تعالى حكاية عن سيدنا يعقوب حينما خاطب أولاده: ﴿يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال القرطبي...: وإنما خاف عليهم العين، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم، ونحوه قال ابن كثير، ثم ساق الدليل من السنة وهو الحديث النبوي الشريف الذي رواه مسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين] ثم أورد أحاديث أخرى بروايات أخرى^(١).

وهو في أحكامه على الأحاديث يستعين بأقوال المحدثين ليصل إلى ما يريد، ففي رده على أصحاب الذكر غير الشرعي المستدلين بالحديث الشريف الذي فيه أن الرسول ﷺ قال لعلي: [أنت مني وأنا منك] فحجل علي، وقال لزيد: [أنت أخونا ومولانا] فحجل كذلك، كذلك حجل جعفر لما وصى له بابنة حمزة حين خاصمه فيها علي وزيد، قال الشيخ: «قلت: أما الاستدلال على الرقص برقص جعفر.. فقد رد هذا الاستدلال نفسه - أي ابن حجر - في كتابه كف الرعاع، وعلى عادته - حفظه الله - راح يؤصل المسألة فقال: «وأذكر الحديث بتمامه ليعرف، فخرّجه ثم نقل قول ابن حجر نفسه ونصه: قال ابن حجر رحمه الله هذه كلها أحاديث منكورة، وألفاظ موضوعة مزورة، ولو سلمت صحتها لم تتحقق حجتها، أي لأن المحرم الرقص الذي فيه تشن وتكسر، وهذا ليس كذلك»^(٢).

ومثل ذلك كثير في كتبه، ونرى غزارة في سرد الأحاديث في كتبه الوعظية كصون

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٤٩، وانظر: اعدلوا بين أولادكم.

(٢) تنبيه الفكر ١١٣ - ١١٤ وانظر ١١٦ - ١٢١، وانظر: اعدلوا بين أولادكم.

الإيمان من عثرات اللسان، فقد أورد ستة أحاديث شريفة للتحذير من اللعن^(١).

وكثيراً ما أنهى بعض كتبه بذكره عدداً من الأحاديث المختارة ذات الأهداف التربوية كإتحاف السائل بأجزائه الثلاثة، وتنبيه الفكر وقرة عين رسول ﷺ، واعدلوا بين أولادكم.

أخيراً ما أجمل وقفات الشيخ أمام بعض الأحاديث التربوية وشرحه لها شرحاً يفيض بالإرشاد والنصح ويدل على عمق الفكرة، ودقة المعنى، ورهافة الحس، وجمال التعبير مثال ذلك شرحه لحديث رسول الله ﷺ: [هذا خيرٌ من ملء الأرضِ مثل هذا] فقد شرحه تحت عنوان ميزان الرجال فليرجع إليه من شاء^(٢).

* - ولا يسعنا أن نترك الحديث عن حرصه على الأصول الشرعية، وعنايته بسرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على ما يريده، من غير أن نعرج على اعتماده على علوم العربية، التي هي من علوم الآلة، لتأييد موقفه، وتوضيح فكره، وإبراز براهينه.

وجدير بنا أن نذكر ابتداءً استثمار الشيخ - أيده الله - لعلوم العربية في مناقشاته ومسائله، فهو كما ذكرنا من قبل على قدم راسخة في النحو والصرف وعلوم البلاغة، وقد درس عدداً من الكتب المتعلقة بذلك، فلا غرو أن نجده لغوياً نحوياً، إن لزم الأمر.

* - فتراه في اللغة ظاهراً حين تحدث عن الفعل يقنت وتقنت، والفرق بينهما^(٣)، وحين ذكر أنواع النظر في اللغة^(٤) ومعاني الهدى^(٥) والأمة^(٦)، وحين عرض للمعاني اللغوية

(١) صون الإيمان، ٧٢.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٨٥.

(٣) إتحاف السائل ٢ / ٢٠٦.

(٤) إتحاف السائل ٢ / ٢٢٦.

(٥) إتحاف السائل ٣ / ٤٨.

(٦) إتحاف السائل ٣ / ٢٤٨.

لحرف الجر «من»^(١) وتآلق مع اللغويين الكبار حين شرح حديث أم زرع^(٢) المشهور، وحين عرض للفرق بين الأحد والواحد^(٣) وكذا حين شرح مفردات بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة^(٤).

* - أما البلاغة فهو يرتكن إليها أيضاً حين يرد على معانديه، فتراه راسخاً فيها عالماً بفنونها، ففي حديث نزول ربنا إلى سماء الدنيا، تحدث عن الاستعارة والمجاز^(٥) وفي تحقيقه لعبارة هذه أضحية وما يبنني عليها تحدث عن الخبر والإنشاء^(٦).

* - وانتشرت دقائق النحو في عدد من مناقشاته، ترى ذلك حين تحدث عن «أل» الداخلة على الجمع هل تكون من صيغ العموم وتعم جميع الأفراد؟ انظر إليه كيف استثمرها ليؤيد رأياً ارتضاه^(٧) ومثل ذلك حين تحدث عن (أنى) واستعمالاتها النحوية، وكذا الفرق الدقيق بين لا ولن^(٨).

* - وتعمقه في النحو جعله على رأي ظاهر أمام بعض الذين ذهبوا إلى أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا ما ظهر منها﴾ يفيد ما ظهر منها على إطلاقه يشمل حالة الاختيار والضرورة، لكن الشيخ - حفظه الله - أورد عدداً من أقوال المفسرين تفيد غير ما ذهب إليه

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٢٥.

(٢) إتحاف السائل ٢ / ١٥٤.

(٣) إتحاف السائل ١ / ١٤٧.

(٤) إتحاف السائل ١ / ١١ و ٢ / ٨٤ - ٨٥ - ١٦٠ و ٣ / ٢٢١ والأضحية والعقيقة ١١١ - ١١٤

وحكم الإسلام في النظر ٤٠ - ٤١ ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٧ وتنبيه الفكر ٢٠٠.

(٥) إتحاف السائل ١ / ٩٠.

(٦) إتحاف السائل ١ / ١٢٢ وانظر الأضحية والعقيقة ٤٧.

(٧) إتحاف السائل ١ / ٨٦ وانظر مثل هذا في تنبيه الفكر ٤٣.

(٨) إتحاف السائل ٢ / ١٣٦.

هذا الفريق، وأكد على أن المراد من هذا الاستثناء هو جواز ظهور ما كان ظاهراً لا يمكن إخفاؤه، أو هو بدون قصد الإظهار لهذه الزينة، وهذه الجملة كما يقول - حفظه الله - تدل على أن النساء لا يجوز لهن أن يتعمدن إظهار هذه الزينة، غير أن ما ظهر منها بدون قصد كأن يخف الجلباب لهبوب ريح وتكشف بعض الزينة مثلاً أو ما كان ظاهراً بنفسه كالرداء الجميل بحيث لا يمكن إخفاؤه.. فلا حرج عليها فيه ولا مؤاخذه عليه من الله، لأن هذا لا يمكن إخفاؤه، وراح يتحدى هؤلاء بقوله «ونحن نكاد نعجز عن أن نفهم بأي قاعدة من قواعد اللغة العربية يجوز أن يكون معنى ما ظهر، ما يظهره الإنسان باختياره وإرادته، فإن الفرق بين أن يظهر الشيء بنفسه من غير فعل ولا إرادة وأن يظهره الإنسان بقصده واضح لا يكاد يخفى على أحد^(١).

* - والشيخ محب للعربية منافع عنها قال «اعلم أن اللغة العربية هي سيدة اللغات وأفصحها، وأصدقها لهجة وأقواها أسلوباً وتعبيراً ومنطقاً، وأسلسها بياناً، ولذلك نزل القرآن الكريم بها، وكان رسول الله ﷺ أفصح العرب والعجم^(٢).

ولهذه الخصائص أكد - حفظه الله - على أهمية دراسة العربية بفروعها المختلفة حين قال عبارته التقريرية الواضحة: «إن فهم الأحكام إنما يعود إلى التمكن من أساليب اللغة العربية في التعبير والبيان^(٣).

* - وأخيراً وقفت على براعة للشيخ طريفة حين استثمار النحو في استهزائه من المخنثين، إذ سمى جمعه جمع المخنث الوقح قال: «فالمخنث هو الذي جمع صفات الذكورة

(١) انظر حكم الإسلام في النظر ٣٦ - ٣٧.

(٢) تنبيه الفكر ١١١.

(٣) إتحاف السائل ١ / ٨٩.

والأنوثة، فجمع المذكر السالم علامته الواو والنون أو الياء والنون في آخره، والمؤنث السالم علامته الألف والتاء في آخره، فإذا جمعنا العلامتين الواو والنون أو الياء والنون مع الألف والتاء نكون قد حصلنا على جمع المخنث الوقح المعني بقولنا: هل يقوى «المجدداتون، والمجددونات، والتقدمياتون، والتقدميونات، والراقصاتون، والراقصونات، والمغنياتون، والمغنيونات» من جمع المخنث الوقح على الكفاح والنضال؟! إننا بحاجة إلى مخترعين ومخترعات، ومنتجين ومنتجات، وأخلاقين وأخلاقيات قبل الحاجة إلى متهتكين ومتهتكات، وراقصين وراقصات لأجل أن نأخذ طريقنا إلى النصر في معركة الثأر^(١).

فلله در الشيخ على هذا الأسلوب السامق فقد ضمنه المعاني السامية، ومأله بالوصايا العالية، وسخر ملكاته وأدواته لينفر المسلمين من ذاك التيار الماجن، والسراب الخادع - بلغه الله مناه ووفقه -.

٥ - استئناسه بالأقوال والقصص والأشعار لتوضيح آرائه وتأكيده مذهب وتوجيهاته، فبعد أن اعتمد على الأصول الشرعية المعتبرة عند العلماء في درسه العلمي للقضايا التي تناولها في كتبه، عرّج - حفظه الله - إلى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين، والعلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء والوعاظ، سواء أكانوا قدماء أم محدثين، وذلك ليكمل استقراءه للمسألة من جهة، وليعم النفع من جهة ثانية، ففي كتبه الفقهية يلحظ القارئ ابتداء مدى اعتماد الشيخ على أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وفقهاء المذاهب الأربعة، ويظهر ذلك جلياً في الكتب التي ألفها ابتداء على المذاهب الأربعة كالحج والعمرة، وأحكام الأضحية والعقيقة، واعدلوا بين أولادكم، أما نقله وسوقه أقوال العلماء في الميادين الأخرى فتراها مبثوثة في حنايا موضوعاته، يدعم بها آراءه أو يوضحها، من ذلك قول عبد الله بن مسعود

(١) حكم الإسلام في النظر ١٤١.

[نعم ساعة الغفلة يعني الصلاة فيما بين المغرب والعشاء] رواه الطبراني في الكبير^(١).

ومن ذلك قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي ذكره جاد المولى في كتابه (محمد المثل الكامل) يقول ابن عباس رضي الله عنهما: شرع غسل الكفين للأكل من موائد الجنة، والمضمضة لكلام رب العالمين، والاستنشاق لروائح الجنة، وغسل الوجه للنظر إلى وجه الله الكريم، وغسل اليدين إلى المرفقين للسوار، ومسح الرأس للتاج والإكليل، ومسح الأذنين لسماع رب العالمين، وغسل الرجلين للمشي إلى الجنة^(٢).

ومنه قول عائشة رضي الله عنها الذي ساقه حين تحدث عن تكفين الميت قال: «ولا يكون فيها - أي في الكفن - قميص ولا عمامة بل إزار ولفافتان» ثم قال مستدلاً على ذلك بقول عائشة: «عن عائشة رضي الله عنها قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية - نسبة إلى قرية باليمن - من كرسف - قطن - ليس فيها قميص ولا عمامة» رواه البخاري ومسلم^(٣).

ومن أقوال ابن القيم: فمن تدبر مصادر التشريع وموارده تبين له أن الشارع ألغى الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها معانيها، وقال: «الألفاظ لا تراد لعينها، بل للدلالة على المعاني، فإذا ظهرت المعاني والمقاصد فلا عبرة بالألفاظ لأنها وسائل، وقد تحققت غاياتها فترتب عليها أحكامها»^(٤).

ومن نقوله من أقوال المحدثين ما نقله عن الدكتور يوسف القرضاوي من كتابه فقه

(١) قرأه عين رسول الله ﷺ ٧٧ وانظر ٤٣ - ٥٢ - ٦٧ - ٨٨ وانظر مثلاً تنبيه الفكر ٩ - ٩٢ - ٩٣ والفقه المبسط ١ / ٢٤٠ - ٢٩٣ - ٣٠٩ و ٢ / ٧٠ - ٧١ - ٣ / ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢.

(٢) المرجع السابق ١٠٠ حرصنا عليه لبيان أن الشيخ ينقل من القدماء والمحدثين للدلالة على ما يريد.

(٣) الفقه المبسط ١ / ٢٥٩.

(٤) الأضحى والعقيقة ٤٨.

الزكاة: أموال الحكومة التي تجمعها من الزكوات أو الضرائب أو غيرها من الموارد لا زكاة فيها لعدم المالك المعين، فهي ملك جميع الأمة، ومنها الفقراء، ولأن الحكومة هي التي تتولى جباية الزكاة فلا معنى أن تجبي لنفسها لتعطي لنفسها^(١).

والحق أن نظرة سريعة في أي صفحة من صفحات كتب الشيخ يرى القارئ ما ذكرناه، ولعل فيما ذكرناه مقنع.

ولا يني الشيخ - حفظه الله - من التعرض إلى القصص لتوضيح ما يريد، أو لبيان الحكمة من مسألة طرحها، وذلك لأن القصص مليئة بالعظة والعبرة، ففي كتابه الفقه المبسط عرض للزكاة وأحكامها، وعلى عادته في البحث الفقهي أورد الحكمة منها بسوقه عدداً من الأحاديث المرغبة فيها والمرهبة من منعها، وختم هذه الأحاديث بقصة مؤثرة تدل على رجل كان لا يؤدي الزكاة من ماله، فنبش عليه التراب بعد موته فإذا القبر يلمع عليه ناراً^(٢).

ومن ذلك سوقه قصة الإمام الشافعي مع الإمام مالك للدلالة على أثر المعاصي في القلب^(٣).

ويستثمر الشيخ - نور الله مداده - أحياناً القصة لفائدة مخصوصة ببيان حكم حديث نبوي شريف من حيث القوة والضعف، من ذلك سوقه القصة للدلالة على أن الحديث الذي ذكر هو موضوع قال: «كان أحد العلماء يعظ فقام إليه رجل فقال: ما تقول في قوله عليه الصلاة والسلام: [أنا مدينة العلم وعلي بابها] فأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال: نعم، لا يعرف هذا الحديث على التمام إلا من كان صدراً في الإسلام، إنما الحديث أنا مدينة العلم وأبو

(١) إتحاف السائل ١ / ٥٨، وانظر: الأنيس في الوحدة، ففيه نقول كثيرة عن المحدثين.

(٢) الفقه المبسط ١ / ٢٧٦ وانظر ٢٠٥ وانظر قرة عين رسول الله ﷺ ٥٢ - ٥٣ .

(٣) إتحاف السائل ٣ / ١٧١ وانظر ٣ / ١٨٤ - ٢٠٣ - ٢٠٤.

بكر أساسها وعمر حيطانها وعثمان سقفها وعلي بابها «فاستحسن الحاضرون منه ذلك»^(١).

وقد تسوقه الفكرة إلى نقل قصة عن عالم معاصر حكاهما له، قال - وهو بصدد حديثه عن حكم الدخان - «وقد حدثني فضيلة الشيخ توفيق الصباغ رحمه الله تعالى حدثه في مجلس خاص مشافهة أن أحد علماء الهند زاره في حماة وحدثه عن قصة رجل مدخن رأى فيما يراه النائم بأنه حوسب حساباً يسيراً وانطلق إلى الجنة فأوقفته الملائكة على بابها ومنعته من دخولها حتى يتطهر أولاً من الدخان الذي في جوفه وذلك عن طريق تقطيعه بمكنة خاصة، وبعدها يكون مؤهلاً لدخول الجنة»^(٢).

حفظ الله الشيخ ما أحسن مسلكه، فبعد أن ذكر هذه القصة بشأن الدخان راح ناصحاً المدخنين فقال: «فيا أخي المدخن، هذه أقوال العلماء بشأن التدخين، وقد وقفت على بعضها، فمنهم من قال بتحريمه قطعاً، ومنهم من قال إنه مكروه تحريماً، وإن كنت تريد المزيد من الإيضاح فسل علماء الصحة والاجتماع والاقتصاد والبيئة ينبئك بما فيه قناعتك، وإن كنت متصوفاً فقد ذكرت لك من قال بتحريمه من أهل التصوف»^(٣).

فقد ذكر بعد ذلك أكثر من عشرين بيتاً شعرياً في هجاء الدخان وبيان معايبه:

أولها:

كم في الدخانِ معايب ومكاره دلتْ رذائلُهُ على إنكاره

وآخرها:

وبذلتْ قولي ناصحاً لك يا فتى فعساك تقبلُ ما أقول عساك^(٤)

(١) صون الإيذان ١٥٢ وانظر إتحاف السائل ١ / ١١٧.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٩٤.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ١٩٤.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ١٩٤.

* - ومن مروياته القصصية الهادفة، ما ذكره عن الشيخ سعيد البرهاني وهو بصدد حديثه عن المعجزة والكرامة، فبعد أن بيّن الفروق بينها تماماً أنهى الجواب بهذه الحكاية قال: «سئل الشيخ سعيد البرهاني رحمه الله تعالى أن يروي شيئاً من كراماته فقال: ليس عندي كرامات، ولست أهلاً لها، وقد ألح عليه أحدهم وشدد على الشيخ فأجابه: ليس عندي إلا كرامة واحدة إذا أحببت أن تسميها كرامة، وهي أنني أصلي الأوقات الخمس مع الجماعة»^(١).

* - ولوّّن الشيخ - بارك الله لنا في عمره - مصادره فاتجه نحو الشعر يؤنس به القارئ، ويمتع به الناظر، وكيف لا يعتمد عليه وهو الشاعر الأديب، والناظم الأريب، فتراه أحياناً يأتي بمنظومات شعرية تعليمية لتوضيح فكرته^(٢)، من ذلك سوقه بعض الأبيات الشعرية للإمام الأخضري تتبين منها شروط الذكر الشرعي أولها:

ومن شروط الذكر أن لا يسقطا بعض حروف الاسم أو يفرطا
وآخرها:

فمن يكن مشتهراً بالذكر فشرطه من خشية وفكر^(٣)
وحرص - حفظه الله - على هذا النهج فكان دائم السوق للأشعار التعليمية هذه ليسهل حفظها، من ذلك ذكره شروط النية التي هي ركن من أركان الصلاة فبعد أن ذكرها مفصلة قال: «وقد جمع بعضهم هذه الشروط بقوله:

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٣٣.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٢٥ - ٢٠٦ - ٢١٥.

(٣) تنبيه الفكر ٧٤.

يا سائلي عن شروط النية القصدُ والتعيينُ والفرضية^(١)
ومثل ذلك البيتان الجامعان لشروط التسليمة الأولى قال بعد ذكرها نشرًا: «وقد جُمعتُ
هذه الشروط في هذين البيتين:

عرّف وخاطب وصل واجمع ووال وكنْ مستقبلًا ثم لا تقصدُ به الخبرا
واجلسْ وأسمع به نفساً فإن كملتْ تلك الشروط وتمت كان معتبرا^(٢)

ومنها البيتان اللذان جمع فيهما مواقيت الحج والعمرة وهما:
عرق العراق يللمم اليمنِ وبذي الحليفة يُجرمُ المدني
والشأمُ جحفة إن مررت بها ولأهل نجدٍ قرنٌ فاستبن^(٣)
ويروّح على القارئ فيورد له ما يعد لغزاً فقد ذكر للتائي - وهو أحد علماء المالكية -
بيتاً ملغزاً حول الوضوء الذي لا ينقض وهو:

إذا سئلتَ وضوءاً ليس ينقضه سوى الجماع وضوءُ النومِ للجُنُبِ^(٤)
أما الأشعار الوعظية فحدّث عنها ولا حرج، فهي كثيرة ظاهرة في كل كتبه لاسيما
تلك التي تتعلق بالوعظ منها شعر إسماعيل المقرئ المتعلق بالخشوع في الصلاة وطرد
الشواغل قال فيها:

تصلي بلا قلبٍ صلاةً بمثلها يكون الفتى مستوجباً للعقوبة
تظل وقد أتممتها غيرَ عالمٍ تزيد احتياطاً ركعةً بعد ركعة^(٥)

(١) الفقه المبسط ١ / ١٥٩ وانظر إتحاف السائل ٣ / ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٢) الفقه المبسط ١ / ١٦٧ وانظر ٢٥٩.

(٣) الفقه المبسط ١ / ٣٧٤.

(٤) إتحاف السائل ١ / ١١٦.

(٥) قرأه عين رسول الله ﷺ ٥٣ وانظر ٦٦ - ٩٧.

ومنها سوقه للبيتين المشهورين في الكذب وهما:

لا يكذب المرء إلا من مهنته أو فعله السوء أو قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة من كذبة المرء في جد وفي لعب^(١)

ومن ذلك تلك القطعة التي كتبها لي في ورقة لأحفظها وأنشدها في الذكر، وها أنا أجدها الآن يسوقها الشيخ للحث على قيام الليل، وحضور صلاة الفجر جماعة مع الاستغفار الدائم والتوبة النصوح إلخ ما تتضمنه من مقاصد سننية وغايات سامية، تبدو من أبياتها ظاهرة واضحة منها:

قم في الدجى يا أيها المتعبد حتى متى فوق الأسرة ترقد
قم وادع مولاك الذي خلق الدجى والصبح وامض فقد دعاك المسجد
واستغفر الله العظيم بذلة واطلب رضاه فإنه لا يحقد^(٢)

وما أجمل سرد تلك الأشعار التي تدعو إلى حشمة النساء وعفافهن على طريقة السؤال

والجواب، بدأها الشيخ بسوقه قطعة شعرية منها:

يا أخت سابعة البرا قع في الأباطح والوعور
قري - فديتك - حيث لا تؤذيك لافحة الهجير
ودعي الجنوح إلى السفو ر وخففي ألم العشير

وبعد الانتهاء من هذه القطعة قال: «واحدري ممن:

قالوا ارفعي عنك الحجابا أو ما كفاك به احتجابا
واستقبلي عهد السفو ر اليوم واطرحي النقابا

(١) صون الإيذان ٩٣ وانظر مزيداً من ذلك في الفقه المبسط ١ / ٢٦٨ - ٤٣٤ وإتحاف السائل ٢ / ١١٨.

(٢) قرأه عيني رسول الله ﷺ ٦٧.

وأضاف قائلاً: وردي عليهم بقولك:

فأجبتهم والضحك ملء فمي ولم أعدم جواباً
مهلاً فما هذا الذي قد غركم إلا سراباً

ثم يعرج إلى قول عائشة التيمورية متحدثة عن زينة المرأة الحقيقية وهي ما يريده
الشيخ:

وحلاك فرطُ تزينٍ بفضائلٍ فاضتُ عليك بهالةِ الأنوارِ

إلى أن تقول:

والخيرُ كلُّ الخيرِ بعد تحجبٍ في تركِ معصيةٍ وفي استغفارٍ
وأكد ذلك أيضاً بقولها مرة ثانية:

بيد العفافِ أصونُ عزَّ حجابي وبعصمتي أسمى على أترابي^(١)

والتكلم بلغة الشعر هذه تدل على كثرة محفوظات الشيخ الشعرية وقراءاته اللغوية، كما
تدل على ذكاء الشيخ في سلوكه سبلاً متعددة ليصل إلى ما يريد من التوجيه.

* - ولأن للشعر مكانة خاصة عند الشيخ - رعاه الله - لكونه ذا أثر فعال في النفس
تراه يورد في مقدمة كتابه الحج والعمرة عدداً من الأبيات الدالة على شوق الشيخ إلى زيارة
مكة والتعرض لنفحاتها وبركاتهما

أولها:

هنيئاً لعين شاهدتْ أرضَ مكة وطافت ببيت الله سبعاً ولبت^(٢)

ولم يستطع وهو المحب العاشق حين تحدث أيضاً في الكتاب المذكور عن زيارة مدينة

(١) حكم الإسلام في النظر ١٦٣ وانظر ١٠٤ أيضاً.

(٢) الحج والعمرة المقدمة ٤.

رسول الله ﷺ أن يتخلص من هيامه وحبه فسجل البيت المعبر عن حاله:

فيا ساكني أكنافَ طيبةٍ كلکم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب^(١)

ولأن الشيخ ذواق للشعر، نراه يبدي إعجابه ببعض الأشعار حين ساقها للوعظ والتأمل في حقائق الأشياء قال: «ما الروح، ما العقل، ما الحزن، ما الفرح، ما البكاء؟ إنها آثار ومظاهر لحقائق باطنة يجهل طبيعتها الإنسان، ويعجبني قول ابن الحداد رحمه الله تعالى:
تاه الأنام بسكرهم ولذلك صاحي القوم عربد
وهي عشرة أبيات رائعة الجمال، بديعة المعاني^(٢).

وهو يدعو أيضاً طلابه وقراءه أن يكونوا كالجرجاني في قصيدته المشهورة:
يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً^(٣)
وقد ذكر منها عشرة أبيات تمثل منهج حياته، وقد أشرنا إلى ذلك حين تحدثنا عن منهجه في حياته.

ومن ذلك حديثه عن جواز القيام لأهل الفضل، فقد أعجبه بيتان فتمثل بهما قائلاً:
ولقد صدق من قال:

أفضلُ أستاذي على نفس والدي وإن نالني من والدي الفضلُ والشرف
فهذا مربّي الروح والروحُ جوهرٌ وهذا مربّي الجسم والجسم كالصدف^(٤)

ومن هذا القبيل ذلك الشعر الذي أنهى به جواب من سأل عن صفات الداعية والمرشد فبعد أن بيّن صفاته الشخصية، وصفاته التي تتعلق بمعاملته مع تلامذته ومريديه،

(١) الحج والعمرة ١٨٨.

(٢) صون الإيمان ١٦.

(٣) تنبيه الفكر ١٣٤.

(٤) إتحاف السائل ٢ / ١٧٦.

أورد عدداً من الأشعار تتعلق بهذه المسألة وأنهاها بقطعة أعجب بها فاختارها لتضمنها ما يريد، قال: «والخلاصة إن المرشد أو الداعية ينبغي أن يكون كما قال القائل في هذه الأرجوزة:

الشيخُ من كان على الكتاب وسنةِ المختارِ والأصحاب
مبينُ الحلالِ والحرام وكلُّ ما كان من الأحكام
مهذبُ الأخلاقِ والأفعال داعٍ إلى مولاه ذي الجلال

وآخرها:

مستعملاً فيهم كلامَ القومِ لا يختشي في الله أهلَ اللوم^(١)

* - ومن طريف مسلك الشيخ في استخدامه للشعر أنه يورده للرد على معانديه الذين ذكروا رأيهم شعراً لا نثراً، ففي كتابه تنبيه الفكر ذهب المجيزون إلى إيراد شعر نشر في مجلة المسلم عدد شوال عام ١٣٨٠ هـ للشاعر أحمد خيرى يقول فيه:

قد أنكروا خبرَ الأنينِ وإنني أجدُ الأنينَ يخففُ الآلاما
لا أستحلُّ مقالةً في وضعه فالشاذلي لديَّ كان إماما

فرد الشيخ قائلاً: «قلت: أما قرأتكم ما قاله الأستاذ علي سالم عمار الشاذلي مضمناً البيتين

السابقين وذلك في عدد صفر من عام ١٣٨١ هـ حيث قال:

(آه) الأنين على اصطلاح قاما (الله) ذكرٌ للعلا يتسامى

ومنها:

(قد أنكروا خبرَ الأنين) وإنني لا أقحمُ الألفاظَ والأقلاما
فبأي لفظٍ للأنين وبالرضا (أجدُ الأنينَ يخففُ الآلاما)
(لا أستحلُّ مقالةً في وضعه) وضعاً يشكل ريبةً وملاما
ما صحَّ أن الشاذلي أتى به (فالشاذلي لديَّ كان إماما)

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٤٨.

وأنهاها بالقول:

(الله) لفظٌ مفردٌ في ذاته فاذكر به تستوعب الإسلام

والقصيدة طويلة تعد رداً على ما زعموه^(١) وهكذا استطاع الشيخ - حفظه الله - أن يرد عليهم بمثل ما سلكوا.

- فله دره - على كثرة تنقيبه وتفتيشه وسعة اطلاعه.

* - وأخيراً لا بد من الإشارة إلى شرح الشيخ الأدبي العالي لبعض مقطوعات الشيخ يوسف النبهاني الهادفة فقد أجاد الشيخ فيها وأفاد، براعة في التقديم، وشرح هادف قويم يتفق مع جلالة الشيخ يوسف رحمه الله وحب شيخنا له... أدامه الله عزاً للمسلمين^(٢).

والخلاصة: أن الشيخ استطاع ببراعته العلمية، وثقافته المتنوعة أن يجعل موضوعاته العقلية الذهنية - كما هو الشأن في كتبه الفقهية - سائغة، سلسلة، بما ضمنها من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية شريفة، وحكايات عن العلماء والصالحين، وأقوال مفيدة، وأشعار مختارة نافعة، وفي هذا دليل على وضوح الفكرة عنده، وامتلاكه القدرة على تقديمها بأحسن أسلوب، وأرقى بيان، لتكتمل الفائدة ويعم النفع، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

٦ - ربطه القديم بالحديث، للوصول إلى الحكم، وإظهار الصورة التي بدت له من نظره في الآراء والأقوال القديمة والحديثة، ولعل أبرز مثال على هذه السمة حديثه عن اعتماد الحسابات الفلكية في الصوم، إذ تراه رابطاً ما ذكره القدماء من أحكام وآراء حول هذه القضية بما توصل إليه العلم الحديث، وبعد مناقشة علمية جادة توصل الشيخ إلى تأكيد رأي من أجاز ذلك قائلاً: «يمكننا القول إذن بدخول الشهر إذا دلّ الحساب الفلكي الدقيق

(١) تنبيه الفكر ٩٨.

(٢) انظر إتحاف السائل ٢ / ٢٣٩.

المعمول به الآن عالمياً، وعلى أساسه تسير الطائرات والسفن وتطلق الأقمار الصناعية والمراكب الفضائية والصواريخ^(١).

ومن ذلك أيضاً جوابه عن سؤال الإصابة بالعين، فبعد أن ذكر أنها حقيقة ثابتة، وأورد الأدلة عليها من الكتاب والسنة، وأقوال العلماء، التفت - رعاه الله - إلى الواقع المشاهد المحسوس فذكر قصة ذكرها الأصمعي - وهو عالم اللغة المشهور - تؤيد وقوع الإصابة بالعين، ثم نقل عن جريدة القبس الكويتية في عددها ٤٠٣٧ الصادر يوم الثلاثاء ٩ آب ١٩٨٥م^(٢) تحت عنوان (أغرب من الخيال يشعل الحرائق) ما يفيد أن هذه الظاهرة واقعة أيضاً في عصرنا الحاضر، ولما راح يعلل لها نقل عن ابن القيم تعليلاً لها، ثم أكد ذلك باستعانه بما قاله العلم الحديث حيث قال: «وقد أكد ذلك العلم الحديث هذه الحقيقة..» ثم تحدث بما يوضح ذلك تماماً^(٣) وعلى هذا النحو ربط في إجابته القديم بالحديث حتى يحكم الأمر، ويكون الجواب مقنعاً واضحاً مفيداً، وإذا لزم الأمر وقوف الشيخ على المصادر الحديثة لتناولها ما هو بصده رأيته لا يتوقف عن ذكره، أو الإشارة إليه ليسدد رأيه ويوضح مراده، فليس عجباً أن تراه معتمداً على المجامع الفقهية وهيئة كبار العلماء ولجنة الفتوى في الأزهر الشريف^(٤)، والمجلات الفقهية المتخصصة كمجلة الأحكام العدلية^(٥)، ومجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد^(٦)، والكتب الحديثة المؤلفة في قوانين الأحوال

(١) إتحاف السائل ١ / ٦٩ وانظر حديثه أيضاً عن اختلاف المطالع في ١ / ٧١ .

(٢) حرصنا على ذكر العدد وسنة صدوره للدلالة على مدى دقة الشيخ - رعاه الله - في نقوله ونصوصه.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ١٤٨ - ١٥٣ .

(٤) انظر الفقه المبسط ٢ / ١٠٩ و ٣ / ٦٠ - ١٢٨ - ١٣٥ وإتحاف السائل ٣ / ١٩١ .

(٥) الفقه المبسط ٢ / ٥٦ و ٣ / ١٠٠ - ١١٤ وإتحاف السائل ٢ / ١١٥ .

(٦) الفقه المبسط ٣ / ١٢٩ .

الشخصية^(١)، والمجلات كالعربي والمسلم وغيرها^(٢)، والصحف كما رأينا فيما سبق كجريدة القبس الكويتية والجمهورية المصرية وغيرها، بل إنه يستعين أيضاً بما توصل إليه الطب الحديث للإفادة في تقرير الحكم الذي يراه الشيخ - رعاه الله -^(٣)، مثال ذلك ما ذكره من حديث الدكتور ديريل سنة ١٩٢٢م حول أسباب انتشار الكوليرا في الهند ليؤكد حديث الرسول ﷺ: [إذا وقع الذباب في شراب لأحدكم فليغمسه كله ثم لينزعه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء]^(٤).

ومثل ذلك ترى حين تحدث في كتابه حكم الإسلام في النظر والعورة عن مظاهر التبرج فنقل عن جريدة الجمهورية المصرية حديثاً صحفياً للصحفية الأمريكية هيلسيان ستانسيري تستنكر فيه تلك الحرية التي أعطيت للأفراد في المجتمع الأوربي والأمريكي^(٥)، ومنه نقله عن ألكسيس كاريل من مؤلفه (الإنسان ذلك المجهول) يذكر فيه الفروق الجوهرية بين المرأة والرجل^(٦) ونقله أيضاً عنه حديثه عن فوائد الصلاة في كتابه قرعة عين رسول الله ﷺ^(٧).

٧ - عنايته بكشف الشبهات وأغلاط بعض المحدثين المعاصرين، وذلك بالتنبيه على أخطائهم، وبيان فسادها، ولعل أول مظهر من مظاهر هذا النهج يبدو حين كان الشيخ يعلق

(١) إتحاف السائل ١ / ١٨ - ١٠٣ - ١٢٣ و ٢ / ١٢٦ وانظر تطييب المرأة ٤٨.

(٢) تنبيه الفكر ٦٩ - ٩٧ و حكم الإسلام في النظر ٨٣ - ٨٤ وإتحاف السائل ٣ / ٢٢.

(٣) إتحاف السائل ١ / ١٤٣ و ٢ / ١٥٣ والفقه المبسط ١ / ١٢٠ - ١٢١ والأضحى والعقيقة ٩٢.

(٤) الفقه المبسط ١ / ١٢٠ وانظر ٦٦ - ٦٧ وإتحاف السائل ٣ / ١٩٤.

(٥) ١٤٦ وانظر إتحاف السائل ٣ / ١٥١ ففيه ما نشرته مجلة القبس الكويتية ٨٥.

(٦) ٨٠.

(٧) ٣٦.

على بعض الأخطاء التي يراها عند المصلين منذ كان صغيراً حتى ضاق ذرعاً به بعض العوام، لكن الشيخ لم يأبه لذلك^(١)، وظل هذا المنهج ينمو عنده حتى صار جزءاً من شخصيته العلمية، منافحاً عن الحق، مبرزاً الصحيح، وموضحاً الغامض، وقد أثمر هذا المنهج عن عدد من الأعمال العلمية التي تتصل بهذا المظهر، فحقق ونشر رسالة الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله (السهام الصائبة) ومضمونها هو الرد على من يدعو إلى التحرر من المذاهب الفقهية المشهورة، وأتبعها بتحقيق ونشر (حسن الشريعة في مشروعية صلاة الظهر إذا تعددت الجمعة) ومضمونها أيضاً يتعلق بالظاهرة الجديدة التي يزعم أصحابها أنه لا داعي إلى صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة لأنها بدعة.

ونشر حديثاً كتابه: اعدلوا بين أولادكم، وهو كما ذكرنا رد على أحد المتفكّهة، قال: «لقد ظن أن العلم رواية ونقل وراءة فقط، ونسي أن العلم رواية ودراية، رواية صادقة بضوابطها العلمية المروفة، ودراية بالأدلة وما ترمي إليه دلائل الألفاظ من معان ومقاصد مع الإحاطة بكيفية الاستنباط من تلك الأدلة والترجيح والموازنة^(٢)».

أما كتابه تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر فهو يمثل قمة هذا المظهر، ففي مقدمة كتابه أشار إلى أن طائفة من أهل الذكر يذكرون الله ذكراً غير شرعي فهاله الأمر وراح يتابع البحث فيه إلى أن صار كتاباً أثنى عليه العلماء الأثبات، وذاع صيته وانتشر أمره، وإزاء ذلك لقي العنت من هؤلاء وراحوا يحاربونه، وهو ماض لا يأبه لذلك قال: «واتهمت من قبل بعض الجاهلين المتعصبين للأشخاص والآراء ممن يتسمون بسبيل أهل العلم بأني خصم لدود لأهل الذكر، وعدو للتصوف وأهله، وأن لديّ نزعات منحرفة وأفكاراً شاذة تتبناها جهات معينة^(٣)».

(١) تجربتي ٢٤.

(٢) اعدلوا بين أولادكم، ٢.

(٣) المقدمة ٧.

وقد ردّ الشيخ كل الأدلة التي اعتمدها بأجوبة علمية متينة، لكنه ضمن هذه الردود التشنيع على بعض المتصوفة الذين يعتقدون أن رأي الشيخ مقدم على رأي غيره، وهم يرددون ما يسمعون. فلا تصح مخالفة الشيخ ولا ترد أقواله، قال: «طبيعة المشكلة: إن المشكلة التي يعاني منها المصلحون تتمثل في تمسك كثير من المريدين بأقوال شيوخهم وانتصارهم لها سواء كانت حقاً أو باطلاً، وسواء خالفت صريح الكتاب والسنة وجمهور العلماء أم لا، من غير وقوف على دليل سليم، ومنطق مستقيم فكانوا كالبيغاوات يرددون ما يسمعون، ومن قيل لهم فقالوا، وكفروا بعقولهم، والنقل الصحيح، وسلموا لذوق فلان، ووجد فلان، وحال فلان، وفعل فلان، كأن هذا الـ (فلان) حجة على الشريعة، وأقواله وأحواله لا تناقش ولا ترد، وما علموا أن الحفظ المطلق هو لكتاب الله عز وجل، والعصمة الكاملة لسنة نبيه ﷺ، وما كان وجد وذوق وحال فلان أن يكتب له الحفظ والعصمة، ويرحم الله الإمام مالكا حيث قال: كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذا القبر، ويعني به رسول الله ﷺ»^(١).

ومثل ذلك قوله فيهم: «يا ليت شعري بأي دليل تمسك بعض الذاكرين المحرفين لاسم الله، وعلى أي قول وقفوا؟ إنهم تمسكوا بشبهات....ويا ليت شعري ما يضرهم في سلوكهم لو التزموا الوضوح، وحافظوا على النطق الصحيح، وساروا في طريق الجماعة، وقطعوا ألسنة المستهزئين والمنتقدين، ولم يسيئوا إلى حقيقة الذكر الشرعي، والتصوف الشرعي؟ هل يحيط ذلك في درجاتهم؟ أم يكونون من زمرة الأشرار؟ أين العمل بالقواعد الأصولية: (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) وقاعدة (الإنكار سداً للذرائع) و (المباح

(١) تنبيه الفكر ٨٣.

إذا تولد منه محذور مُنْع) ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ [الأنعام: ٩١] ^(١).

ومثل ذلك أيضاً ما ذكره عنهم بقوله: «إن الأحكام الشرعية تعم الجميع، والتزام الكتاب والسنة واجب على الكل، فلا خصوص ولا عموم ولا استثناءات، ولا تبني أفكاراً مسبقة، ثم محاولة التفتيش عن أقوال تدعمها، وتأويلات فاسدة تنصرها، فالمؤمن لا يتبع هوى نفسه، بل هو أسير الدليل متى صح، والنقل متى وافق النص، ومن الذي قال أنه لا يوجد بين الصوفية طغام ورعاع؟ ومن الذي حكم أنهم بريئون من كل مخالفة والتمسك بما هو مبتدع؟ فطغام الصوفية يفسدون أكثر مما يفسد غيرهم من أهل اللهو، إن أهل اللهو قد يعترفون بخطئهم أو مخالفتهم ويقولون بأنهم مذبذبون ويطلبون منه سبحانه العفو والغفران، أما طغام الصوفية ورعاعهم يعصون ويظنون المعصية طاعة، ويخالفون ويظنون المخالفة قرابة، وهل يتوب أو يستغفر من كان يظن نفسه على شيء، ولكنه في الحقيقة ﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾ [النور: ٣٩]، ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ [الفرقان: ٢٣] ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾ [الكهف: ١٠٣] ^(٢).

وعلى هذا النهج سار الشيخ كاشفاً مزاعمهم الباطلة وموضحاً آراءه في هذه الطائفة، وليس وراء ذلك إلا كشف الحقيقة، وبيان الطريقة، لأن الشيخ - كما تعلم - واحد من كبار الصوفية، وعلم من أعلامها المتميزين، لكن التصوف عنده هو كما قال: مستمد من الكتاب والسنة، وكفى بذلك نصاعة وبياناً ووضوحاً.

وقد ظهرت شدته على أنصاف المتعلمين حين أفرد رسالة خاصة في الجواب على

(١) تنبيه الفكر ٧٧.

(٢) تنبيه الفكر ١٢٣.

أحدهم، ذلك الذي تعقبه في جوابه على سؤال عمن يجب عليه تجهيز المرأة وتكفينها حال موتها، وعمن يجب عليه ثمن تطيبها و ثمن دوائها؟ فرد عليه الشيخ - أيده الله - برسالته التي عنوانها بـ (تطيب المرأة و ثمن علاجها) والذي يعنينا - الآن - منها ذلك الرد الشديد على هذا الرجل الذي أخذ على الشيخ ما أخذ مما يدل على فهم قاصر، وفكر فاتر، قال الشيخ: «كنت أود أن تكون كتابتي رداً عليه في حينها، لولا شواغل شغلت، وأمور هامة أخرت الكتابة، ومع ذلك أقول قبل البدء في التعليق على كلامه، لابد من ذكر ملاحظات ثلاث:

الأولى: قوله قال شيخنا الشيخ زكريا الأنصاري، يفيد أن الشيخ زكريا هو شيخه فيعلمه - حفظه الله - أن من يقول قال شيخنا ينبغي أن يكون قد تحقق له أمران: الأول: الاجتماع وهو إما أن يكون حقيقياً حسيّاً وهو الظاهر، أو روحياً كما هو معلوم ومقرر عند أهله. الثاني: الاستماع أو السماع من ذلك الشيخ، لذا كان من الأولى أن يقول هذا الرجل قال الشيخ فلان بدلاً من القول قال شيخنا.

والملاحظة الثانية: أنه قد أطلق على نفسه لقب الشيخ فلان، وكان الأولى أن يذكر اسمه مجرداً من ذلك اللقب تواضعاً، كما هو شأن الصالحين من العلماء.. ورحم الله القائل:

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كاهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

والملاحظة الثالثة: أن الشيخ فلان أراد أن يلفت نظري إلى أن ما قلته عن نفقات التطيب والمداواة ووجوبها على الزوج هو خطأ بدليل ما نقله عن الشيخ زكريا رحمه الله، والحقيقة أن ما قلته ليس بخطأ، وإنما هو الحق الذي قام عليه الدليل العلمي الذي سأورده في هذا الرد والتعليق.

ثم بين الشيخ له ما يردده دائماً بحق هؤلاء المتسرعين في أحكامهم، المرددين للأقوال من غير دراسة متأنية لتلك الأقوال قال: «ما رضيت لنفسي أن أكون من الصنف الذي قيل له

فقال، ولو لم يقل له لما قال، ولا ارتضيت لنفسي أن أكون ببغاء - وما أكثر الببغاوات في عصرنا يردد ما يسمع، أو يحكي ما يقرأ من غير تمحيص ولا تحقيق» ثم راح يشرح له ويعلمه كيف يكون البحث العلمي^(١).

والحق أن ما ذكره الشيخ فيه فوائد عظيمة لطلبة العلم، إذ يدلهم على أسس البحث العلمي، فرعى الله الشيخ وبارك فيه، فالنفع مذهبه، والخير مطلبه، فهو كما يقول الرواس:

نحن في حال حياة وممات نور نفع ينجلي في الكائنات

والنفث - رعاه الله - إلى من يتسرع في إطلاق الأحكام على الناس، فيرميهم بالكفر والتفسيق، وبين خطورة هذا الفريق ووضح له الطريق قال: «ولكن قد حلا لبعض من ضعف عقله، وانحرف مزاجه وضاق صدره أن يكيل ألفاظ التكفير أو التبديع أو التفسيق لكل من خالف فكره، وباين فهمه، وتباعد عن منهج أسلوبه العلمي أو العملي، وهذا شطط وأي شطط، وحكم على الناس بالكفر من غير إثارة من علم أو فهم [من كفر مؤمناً فقد كفر] أي من حكم عليه بالكفر من غير دليل قطعي الدلالة فقد عرض نفسه إلى الكفر، أو وقع فيه حقيقة، من المعلوم أن تطبيق أحكام الحدود وإثباتها عسير وضيق جداً لقوله ﷺ: [ادرؤوا الحدود بالشبهات] فكيف بالحكم على إنسان بالكفر هكذا جزافاً من غير روية وإعمال فكر، ومن المقرر أن من مقتضيات الشريعة أن الإنسان إذا كان يحتمل كفره تسعة وتسعين وجهاً ومن وجه واحد لا يحتمل أي نسبة احتمال عدم الكفر ١٪ واحد في المئة فإننا نأخذ بهذا الواحد ونترك التسعة والتسعين كما نص على ذلك الإمام مالك رضي الله عنه^(٢).

وفي كتابه حكم الإسلام في النظر والعورة عقد مبحثاً خاصاً للرد على صاحب كتاب

(١) تطيب المرأة وثمن علاجها ٥ - ١٤، وانظر: اعدلوا بين أولادكم (المقدمة).

(٢) صون الإيمان ١٢٠.

«حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة»، فنقل نصوصه بحروفه، ثم بين مأخذه على ما ورد فيها، وراح يفندها بأدلة علمية استغرقت أكثر من تسع صفحات، وأنهاها بالقول: «فهل وعى الكاتب - ولم يذكر اسمه - ومن لف لفيفه هذه الشروط؟ - أي شروط الاجتهاد - وهل وجدت فيهم هذه الشروط؟ ألا قاتل الله الجاهل بنوعيه البسيط والمركب

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنت تدري فالمصيبةُ أعظمُ»^(١)

ومثل ذلك ما رأيته في كتابه الفقه المبسط قسم المعاملات المالية إذ وضع عنواناً نصه (خطأ أحد الكتاب المعاصرين) ذكر فيه أحدهم - ولم يسمه - سئل عن بيع العملات الورقية بعضها ببعض وأجاب أن ذلك ليس صرفاً... إلخ، ورد الشيخ ما ذهب إليه هذا الكاتب مفنداً رأيه بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة^(٢).

ويندرج تحت هذا ما ذكره عن الدخان وحكمه فبعد ذكره قول الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى حوله قال: «قلت: ولكن من المؤسف جداً أن يكون بعض المتعلمين حجر عثرة في طريق الحملة لمكافحة التدخين، وتخليص المجتمعات من شروره وأضراره... فبدلاً من أن ينضموا إلى هذا المركب - مراده من العلماء من أمثال هاشم الخطيب وعلي الدقر - إذا هم يشبطون الهمم، ويغرون البسطاء من العامة به عن طريق القدوة السيئة، والقول بأنه مباح أو مكروه تنزيهاً، ولو أنهم اعترفوا بما ابتلوا به ورجوا التخلص منه لكان الأمر، ولكنهم لجؤوا إلى اللف والدوران، لأنهم قد سيطرت عليهم نفوسهم واستحكمتهم الأهواء وكانوا من المتخاذلين، ولذلك تخبطوا في فتاواهم خبط عشواء بين محلل له ومكروه^(٣).

وعلى العموم فليس وراء ردود الشيخ على شبهات المحدثين المعاصرين، واستنكاره

(١) حكم الإسلام في النظر والعورة ١٨٦.

(٢) الفقه المبسط ٣ / ٣٩.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ١٩٢ - ١٩٣ وانظر ٢ / ٥٧.

على أنصاف المتعلمين سوى تبيان الحقيقة، وجلاء المسألة، وكيف لا؟ والعلماء حراس هذه الشريعة ووراث الأنبياء في بيان الحق والحقيقة، لقد رأينا العلامة الشيخ محمد الحامد - بل الله بوابل الرحمة ثراه - ينهج هذا المسلك في كتابه ردود على أباطيل، وتبعه تلميذه الشيخ محمد أديب في منهجه هذا، والكل يسقى من ماء واحد.

ولا شك أنه منهج العلماء الغيورين على الحق والدين، ورحم الله الرواس القائل:
ولا ترَ النفسَ فإن الداءَ أن يكابرَ المرءُ أو النفسَ يرى
وخالفَ المعوجَّ في مذهبه إن سفلَ الشأنُ به وإن علا
والله يتولى الشأن، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

٨ - تحذيره الدائم من بعض العادات الاجتماعية المستقبحة والتنبيه إليها، وإلى مضارها:

* - من ذلك حديثه عن إطلاق العيارات والأسهم النارية حين قدوم الحجاج، واستنكاره ما يقدم في مناسبات الأفراح من ورود صناعية أو طبيعية، وما شابه ذلك لأن فيها سرفاً وتبذيراً، وينصح بأن يقدم هدايا رمزية يبقى نفعها وتحيا ذكراها، ومما نبه إليه أيضاً ما يقدم للمعزين من الشاي والقهوة والدخان في حال وفاة شخص، ويقول: «وكان التعزية أصبحت موثلاً للضيافة واستقبال الضيوف، وكذلك ما يقيمه أهل المتوفى من ولاء في اليوم الثالث من الوفاة أو الأربعين، يدعى إليها الأغنياء المترفون غالباً، ويمنعها الفقراء المحرومون، مما ترهق أهل المتوفى، وتكلفهم مبالغ كبيرة تنفق في سبيل المباهاة والرياء»، وأضاف قائلاً: «وبعضهم يقدم طعاماً للمعزين، مخالفين السنة النبوية التي تنص على تقديم الطعام لأهل الميت لأنه شغلهم عن تهيئته ما نزل بهم»^(١).

(١) إتحاف السائل ٣ / ١١٩ وانظر الفقه المبسط ١ / ٢٦٧.

* - ومن ذلك دعوته إلى الالتزام باللباس العربي الأصلي بعد رؤيته مدى الانحلال الذي وصل إليه الناس، قال: «وعلى الرجال أن يحافظوا على الزي العربي في اللباس لتبقى لهم شخصيتهم وكيانهم، وفي ذلك تحقيق للذات، ويحذروا من التقاليد المستوردة من شرق أو غرب، وذلك يدل على ضعف السلوك»^(١).

* - ومثل ذلك حديثه عن عادة تحجير القبور للمباهاة واستنكاره لها قال: «ولا بأس بتحجيرة بسيطة إذا خاف نبش القبر وضياعه، أما بقصد المباهاة كما هو واقع فعلاً فلا يجوز، لضياع المال من غير فائدة»^(٢).

وما أشد حزنه لما آل إليه الانحلال الأخلاقي قال: «ومما يؤسف له أن بعض الناس أبدلوا النظر الذي أمرت به الشريعة، ورغبت فيه بالنظر إلى الصورة الضوئية التي تعبر عن مدى الإغراء والإثارة، سبحان الله؟ كيف أجازوا لفتاتهم أن تجلس أمام المصور - وقد يكون غير مسلم - بأوضاع شائنة، ويقلبها على النحو الذي تريد أو يريد، ولم يميزوا ما أجازته الشريعة من نظر مأمون ضمن الحدود التي حددتها والقيود التي وضعتها، والآداب التي ارتضتها؟»^(٣).

* - ويتصل بهذا أسفه لانحدار الأمة وانشغالها بالأغاني الماجنة، حتى صار لهم مهرجانات توزع فيها الجوائز والأوسمة التقديرية، قال: «من المؤسف جداً أن يكون للغناء في عصرنا الحاضر هذا الاهتمام الزائد حتى سيطر على النفوس، واستحكم في القلوب، واستولى على العقول، لقد أصبح للغناء والمغنين سوقاً رائجة مائجة حيث أقيمت المهرجانات الغنائية، وأنفقت عليها الأموال الطائلة التي لو ركزت في مجالات أخرى لكانت أنفع للأمة

(١) انظر قرعة عين رسول الله ﷺ ١٣٨.

(٢) الفقه المبسط ١ / ٢٦٤.

(٣) حكم الإسلام في النظر ٨٧.

وأسلم، إنك ترى في هذا الجليل من يحفظ الأغاني وأسماء المغنين ولا يحفظ شيئاً عن عباقرة هذه الأمة وأهل العلم فيها فضلاً عن حفظ آيات من القرآن الكريم أو شيئاً من أحاديث سيد الأولين والآخرين، وهذا هو الانعكاس والارتكاس»^(١).

* - ومما يتصل بهذه الخصيصة ما ذكره أيضاً حول الذبح بين رجلي القادم من الحج قال تحت عنوان من آداب الذبح: «أن يجتنب ما اعتاده بعض الناس من الذبح بين رجلي القادم من سفر حج أو غيره، فإنه بدعة لا أصل لها في الإسلام، وتحرم الذبيحة إن قصد التقرب إليه وتعظيمه بالنحر، فإن الذبيحة لا تؤكل لأنه أهل بها لغير الله، بخلاف ما يذبح للضيف بقصد إكرامه والاستبشار بقدومه فإنه جائز»^(٢).

* - ومن ذلك تحذيره من الكذب ولو كان مزحاً قال: «فاحذر الكذب يا أخي بشتى أنواعه وصوره ولو كنت مازحاً، وخاصة ما اشتهر بين الناس بكذبة أول نيسان، والكذب الأبيض، والرذيلة ما كانت في يوم من الأيام فضيلة»^(٣).

* - ومن ذلك تنبيهه حول وقت صلاة التسابيح قال: «وليس لها وقت ينبغي التزامه في أدائها، وما يفعله الناس من تخصيصها في ليلة النصف من شعبان مخالف للسنة، ينبغي أن تصلى قبل النصف بيوم أو بعده بيوم»^(٤).

ولا عجب من كل ذلك، فالشيخ ابن بيته يعرف أمراضها وأدواءها، فهو طبيب ناجع، وحكيم نطاسي ماهر ووسبحان من يعطي الفضل لمن يشاء بما شاء.

٩ - الميل نحو الاستطراد ترويحاً على القارئ وتنشيطاً للذهن، ورغبة في الفائدة، وقد

(١) إتحاف السائل ٣ / ٢٣٦.

(٢) الأضحية والعقيقة ١١٨ وانظر حكم الإسلام في النظر ١٠٥.

(٣) صون الإيمان ٩٣ وانظر إتحاف السائل ٢ / ٢٠٦.

(٤) قرعة عين رسول الله ﷺ ٧١.

استخدم - رعاه الله - للدلالة على ذلك عدداً من الألفاظ نحو فائدة^(١) وتنبيه، وتنبيه هام^(٢)، وملاحظة^(٣). مثال ذلك ما ذكره تحت عنوان فائدة: أسماء الأطعمة المعتادة التي تجري مجرى الشكر وكلها سبيلها الطبخ ومنها: القرى وهو إطعام الضيفان، والمأدبة: طعام الدعوة، والتحفة: طعام الزائر، والوليمة: طعام العرس... إلخ^(٤).

ومن ذلك حديثه عن النظر وأنواعه^(٥)، وحديثه عن حيصّ ييَصّ^(٦)، وشرحه عبارة تربت يداك^(٧)، وما ذكره أحياناً تحت عنوان مسائل متفرقة أو متفرقات^(٨).

ومن هذا القبيل ذكره بعض القصص التاريخية المفيدة كالمكلمة بالقرآن^(٩)، والأشعار الملغزة كلغز التثائي - أحد علماء المالكية - حول الضوء الذي ينقض وهو:

إذا سُئِلَتْ وضوءاً ليس ينقضه سوى الجماع وضوءُ النوم للجنب^(١٠)

ويتصل بهذا ذكره بعض الفوائد النحوية، كحديثه عن معاني حرف الجر «من»^(١١)، والفرق بين «لن ولا»^(١٢)، وبالجملة لا تجد كتاباً من كتبه ليس فيه استطراد رغب إليه الشيخ

(١) انظر كتاب الحج والعمرة ٢٥ - ١١٢ - ١١٧ والأضحى والعقيقة ٨٠ والفقهاء المبسط ١ / ١٦٠.

(٢) حكم الإسلام في النظر ١٠٥ والحج والعمرة ١٠٢ والفقهاء المبسط ٣ / ١٠٥.

(٣) الفقهاء المبسط ١ / ٣٧٠ - ٣٧٦ و ٢ / ٦٤ والحج والعمرة ٢٥ - ٥٣ - ٧٣ - ١٣١.

(٤) الأضحى والعقيقة ٧٨.

(٥) إتحاف السائل ٢ / ٢٢٦.

(٦) إتحاف السائل ٢ / ٢٢٤.

(٧) إتحاف السائل ٢ / ٢٢٥.

(٨) إتحاف السائل ٢ / ٢١٥ - ٢٤٣.

(٩) صون الإيمان ٥٩ وانظر إتحاف السائل ٢ / ١٩٩ و ٣ / ١٩٥.

(١٠) إتحاف السائل ١ / ١١٦.

(١١) إتحاف السائل ٢ / ٢٥٠.

(١٢) إتحاف السائل ٢ / ٢٢٥.

- حفظه الله - زيادة في الفائدة، وسعة في المعرفة.

١٠ - الأمانة العلمية في تحرير النصوص ونقل الأقوال:

فهو في كل مباحثه الفقهية ينقل النص ذاكراً المصدر ورقم الجزء والصفحة، وأحياناً ينص على أن النقل انتهى بحروفه ولفظه^(١)، ولا يتردد - حفظه الله - عن ذكر بعض المصادر والمراجع في نهاية المسألة لمن أراد أن يتوسع فيها^(٢).

وحرصه على هذه الأمانة العلمية دفعه إلى شكر من أمدّه بشيء وأفاد منه، ففي جوابه عن سؤال: هل يجوز السجود بين يدي المشايخ ونحوهم؟ قال: «هو حرام شديد التحريم» وأضاف قائلاً: «هذا وأشكر الأخ الكريم الذي قدم إلي بعض الأحاديث الواردة في كتاب الأدب المفرد للبخاري، أجزل الله مثوبته، وفتح عليه بما يحبه ويرضاه^(٣)».

١١ - تواضعه في العلم:

إن الشيخ مع مكانته العلمية وجرأته القائمة - كما ذكرنا - على الأصول الشرعية المعتمدة، تراه يورد آراء من كاتبهم في بعض الفتاوى الشرعية، من ذلك نشره مقالة الشيخ محمد الحامد رحمه الله حول حقيقة الذكر الشرعي^(٤). وقد ذكرنا من قبل أنه - حفظه الله - ذكر في مقدمة كتابه تنبيه الفكر توجيه الشيخ محمد الحامد له، في بحثه وتنقيبه حول هذا الموضوع، وذكرنا أيضاً أن الشيخ محمد منير لطفي رحمه الله تعالى كتب له مقدمة عن كتابه صون الإيمان من عشرات اللسان ذكر فيها الشيخ محمد منير لطفي أنه شجعه أيضاً على إنجاز

(١) انظر حكم الإسلام في النظر ١٧٩ والفقه المبسط ٢ / ٥٠ - ٥٤ والحج والعمرة ٢٥.

(٢) انظر إتحاف السائل ١ / ١٨ - ١٩ - ٣٣ - ٣٦ - ٩٢ - ٢ / ٤٨ - ١٠٣ - ١٢١ - ١٢٣ - ١٢٧ -

١٦٧ - ١٦٨ - ١٧٢ - ٢٠٢ و ٣ / ٤٠ - ١٢٧ والفقه المبسط ٢ / ٤٢.

(٣) إتحاف السائل ٢ / ١٨٢.

(٤) انظر تنبيه الفكر ١٨.

هذا الموضوع وإبرازه إلى حيّز الوجود^(١).

* - ومن مظاهر هذا التواضع ما ذكره عن الأوراق النقدية، فقد بين في كتابه إتحاف السائل أنه عرض المقالة المتضمنة رأيه في هذه القضية على سماحة مفتي الجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد كفتارو عام ١٩٩٢م، فوافق على ما جاء فيها وأمرها بالخاتم الرسمي وتوقيعه^(٢).

وفي نهاية المسألة ذكر أسماء عدد من العلماء الذين كاتبهم ووافقوه على رأيه وهم الشيخ عارف جويجاتي إمام جامع الروضة بدمشق رحمه الله، والشيخ عبد الغني حمادة رحمه الله من إدلب، والشيخ أحمد الشامي رحمه الله من دوما، والشيخ أسعد العبيجي رحمه الله من حلب وهو مفتي الشافعية فيها، والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي من دمشق العالم المعروف.

وسجل الشيخ أمام كل اسم من أسماء هؤلاء العلماء أن فتواه بخطه محفوظة عنده^(٣).

وهذا الورع والدقة من صفات العلماء الذين يرومون الحق، ويطلبون الحقيقة، فهذه المكاتبات تقوّي - من جهة - رأي الشيخ - رعاه الله وأيده بتوقيقه - وتدل من جهة ثانية أنه لا يتعصب لرأيه، بل هو مع الحق حيث دار، وقد بينا في فصل عقدناه مكاتباته الأخرى مع العلماء كالشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، وثمة صور عن هذه المكاتبات وضعناها في الملحق فلتنظر هناك^(٤).

* - وما يدل على تواضعه العلمي عدم اكترائه بالألقاب، إذ ترى على أغلفة كتبه

(١) انظر مقدمة صون الإيمان ٦.

(٢) ١٩ / ١.

(٣) إتحاف السائل ١ / ٢٧.

(٤) انظر الملاحق في آخر الكتاب.

وداخلها أنه لا يصدر اسمه بأي لقب من الألقاب، ويكتفي بتسجيل اسمه تحت عنوان الكتاب خلواً من أي لقب، وأحياناً يصدر اسمه داخل الكتاب في الورقة التي تلي الغلاف بعبارة «المعتر بالله وحده» كما صنع في كتابه تنبيه الفكر، والظاهر أنه كتبها لغاية في نفسه، لأننا نعلم جميعاً مدى الصراع الذي حصل حول هذا الخلاف بين جماهير المتصوفة والشيخ، فلعله أراد من ذلك الإشارة إلى أنه حريص على قول الحق وإظهار الحكم الشرعي ولا يهتم من عاند أو خالف ما دام الدليل قوياً فيما ذهب إليه.

والشيخ - رعاه الله - من طبعه الميل نحو الخفاء، وعدم الظهور، فالتواضع من جبلته، والخوف من الرياء من منهجه، فكم تحدث عن «الأنا» التي هي مرض الجماعات الإسلامية، وسبب من أسباب تراجعها، وعدم توفيق الله لها، ولهذا رأينا في رده على الشيخ الذي خالفه في فتواه حول تطيب المرأة، يقدم له بين يدي رده بعض الملحوظات منها: أنه كتب قبل اسمه كلمة الشيخ فلان. والشيخ - رعاه الله - يرى أن هذا اللقب لا يطلقه المرء على نفسه، بل الناس والعلماء هم الذين يطلقونه، ومن ثم يمكن أن يكتبه المرء قبل اسمه، وقد قال له الشيخ محمد أديب في رده: إن الشيخ محمد الحامد رحمه الله هو شيخ حماة بلا منازع، ومع ذلك كان يكتب قبل اسمه الفقير إليه سبحانه وتعالى، فلم لا يكون الشيخ محمد الحامد قدوة له ولغيره خاصة أولئك الذين يزعمون أنهم يسرون على هدى الشيخ محمد الحامد رحمه الله، ولعمري كم قصم حب الظهور من ظهور، وكم أضرت «الأنا» «بإبليس»، وكم في الخفاء من عليّة وظهور، قيل:

ليس	الخمولُ	بعار	على امرئ	ذي	جلالٍ
فليلاً	القدر	تخفى	وتلك	خيرُ	الليالي

وقيل:

ملأى السنابلِ	تنحني بتواضعٍ	والفارغاتُ	رؤوسهنَّ	شوامخُ
---------------	---------------	------------	----------	--------

والشيخ على كل حال هو كغيره من العلماء المتواضعين ينتمون إلى من قال فيهم السيد
الرواس رحمه الله:

وإني في الحقيقة من أناسٍ ذوي طولٍ غيابهم حضورٌ
وقد تكون الإشارة أبلغ من العبارة، وأنوارها يراها أهل الفتوح.

* - ومما يدل على تواضعه العلمي أنه تراجع عن فتوى أفتى بها بناء على الشرح الذي
شرحه السائل، فلم يك من الشيخ - أدامه الله - بعد اطلاعه على الحقيقة إلا أن تراجع عن
فتواه، وسجل ذلك في نهاية الرسالة التي ألفها تلميذه النابه مرهف عبد الجبار سقا بعنوان
«مزيل الإلباس عن حكم التعامل مع شركة بزناس ومثيلاتها من شركات التسويق الشبكي»
«وقد قدم تلميذه لها بالقول إنه مثال للعلماء الذين لا يجدون غضاضة في الرجوع إلى الحق^(١)»،
قال الشيخ فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد رسول
الله وآله وأصحابه وبعد:

فقد سئلت عن حكم شركة التسويق عن طريق الإنترنت المعروفة بـ (بزناس)
فأجبت أولاً بالجواز، بناء على الشرح الذي ذكر لي، واستندت إلى أحكام الجعالة التي يغتفر
فيها الغرر ما لا يغتفر بغيرها، لأنها من جنس التبرعات، وغيرها من قبيل المبادلات، ثم
شُرحَت تلك الشركة بصور مختلفة ومتعددة فتوقفت عن الجواب، ثم اقتنعت أخيراً بأنها
صورة من صور القمار المحرم شرعاً.

ولذلك أعلن بأن جوابي الأول بالجواز قد رجعت عنه عملاً بما تعلمنا من شيخنا
محمد الحامد رحمه الله تعالى بأن الرجوع إلى الحق فضيلة، وأن الاعتراف بالخطأ خير من
التهادي فيه.

(١) انظر الصفحة ٦٦ من الكتاب المذكور.

وإني أهيب بأولئك الذين سمعوا جوابي الأول، وأخذوا يشيعون بين الناس لحاجة في نفوسهم بأن يكفوا عن نسبته إليّ، لأنني قد رجعت عنه، والله سائلهم عن ذلك، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأستغفر الله العظيم، وحسبي الله ونعم الوكيل

محمد أديب كلكل^(١)

* - أخيراً لا شك أن دعوة الشيخ الدائمة في كتبه إلى عدم التعصب لمذهب على حساب المذاهب الأخرى هو من أوضح الأدلة على تواضعه في العلم^(٢). وقد أكد على هذا التواضع العلمي تلميذه الأخ عماد زغرات بقوله: «عرفت الشيخ متواضعاً، لأنه يدرك أن العلم بحر عميق لا يصل أحد إلى قراره، قال تعالى: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»، فهو - حفظه الله تعالى - منكر لذاته، لا يثني على نفسه بما فيها من وجود العلم والفهم فضلاً عن أنه لا يثني على نفسه بما ليس فيها، فعندما عرض عليه هذا الكتاب قال: كيف تصنعون شيئاً من لا شيء؟»^(٣).

١٢ - غلب على كثير من كتبه التعليمية أن يلخص الشيخ - رعاه الله - في نهاية الباب أو الفصل أو البحث ما اشتمل عليه، تحت عنوان خلاصة^(٤) والغاية من ذلك التسهيل على القارئ للوصول إلى ما يريد بسرعة، وتسهيل حفظه واستذكاره، ولقناعة الشيخ بفائدة هذا المنهج العلمي أنهى كتابه حكم الإسلام في النظر والعورة بملخص عام لكل ما حوى

(١) انظر مزيل الإلباس عن حكم التعامل مع شركة بنزاس للأستاذ مرهف عبد الجبار سقا ٦٦ - ٦٧، وذكر الأستاذ مرهف أن نص الفتوى محفوظ عنده بخط الشيخ وتوقيعه.

(٢) انظر إتحاف السائل ٢ / ٥٧ - ١٢٦ - ١٥٤.

(٣) الشيخ، ٤.

(٤) انظر كتاب الفقه المبسط بأجزائه الثلاثة، وانظر حكم الإسلام في النظر ٥٩ - ١١٩ - ١٢٣ وإتحاف السائل ١ / ٨٠ - ٩٥ - ١٠٩ و ٢ / ٥١ - ٩٥ - ١٦٨ و ٣ / ١٤٧ وصون الإيمان ٩١ - ١١٨ والأضحية والعقيقة ٩٩ - ١٠٩ والحج والعمرة ٩٩.

الكتاب زيادة في الفائدة.

ويتصل بهذا صنعه الجدول الذي يبين فيه كل أعمال الحج والعمرة، وحكم كل شعيرة فيها عند المذاهب الأربعة^(١).

٤ - شعر الشيخ ونثره:

١ - الشعر:

ضمّن الشيخ كتبه كثيراً من الأشعار التي تتصل بعدد من العلوم والفنون، الأمر الذي يدل على أن للشيخ رصيداً كبيراً من الثروة اللغوية الشعرية، لذا لا عجب إن رأيناه شاعراً تفتقت عنده عيون الشعر الفائق، وانبجست من لدنه ينابيع النظم الرائق، وهو بعد ذلك من العلماء الذين اتجهوا نحو العلوم الشرعية واللغوية درساً وتدریساً وتأليفاً.

ومثل هؤلاء العلماء العاملين المشغولين بالعلم أحسب أنهم يتصيدون الساعات الشعرية، ليجودوا بما عندهم من روعة البيان، وإظهار ما يجول في خاطر والوجدان، من كرم هموم الحدثان، وتعاقب غموم الزمان، وتوالي ما يشغلهم من صروف الدهر والأوان، وعلى هذا النحو وجدت الشيخ - حفظه الله -، فهو من العلماء الشعراء المقلين في الشعر، لكن موهبته من شعره الذي بين أيدينا واضحة، وإبداعه التعبيري ظاهر، لقد عرفته شاعراً مطبوعاً، وخطيباً مسموعاً، كما عرفه كل من حضر لقاءاته الرمضانية، ودروسه الوعظية أو الفقهية، بل إنه إن أنشد الشعر أمتع، قال الأخ عماد زغرات: «عرفته شاعراً ينساب الشعر من فيه رقراقاً عذباً تطرب لسماحه الآذان»^(٢).

وقد تنوعت أغراض شعره التي بين أيدينا على النحو الآتي:

(١) الحج والعمرة ١٦٣.

(٢) الشيخ، ٢.

١ - أشعار نظمها في تقرّيط بعض الكتب التي انتهى من قراءتها، فكان ينظم بعض الأبيات مادحاً إياها، مثنياً على مؤلفيها. وقد أشار - رعاه الله - إلى ذلك بقوله: «وكان من عادتي أني كلما قرأت كتاباً كتبت عليه أبياتاً»^(١).

* - من ذلك الأبيات التي نظمها بعد انتهائه من قراءة كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى قال:

وحينما قرأت كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى قلت:

هذه الأكوانُ شعثٌ بالضياء	حينما لاح لها نورُ الشفاء
والنجومُ الزهرُ أضحتْ تزدهي	وكذا الأرضُ وما فيها السماء
خيرُ سفرٍ جاء حقاً معلناً	بيان لعظيم الأنبياء
قد شفى قلبي ولبي إنه	خيرُ ذخِرٍ خيرُ كنزٍ ودواء
يا رجالَ الحب دوماً تابعوا	خيرَ سفرٍ خيرَ هدي وضياء
اسمعوا نصحي دوماً واحذروا	أن تكونوا من رجال أغبياء
إن أردتم ذكرَ فضلِ المصطفى	اقرؤوا سفرأ مسمى بالشفاء

* - ومنها ما كتبه في ختام مطالعته كتاب طب القلوب المختار من إحياء علوم الدين

وهي:

طبُّ القلوب طيبُ الخلق كلهم	فهو الشفاءُ لذي الأسقامِ واللمم
سِفْرُ أضاءٍ بخير الهدى فهو لنا	ركنُ السعادةِ والإنعامِ والقِسَمِ
فالزُم قراءةً تسعدُ به أبداً	فهو الضياءُ وعينُ العلمِ والحِكمِ
مرجانهُ من محيط الفيض مقتطفٌ	ياقوتهُ من خضم الفضل والنعمِ

(١) اللوحة ١٣.

أعني به خيرَ تأليفِ الوري كتباً «إحياء علم» لدين الخالق الحكم^(١)

* - ومنها ما كتبه بعد قراءته لكتاب الشيخ يوسف النبهاني أفضل الصلوات على سيد

السادات وهي:

أفضلُ الصلواتِ نورُ القلوبِ
فيه الشفا فيه الدواء للذنوبِ
بيانٍ ساحرٍ حقاً أتى
معلنًا فضلاً كشافٍ للكروبِ
لله دُرٌّ مؤلف حقاً له
يوسف النبهاني جالٍ للخطوبِ
يوسف النبهان أنتَ المجتبي
في زمانٍ فيه قلبي قد يذوب
يا إمامي يا ملاذي نفحةً
فيها الشفا فيها الضياء للقلوب^(٢)

* - ومنها أيضاً ما كتبه بعد انتهائه من قراءة جواهر البخاري لمؤلفه مصطفى عمارة

وهي:

من الأسفار في حُللِ الكمالِ	أخا الأشواق أبهى ما بدا لي
كُدرٌ أو كياقوتٍ لآلي	جواهر للنبي من البخاري
بصدر أعن حسناء الغوالي	قلائد من جمانٍ أو كَحْلِي
وهل للهدي هذا من مثالِ	بهدي المصطفى زادتُ بهاءً

(١) اللوحة ١٦.

(٢) اللوحة ١٧.

أخي إن كنتَ ترجو نيلَ علم وفيضاً زاخراً من ذي الجلال
فلازمَ خيرَ سفرٍ جاءَ حقاً بخير الهدى هدي ذي جمال
محمد أحمد ديس طه مغيثُ الخلقِ مفتاحُ المعالي^(١)

* - ومن ذلك ما كتبه بعد قراءة ديوان (دعوة إلى الإياب) لأخت فاضلة تكنى بأم

محمد قال:

قرأته بسرعة
فأشرق الإيمان
وسالت من العين دمة
فتفجر البركان
والحق أعلى صوته
بالحجة والبرهان
والقلب ألقى سمعه
بحقائق الديوان^(٢)

* - ويتصل بهذا ما كتبه - أيده الله - إلى بعض أحبته من أشعار حين يهديهم كتاباً من كتبه.

من ذلك ما ذكره عن قصة مقطوعته الشعرية التي نسوقها للقارئ قال: «لقد أهداني الأستاذ الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل ديوانه «مناجاة الشموع» فقدمت إليه كتاب الفقه المبسط وكتبت له عليه: الأخ الحبيب الأستاذ عبد الوهاب الشيخ خليل، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد.

(١) اللوحة ١٧.

(٢) اللوحة ١٥.

فهذه على سبيل المجاز محاولة شعرية مسداة إلى حضرتكم، والأصل هو المقصد والمعنى لا اللفظ والمبنى^(١):

برزت سعادٌ تَمِسُّ بالثوبِ الخَمِيلُ	وبقدها الفتان والخصر النحيلُ
وبشعرها اللألاء يحكي بسمّة الـ	فجرو والخدَّ الأسيلُ
وبعطفها الريان والطرف الكحيل	وبشعرها المنشور يُزري بالأصيلُ
لتقابل «الديوان» الديوان الحبيب	«ناجي الشموع» لصاحب الشعر الأصيلُ
شاعرُ الوجدان والقلبِ السليم	النبيلُ ابنُ النبيلِ ابنِ النبيلُ
كن في هناءٍ وسرورٍ دائِمٍ	يا عابدَ الوهاب يا بن الشيخ خليل ^(٢)

٢ - المدح: والمدوحون كثر:

الأول: سيدنا رسول الله ﷺ، فقد مدحه الشيخ بعدد من المقطوعات الشعرية.

وقد أشار حفظه الله إلى أن حبه ﷺ هو شعاره ودينه دائماً قال:

حُبُّ الرسولِ شعاري دائماً أبداً وذكره دائماً فرضٌ على الأممِ

ويقرر ابتداءً أنه ﷺ لا تحيط عبارة بوصفه، ولا تقوم لغة ببيان فضائله قال في ميميته:

عددٌ محاسنَ خير الخلق إنك لا تبلغ مداها ولا حداً ولم ترم

وقد تعددت قصائد المدح لسيدنا وحبينا الرسول ﷺ فمنها:

أ - مدح يوم مولده ﷺ وذلك في مقطوعته المعنونة بـ «في ثاني عشر من ربيع الأول»

وهي:

(١) وقد رمزت لفرحي وسعادي حينما استلمت الديوان وتصفحته بـ «سعاد» فسعاد هي رمز الفرح

والسعادة.

(٢) اللوحة ٢٤.

في ثاني عشرة من ربيع الأول
وبه أتمَّ الله سعدَ عبده
يا بُشرنا يا فوزنا يا سعدنا
يا قوم هُبوبا وابدؤوا في مدحه
وبه اطربوا واستيقنوا واستبشروا

قد لاح نورُ المصطفى المستكمل
وأزاح عنهم غيهاً لم ينجل
بمحمد ذاك الحبيب الأول
لتكسبوا الخط الوفير بأول
برضا الإله المنعم المتطوّل^(١)

ويندرج تحت هذا النوع تشطيره الأبيات الآتية:

تقولُ آمنةٌ في يوم مولده
ضياءَ الحطيم وضياء الكون أجمعه
في يوم الاثنين أنوارُ الحبيب بدتْ
قد انجلى الكون بأنوار خير الورى
وأصبح الكون مسروراً ومبتهجاً
والحور ترقصُ والجنان قد فُتحتْ
وعند وضعي رأيت الطير عاكفةً
والنور يسطعُ والأملأك قد وقفتْ
وما لقيت بحملي فيه من ألمٍ
وما شعرت بطلقٍ فيه من كرب
أصنامُ مكة خرتْ عند مولده
والجن قد رميت بالشهب حين بدا
ما نال فخر النبي المصطفى أحدٌ
ما نال منصبه كلاً ولا أحدٌ

مقال حق له الأفكار تنسجمُ
جاء السرور لنا والفضل والنعمُ
فالكون يرقصُ والأملأك تزدهمُ
من مكة وانجلتْ به الظلمُ
فالعرش مضطربٌ واللوح والقلمُ
والأرض تزهو به والبيت والحرمُ
حولي وقد دُلّيت طراً لي النجمُ
حولي وقد أقبلت للبيت تلتئمُ
كلاً ولا ثقلاً أيضاً ولا وحمُ
مثل النساء التي أودى بها السقمُ
على الرؤوس وكلُّ صار منعدمُ
وأحمد النارَ جهراً وهي تضطرمُ
روحي فداه حبيبٌ شأنه عظمُ
من الأنام له البرهان والحكم^(٢)

(١) اللمحة ١٦.

(٢) اللمحة ١٨.

ب - مدح ذاته الشريفة ﷺ، فقد أفرد لها الشيخ بعدد من المقطوعات أيضاً منها تلك الميمية التي سار فيها على نسق «نهج البردة» وجاءت في ستة وعشرين بيتاً، ضمنها كثيراً من صفاته ﷺ الحميدة، وشمائله الرفيعة، ثم صوّر فيها شوقه وحنينه إلى البيت الحرام، والحجرة الشريفة، وفاضت من الأبيات روح الشيخ الصافية، وعاطفته المشتاقة المتأججة، لقد برّحت به تباريح الحب والنوى، فأظهرت أحاسيسه ولواعجه للحبيب المصطفى ﷺ قال الشيخ:

وقلت فيه ﷺ:

أمن تذكر ذات البان والعلم	أفلقت عقلاً لأهل الحلّ في الحرم
أم لاح برق الحمى النجدي فانهملت	منك العيون بدمع وافر ودم
أم مرّ فيك رجال كالشموس غدوا	كالغيث للأرض أو كالبدر في الظلم
حتى استحالت مآقي العين منك دماً	يحكي العقيق ودرأ فائق القيم
أم شعّ نور الهدى شمس الحطيم كذا	روح الوجود إمام العرب والعجم
زين البرايا ونور الخلق أهدنا	كنز العطايا شفيع الخلق كلهم
من مثله وإله العرش عظّمه	في محكم الذكر بينه لذي وهم
آيات حق من الرحمن أنزلها	كآية «النون» فاقراً بعد والقلم
روح الوجود سراج الحق أهدنا	طه الشفيع حبيب الله في القدم
كنز الهداية شمس الكون أجمعه	سرّ الحياة ضياء الخلق في الظلم
لولاه ما كانت الأكوان قد برزت	كلا ولا خلقت بل محض في العدم
ما كان موسى وعيسى والخليل كذا	إسحق يعقوب إدريس بنوحهم
من أجله ربنا الرحمن أرسلهم	فاعرف مقام رسول العرب والعجم
ذاك المقام الذي لم يُعطه بشر	كلا ولا ملك مع خير رسلهم ^(١)
عظّم (محمد) مهما اسطعت إنك لا	ترمي بزور ولا سوء ولا جرم

(١) كتب بجانبها في الأصل جبريل عليه السلام.

عدد محاسن خير الخلق إنك لا
هم بالأحبا وكن بالحب ذا وله
حبُّ الرسول شعاري دائماً أبداً
هو الحبيبُ الذي فاق الورى شرفاً
اللهُ أعلنَ في الآياتِ رفعته
في سورة «النجم» آيات مفصلة
يا لهفَ نفسي لرؤيا البيت والحرم
زينُ البرايا شفيعُ الخلق أحمدنا
هذا الحبيبُ الذي أعطاه خالقُهُ
وقد ثوى في طيبة طابت مناقبها
وقد ثوى في حجرةٍ فاقت فضائلها
الله قال: ولو جاؤوك إذ ظلموا
تبلغ مداها ولا حداً ولم ترم
واجعلْ فؤادك معموراً بذكرهم
وذكره دائماً فرض على الأممِ
والرسل طراً، وجمع الخلق كلهم
كأنها الشمسُ أو كالنار في العلمِ
كأنها النجمُ أو كالبدر في الظلمِ
ثم المطي لخير العرب والعجمِ
حبُّ الإله كثيرُ الصفح والكرمِ
كلُّ الفضائل والإحسان والنعمِ
يا ليتَ روعي بها منزوعةً ودمي
عرش السماء ولوحاً بعد مع قلمِ
واستغفروا وجدوا الرحمن ذا كرم^(١)

والشيخ - حفظه الله - مهموم لخطوب أمته، ومهموم للمصائب التي تحل بها، لذا
راح يشكو أمره للرسول ﷺ صاحب الفضل والكرم، ومضيء الظلم، قال في قصيدة عدتها
عشرة أبيات، عنوانها «يا سيد الرسل»:

يا سيدي يا رسولَ الله كنْ سندي
ما لي سواك وإني قد أتيتُ إلى
فمن يلوذ بتاج الرسل أحمدنا
أرجو من الله بالمختار يجمعنا
حاشا أضام وأنت الذخرُ يا سندي
أنت الحبيبُ حبيبُ الله في الأزل
في يوم حشرٍ عظيمٍ فائق العظمِ
رحابِ جودك يا ذا الفضل والنعمِ
يلقى القبولَ بمحض الفضل والكرمِ
في روضةِ الروض في جناتِ عدنهمِ
يا سيداً فاق رسلَ الله كلهمِ
أنت الشفيعُ صفيُّ الله في القدمِ

(١) اللوحة ١٨.

أنت الغياثُ ومنك الغوثُ أجمعه	فكن غياثي من حزني ومن ألمي
أنت الضياءُ ضياءُ الكون أجمعه	لولاك لم تخرج الدنيا من العدم
إن الشدائدَ بالمختار أدفعها	فتنجلي ظلمةُ الغمَاءِ والسقمِ
صلى عليك إلهُ العرش خالقنا	وآلك الغر والأصحاب كلهم ^(١)

والشيخ بعد هذه الشكوى يبين مدى حبه للرسول ﷺ، فهذا الحب مذهبه وعقيدته، ويدعو الله دائماً أن يحقق له زيارة القبر الشريف والحرم المكي، كي يحظى بالخبور والسرور، قال في مقطوعة جميلة بديعة، عنوانها «حبي لأحمد مذهبي»:

حبي لأحمد مذهبي	وبه هُديتُ لمطلبي
يا فرحتي يومَ اللقاء	عند المقامِ اليبْرِي
أنثر دموعَ الشوقِ في	ذاك الجَنابِ الأَهِيبِ
أناد «أحمد» قائلاً	عطفاً وجوداً يا نبي
يا رب بَلِّغْ أحمداً	مني سلام الطيب
حَقِّقْ إلهي مطلبي	في طيبة يا مطلبي
وكذاك بيتك آمناً	من كل أمرٍ مُرعبٍ
حَقِّقْ إلهي منيتي	ومقصدي ومأربي ^(٢)

وفي مقطوعة أخرى يسأل الرسول ﷺ الشفاعة من أهوال القيامة، قال: «وقلت منكسراً ولربي مستغفراً»:

العمرُ يَنْقُصُ والمنية تقربُ	ونعيمُ عيشٍ بالخطايا يذهبُ
-------------------------------	----------------------------

(١) اللمحة ١٣.

(٢) اللمحة ١٦.

يا ويلتي يومَ الماتِ وهوله
وليس لي إلا شفاعة أحمد
هادي البرية للمحاسن كلها
هو فوق كل العالمين مزيّة
صلّى عليه الله ربي دائماً
ما أمت نحو المدينة أنجُبُ^(١)
بعظيم ذنبٍ أجتنيه أعطبُ
في يوم حشر للخلائق ترقبُ
السيدُ الهادي الجليل الأنجبُ
عالي المراتب فوق كلِّ أقربُ

الثاني: مدحه لشيخه العالم الرباني الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني رحمه الله فأفرده
بقصيدة جميلة رائعة، ولا عجب فالشيخ يوسف - بل الله ثراه بوابل ألطافه ورحماته - هو
قطب شيوخ الشيخ، ورئيس أساتيده، بل هو المؤثر الأول على عقله وفكره وروحه، وقد
عنون هذه القصيدة بـ «نجم التداني بمدح سيدي الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى»
وهي:

هذي النجومُ بنورها تتألقُ
والعينُ جادت بالدموع كما الدما
شوقاً لمن عمّ البرايا هديّه
ولمن به طرقُ السعادة قد بدتْ
ولمن أتى للشرع خيرَ مجدد
ذاك الحبيبُ محب طه حسبما
ذاك المسمى «يوسف النبهاني» من
دلت على صدق المحبة كتبه
وسعادة الدارين^(٣) نعم المقتنى
والقلبُ دوماً في اضطرابٍ مُقلقُ
وعلى الحدود معينها يتدفقُ
وبه غدا علم الهداية يخفقُ
من بعد طمسٍ وانحطاط يُرهقُ
وبسيفه ظلم الجهالة تمحقُ
نقل الثقات وكلهم متحققُ
كانت له شمسُ الحقيقة تشرقُ
لاسيما الأنوار^(٢) فجرٌ يبرقُ
فيها السعادة والهداية تُرزقُ

(١) اللوحة ٢١.

(٢) ذكر الشيخ حفظه الله في هامش القصيدة أسماء الكتب التي وردت فيها وهي: الأنوار المحمدية التي
اختصرها من المواهب اللدنية للقسطلاني.

(٣) سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين، وهو مجلد كبير.

وشواهد الحق^(١) التي كشفت لنا
وفضائل الصلوات^(٣) أيضاً والثنا^(٤)
وكذلك الفتحة الكبير^(٦) فإنه
أسفاره^(٧) باحث بصدق هيامه
يا عاشقاً خير البرية أحمد
أعني بها خير التأليف التي
سر التوسل والفضائل^(٢) تلحق
والأربع الأجزاء^(٥) أيضاً تسبق
فتح القلوب وللعلوم المشرق
بمحمد ذاك الحبيب السابق
الزم نجوماً بالضيأ تتألق
هي للذي في ذي السطور محقق^(٨)

الثالث: مدحه شيخه فضيلة الشيخ محمود الشقفة رحمه الله وقد سجلنا قصيدته في كتابنا «العالم الشهيد الشيخ محمود الشقفة - حياته وآثاره» وقد صدرها بالقول:

«وقلت فيه منذ أكثر من أربعين سنة»:

جمال العلم أبدى نوره وظهر
هو ذاك الشخص «محمود» الذي
يا بشرة يا فوزة يا سعدة
في وجه من حاز الفضائل وازدهر
قد سما نبلاً وجاهاً معتبر
قد نال حظاً وافراً ومشتهر

(١) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق وهو مجلد.

(٢) الفضائل: المراد كتاب الفضائل المحمدية.

(٣) فضائل الصلوات: المراد كتاب أفضل الصلوات على سيد السادات.

(٤) كتاب صلوات الثناء على سيد الأنبياء.

(٥) الأربع الأجزاء هي المجموعة النبهانية، جمع فيها ما ينوف على عشرين ألف بيت من الشعر في مدح رسول الله ﷺ.

(٦) الفتحة الكبير كتاب في ثلاثة مجلدات جمع فيه بين الجامع الصغير والزيادة عليه وكلاهما للحافظ السيوطي، وقد رتبها أحسن ترتيب على حسب حروف المعجم.

(٧) أسفاره: كتبه وقد نافت على المئة ما بين نظم ونثر، وجلها في الحديث الشريف والسيرة النبوية والصلاة على رسول الله ﷺ.

(٨) اللمحة ٢٠.

العلم:

واللام لطفٌ حقٌّ ربُّ البشر	فالعلم عينٌ أنبعت في قلبه
قد صار مأوى للعلوم ومستقر	والميم محبوبٌ له وفؤاده
يظهر لك السر المصون المستر	انظر إلى أخلاقه وتواضعه
ترمي فؤادك بالملاحه والعبر	تدرك بذاك السرَّ حقاً متعة
خصائص منها انشقاؤ للقمـر	واسمه طبق لمن كانت له

محمود:

يا مَنْ تُردُّ سر الحقيقة والخبر	فميمة الأولى من المجد أعلم
قد خصها فيه الحكيم المقتدر	والحاء حقاً رحمة في قلبه
والواو من ود قديم مستقر	وميم ثاني الاسم من محبوه
يا فوز من قد كان فيها ذا نظر	والدال من داعي الهداية والتقى
فالزم مجالس من له حسن السير	يا من ترد نيل المراتب والعلوم
مورث من له سعت الشجر ^(١)	ذلك المذكور في هذي السطور

والقصيدة بمجملها تفيد ما للشيخ محمود من مكانة سامية ومنزلة عالية عند الشيخ محمد أديب حفظه الله.

* - ويتصل بهذا تلك القصيدة الطويلة التي عنوانها «نداء من وإلى حلب» اشتملت على مديح لبعض علمائها وأوليائها منهم أبو الهدى الصيادي وعيسى البيانوني ونجله عز الدين وأحمد الزرقا ونجله مصطفى الزرقا وآل سراج الدين منها:

بذكرهم سارت الأنباء والكتب	روحي فداءً لوراث الرسول بها
وكم بهم تنمحي البأساء والكرب	بحور علم وإصلاح ومعرفة

(١) المقالة ١٦ وكتاب العالم الشهيد ٤٤.

أبو الهدى ابنها من نسل الأكارم جا
شمس العلوم وبدّر في مسالكه
يا دوحه العلم والعرفان يا أملي
وانظر إلي بعطف منك يا سيدي
عيسى البيانوني عزّ منهجهم
وأحمد الزرقا في الشرع مرجعهم
مدرس الفقه والقانون في حرم
أما سراج الدين هم على خلق
لاسيما عبد الله من مُنَحَتْ
سَلْ عنه كتباً له في العلم سطرها
يا فرحتي في غوان كالشموس بدوا
رأيتهنّ لِدَاتِ كالزهور مَشَوْا
أمتع الطرف في حسن وفي خفير
دامت لنا في ليالي الأُنس غايه

وشمس طلعتها دوماً فلا ريبُ
من كان بحراً وعنه العلم يُكْتَبُ
إني إلى بابكم بالفخر أنسبُ
وامنح قبولاً فأنتم في السلوك أبُ
لعقد علم وإرشاد هم سَبَبُ
ونجله المصطفى الأخلاق والأدبُ
وفي دمشق علومٌ منه تُكْتَسَبُ
في ظلمة الجهل للأعداء هم حربُ
له المكارم والأخلاق والرتبُ
فيها السلوك وفيها النفع مرتقبُ
في محفل الأُنس حين الوجد والشربُ
في حسن دلّ وللآهات هم سُرْبُ
عليّ أفوز بهيفاء وأثقلُ
ودمت ما دامت بالهنا حلب^(١)

٣ - العتاب والشكوى والحنين:

وقد أجاد فيها أي إجادة، لأن الشيخ ذو إحساس مرهف، وقلب مدنف، وعواطف سامية، ومشاعر حانية، من ذلك القصيدة التي صدرها بقوله:

«وقلت معاتباً أحد الإخوان حينما انقطع عني مدة زاد شوقي إليه وقد عاهدني عهداً

موثقاً بالكتابة بأن لا يطيل الغياب»:

يا خلُّ صبري قد عفى	إلى متى هذا الجفا
أضحى الفؤاد على شفا	يا خلُّ فارفق إنه

(١) اللوحة ٢١.

يشدو أناشيد الصفا	قلبي على غصن الهوى
في حيكَم قد رفرفا	بين الأفانين التي
تغريده كي يُسعفا	يردد الأحزانَ في
يغدو بها متشرفا	بنظرة من صاحبي
رسومُ قلبي بالجفا	يا خلُّ كادت تنمحي
بِ دائم والمصطفى	وعقلي دوماً في اضطرا
والمودة والصفَا	أهكذا حق الأخوة
عاهدتني يا منصفَا	أهكذا العهدُ الذي
قّة يا فتى كنُ عارفا	أقرأه في تلك الوريـ
قد صار قلبي صفصفا	قسماً بربك إنه
كنُ وافيّاً كن ذاففا ^(١)	وختامُ نظمِي قائـلُ

* - ومن ذلك القصيدة التي عنوانها بـ «شكوى المحب لأهل القرب»

يا سادتي و به الخطايا تلعبُ	عبدٌ على أعتابكم يتقلبُ
عنكم على جمر الغضا يتقلبُ	أضحى حزناً للفراق وبعدهُ
والعقلُ أضحى للعواذل مُعْتَبُ	القلبُ من فرط الغرام مولهُ
والعينُ حقاً ماؤها قد ينضبُ	والجسمُ أضحى كالخيال إذا انمحي
كاد الفؤادُ بقيده قد يُعطَبُ	إن لم تمنوا للمحبّ بنظرةٍ
جودوا بعفوٍ ثم وصل طيبُ ^(٢)	يا سادتي يا مَنْ تعالى ذكرُكم

وعلى وتر الشكوى والحنين، والشوق إلى الأحبة يعزف أيضاً هذه المقطوعة قائلاً:

وقلت: «شكواي من طول الفراق»

(١) اللمحة ١٤.

(٢) اللمحة ١٦.

بالله يا حادي النياق	دندن بحزن واشتياق
واذكر لنا أحبة	من أجلهم تُهدى المآق
بالله بلغ سادتي	وقل لهم يوم التلاق
يا سادة يا من بهم	غدوت حقاً في المحاق
منوا علي بقربكم	جودوا وعطفاً بالوفاق
رفقاً بنا يا سادتي	إلى متى هذا الفراق
هذي الدموعُ هاطلة	هذي القلوب في احتراق
هذي العقول ذاهلة	والروح دوماً في اشتياق
جودوا بوصل علنا	نحظى بكم يوم المساق ^(١)

ومن هذا القبيل قوله: «ورأيت في أطراف بعض الدفاتر القديمة ما كتبه في الأيام

الغابرة:

أهاجك الشوق أم شافتك أقدار	أم غرد الطير فاشتقت لك الدار
أم مر فيك أهيلُ الحي فانهملت	منك العيون وضاءت فيك أنوار
إني أرى الوجد ناراً قد ضرمت بها	فما لقلبك يهفو كلما ساروا
فيا فؤادي صبراً كلما برقت	سماء رامة إن الحب أطوار ^(٢)

وثمة قطعة تمور بالحنين والشوق سماها «دندنة مشتاق» لما حوت من معاني الاشتياق إلى الأحباب، وهي مواءة بالحنين إليهم، وسرها في رموزها الدالة على مقام هؤلاء الأحباب، وآثارهم كبانة واللوى وذو طوى، فهلا طارت الروح إليهم، ورتعت في رحابهم، وحصل الوصل والوصال، قال: دندنة مشتاق^(٣)

(١) اللمحة ١٣.

(٢) اللمحة ١٦.

(٣) الدندنة: من دندن النحل، إذا طنّ وصوّت، ودندن فلان: تكلم بصوت خفي يُسمع ولا يُفهم.=

الله أكبرُ هذه الآثارُ
 وتلاّأت في الكائنات زواهر
 وحدائق من ياسمين وتَرْجسٍ
 والطيرُ تصدح والخمائلُ تزدهي
 وعلى الغصون بلابل وزواهر
 الكلُّ في ألحانه لحن الصبا
 الكلُّ في طرب وسكر دائمٍ
 الكلُّ في فرحٍ وسرٍ ساحرٍ
 هام الفؤاد بذكر بانه واللى
 نورٌ ونار في فؤاد مغرم
 يا قلبُ أنت وعدتني في حبهم
 أين الحنينُ لقربهم ووصالهم
 يا قلبُ طرنحو الحمى متسارعاً
 فإذا وصلت فقف ذليلاً باكياً
 وقل القلوبُ بقربكم تحيا وفي
 جودوا بوصل فالوصال رجاؤنا
 يا ربّ أوصلني إليك فإنه
 نفسي وذنبي والهوى هو ثالث
 ارحم قطيعةً من رجاك لوصله
 متوسلاً بالهاشمي محمد
 وبآله وصحبه لاسيما

طلعتُ فعمّت كوننا الأنوارُ
 بضياؤها تتنعم الأسرارُ
 يحيي النفوس أريجها المعطارُ
 بالحسن تيهاً والزهو فخارُ
 وشجى الجميع عنادل وهزارُ
 والكلُّ في تغريده أوتارُ
 فتمايل الوراءُ والصدارُ
 وكذا المحبُّ فشأنه استذكارُ
 وبذي طوى تترنح الأنوارُ
 عجباً لنور في المحبة نار
 أين الغرام وهذه الآثارُ
 نأت الديارُ وشط عنها مزارُ
 واقصد رحاباً بالخشوع تُنارُ
 وابد الخضوع لتقبل الأعذارُ
 هجرانكم يتهيج الإعصارُ
 وعلى التواصل تلتقي الأبرارُ
 قد عاقني مَنْ شأنه الإغرارُ
 يا واصلاً يا منعماً ستارُ
 فالوصلُ سؤلي والقطيعة نارُ
 سر الوجود معينه الفوارُ
 صديقهُ فاروقهُ الكرارُ

=والدندنة: أن يسمع من الرجل نغمة ولا تفهم ما يقول، والمراد هنا تعبير عما يختلج بالقلب وذلك أمر خفي.

وكذاك عثمانُ الشهيدُ وفضلُهُ	والعترَةُ الأبرارُ والأخيارُ
وكذا ابنُ إدريس الإمام الشافعي	هو بحرٌ علمٍ موجه زخارُ
لكنه حلو المذاقِ كأنه	شَهِدُ نقي خالصٍ معطارُ
وكذاك نعمانُ البرية هديهُ	شمسُ الضحى وضياؤها النوارُ
وبأحمد وبمالك يا ربنا	أرجو فتوحاً كله أسرارُ
وبسيدي وملاذي النبهي مَنْ	كشفَ الحقيقةَ هديهُ السيارُ
روحي فداه من إمامٍ عاشق	النظمَ والنثرَ البديعُ شعارُ
يا رب صلِّ على النبي وآله	ما ضاء نجم أو أفاق هزارُ
ما حن مشتاق وما شادٍ شدا	الله أكبر هـ هذه الآثارُ ^(١)

وما أجمل شوقه إلى حلب، وما أرق تقديمه لهذه القصيدة التي حملت من الرموز والمعاني ما لا ندركه إلا بالأمانى، وليس لنا إلا ظاهر المعاني والمباني، ولا عجب فهي أثر وارد غيبي، ينبو عن ورد عذب صاف لا يدركه إلا أهل الموارد والمكاشفات، وأسجلها كلها لما فيها من عجائب وبدائع:

«نداء من وإلى حلب»

دُعيتُ فجأةً عن طريق وارد غيبي إلى زيارة حلب في أمر، فلبيت النداء مسرعاً قبل الظهر، ورجعت مساءً من يومي، وبعد يومين عدت ثانية، وعلى إثر ذلك انطلق الفكر من إيساره، وتفلت من قيوده، وشرد، فإذا سرب من فتيات أبكار، وثيبات أطهار، بأوجه تزري بالأقمار، وأجسام ألطف من الياسمين الغض، وأرق من شعاع البدر على البحيرة الصافية ليلة غرام، لبسن ثياباً نسجتها أكفُ الربيع، من زهر المشمش الهفهاف، وزهر الدراق الفاتن، وزهر الياسمين الفواح، أرقُّ من شعور المحب، وأقصرُ من عمر الحب، تفلتن من أماتهن،

(١) اللوحة ٢١.

بنات الأفكار، وسرحن كما يسرح الشادن بين الزهور والرياض بكل زهو وافتخار.

نادى الحبيب قد اشتاقت لكم حلب	أما لكم وطرّ فيها ولا أرب
أما لكم في مغاني روضها رغب	أما لكم في رباها سادة نجب
أما لكم (غادة) في الحسن مائسة	مقصورة الطرف فيها الوجد يضطرب
قد اتخذت منكم لها أملاً	في لمّ شعث به الأعداء تصطحب
أما لكم في سنا الشهباء من رحم	في سيف دولة حمدان لكم نسب
قوم كرام فحول عند معترك	شم الأنوف مواض كلهم شهب
بيض الصحائف فعل الخير رائدhem	لا يعرفون أئاماً كلهم سحّب
خريدة القصر لا أنفك أذكرها	كأنها السحر في الإفتان والحب
كأنها الشمس تجري في محاسنها	دوماً وللحور في الجنات تتسب
هي الهناء هي النعمى بأجمعها	قد ذقت منها رضاباً كله صرب
ورحت كالخودة الخفراء إذ علمت	أن الوصال قريب هزها الطرب
روحي فداء لوراث الرسول بها	بذكرهم سارت الأنباء والكتب
بحور علم وإصلاح ومعرفة	وكم بهم تنمحي البأساء والكرب
أبو الهدى ابنها بل ابن بجدتها	وشمس طلعتها دوماً فلا ريب
شمس العلوم وبدّر في مسالكه	من كان بحراً وعنه العلم يكتب
يا دوحه العلم والعرفان يا أملي	إني إلى بابكم بالفخر أنتسب
وانظر إلي بعطف منك يا سيدي	وامنح قبولاً فأنتم في السلوك أب
عيسى البيانوني عز منهجهم	لعقد علم وإرشادهم سبب
وأحمد الزرقا في الشرع مرجعهم	ونجله المصطفى الأخلاق والأدب
مدرس الفقهاء والقانون في حرم	وفي دمشق علوم منه تكتسب
أما سراج الدين هم على خلق	في ظلمة الجهل للأعداء هم حرب
لاسيما عبد الله من مُنحت	له المكارم والأخلاق والرتب

سَلْ عَنْهُ كِتَبًا لَهُ فِي الْعِلْمِ سَطْرَهَا فِيهَا السُّلُوكُ وَفِيهَا النِّفْعُ مَرْتَقَبُ
يَا فَرَحْتِي فِي غَوَانِ كَالشَّمْسِ بَدَوَا فِي مَحْفَلِ الْأَنْسِ حِينَ الْوَجْدِ وَالشَّرْبُ
رَأَيْتَهُنَّ لِدَاتٍ كَالزَّهْوَرِ مَشَوْا فِي حَسَنِ دَلٍّ وَلِلْآهَاتِ هُمْ سُرْبُ
أَمْتَعُ الطَّرْفَ فِي حَسَنِ وَفِي خَفَرٍ عَلَيَّ أَفُوزُ بِهِفَاءٍ وَأَنْقَلِبُ
دَامَتْ لَنَا فِي لَيَالِي الْأَنْسِ غَانِيَةٌ وَدَمْتُمْ مَا دَامَتْ بَالِهْنَا حَلَبُ^(١)

٤ - نصائح وإرشادات عامة تتضمنها المقطوعات الشعرية، من ذلك ما قاله حول العلم وفضله وأثره على المجتمع الإسلامي، وقد بين في هذه القطعة الشعرية ما كان عليه المسلمون من تقدم وازدهار بسبب رقيهم العلمي، لقد كانوا سادة الأمم وأمدوا أوربة بالعلوم التجريبية والفكرية، التي مكنتهم فيما بعد ليكونوا أصحاب المخترعات

(١) اللوحة ٢٢.

- ١ - أمات: جمع لمن لا يعقل وهو الأفصح من أمهات التي لمن يعقل.
- ٢ - الغادة: الفتاة الناعمة الملمس: والمتمايلة، والمتشينة ليناً.
- ٣ - الخريدة: الفتاة البكر الحية الناعمة الساكنة.
- ٤ - الحبيب: الطل، الندى.
- ٥ - الرضاب: الريق، الرضب: العسل الأبيض.
- ٦ - الخودة: الفتاة الشابة حسنة الخلق، والخفراء: شديدة الحياء.
- ٧ - حَرَب: ويل وهلاك، الشرب: وقت الشراب.
- ٨ - السَّرب: طريق ومسلك، الدل: الدلال وحسن الهيئة والشمائل.
- ٩ - ودلت المرأة على زوجها دلاً ودلالاً: تجرأت عليه في تكسر وملاحه، كأنها تخالفه وما بها من خلاف.
- ١٠ - لدات: جمع لدة: وهي الترب بالكسر وهو المماثل في السن والمراد بسن واحدة.
- ١١ - غوان: جمع غانية: وهي المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة.

والتكنولوجيا الحديثة، فليت المسلمين يعودون إلى ما كانوا عليه، قال:

العلم وأثره:

اعلم أحيي بأن العلم مفخرة	وخيرُ ذخِر ليوم الكرب والندم
فاحرص عليه ولازم درسه أبداً	ترقى مراقي أهل الفضل والحكم
الله أعلن في الآيات رفعتَه	في محكم الذكر فاقراً «نون والقلم»
بالعلم ساد الألى والكونُ قد ملؤوا	بكل علمٍ شريفٍ وافرٍ القيم
فقهٌ وأخلاقٌ أصولٌ علمٍ مصطلح	تفسيرٌ توحيدٍ باري الخلق والنسم
فيزياءٌ كيمياءٌ تشريحٌ وهندسةٌ	طبٌّ وكل صنوف العلم والحكم
أوربةٌ علمت أن العلوم أتت	من فيض أندلس بغدادَ والحرم
من مدّن الغرب؟ من شَعّ الضياء به؟	من علّم الدنيا والهدي في الأمم
المسلمون نعم، المسلمون هم	قد مدنوا الغرب بالأعمال والكلم ^(١)

ومع حثه على طلب العلم في مقطوعته السابقة، يتابع نصحه لأحبابه وطلابه، فيقدم لهم نصائح غالية عزيزة ومواعظ راقية نفيسة، يدرك قيمتها الآباء في هذا الزمن الذي انحرف فيه الشباب، وبات الآباء في حسرة وهمّ وغمّ لما آل إليه حال أولادهم، عنوانها بـ «نصيحة» قال:

أيها الصاحبُ اقرأ
جيداً هذي السطور
والتزم ما فيها كي
تخطى بخير وسرور
إنها حقاً عبر
كن مجدداً دائماً

(١) اللوحة ١٣.

واجتنَبْ فعل الكسول
واحذر التقصيرَ في
أمر الدراسة والحمول
باجتهاد مستمر
بجميل الخلق كن متصفا
تكتب بديوان الرجال الشرفا
حسبك الصدق الجميل خلقاً
هو نعم الخلق حقاً وكفى
خير أخلاق البشر
ولداعي الله سارع والتزم
نهج الصراط المستقيم واغتنم
إن كنت ترجو رحمة تسعد بها
تنل مراتب العلا ثم النعم
وترتفع على السرر
يا خليلي استمع نصحي وكن
من رجال يسمعوا قولاً حسن
إن خير الخلق متق
ذو سجايا عالياً وفطن
كنز خير مدخر
احذر أخلاء الزمان دائماً
وابتعد عنهم دواماً سرمداً
هم كحرباء دواماً ظهروا
وأبطنوا سم الأفاعي غالباً

هم حقيقاً كالشر
هم كالذئاب الضاريات خدعة
أو كابن آوى شيمة لا مرية
فاحذرهموا طول الزمان والدهور
تلق دواماً رفعة وامتعة
إنها حقاً عبر
فبادكار وانفراد وسكوت
ملازم دائماً حتى الممات
إن سمعت النصح حقاً يا فتى
تلقى رفيع الدرجات العاليات
وتغتتم أزكى السير
وصلاة ربي والسلام الأطيب
على الحبيب المصطفى تاج العرب
كنز الحقائق والرفيع الدرجات
أحمد المختار طه المنتخب^(١)
هو أبهى من قمر

٥ - الأناشيد المدرسية: وهو فن يعتمد على الكلمات الخفيفة، والعبارات الرشيقة التي

تتناغم مع الموسيقى، مع أجمل الألفاظ الأنيقة، قال:

«وقلت أبياتاً علمتها للأطفال الصغار في المدرسة المحمدية لاستنزال المطر:

هتفنا	باسم	بارينا	لغيثٍ	منه	يُحيينا
فجدُّ	رباه	بالمطرُ	فقد	جئناك	داعينا

(١) اللوحة ١٥.

فيا رباه يا ربي	بحق النور والصبح
وفرَّجَ رَبِّ ذَا الْكَرْبِ	بأمطارٍ لتحيينا
إلهي بحق أسمائك	بحق عظيم عليائك
أغثنا فضلَ نعمائك	لتحيي زرع أرضينا
إلهي بسيد الأنس	محمد أبهى من شمس
بحق العرش والكرسي	تقبلنا بما فينا
فبالفاروق والصدیق	بأهل الكشف والتحقيق
أزح رباه هذا الضيق	بسُحبِ الجود تروينا
إلهي بحق عثمان	علي صاحبِ الشان
بأهل البيت نبهاني	أغثنا فضلك اكفينا
إلهي نحنُ أطفال	وقد ضاقت بنا الحال
أغثنا أنت مفضل	إله العرش بارينا
إلهي غاضبِ الأنهار	وجف النبعُ والآبار
أغثنا فضلك المدرارُ	بنور النور هادينَا
إلهي قد أتيناك	بصدقٍ قد دعوناك
فلا تمنعنا نعماك	بحقك أنت آميناً ^(١)

٦ - أغراض متنوعة:

ضمنها تشطيرات وتحميسات لأبيات شعرية، الأمر الذي يدل على براعة الشيخ،

وقدرته الشعرية وهي:

(١) اللمحة ١٩، وما زلت أذكر هذه الأنشودة حين كنت طالباً في المدرسة المذكورة، رحم الله هاتيك

المدارس والمنازل، ورحم الله الشاعر:

تذكرت والذكرى تهيجُ لذي الهوى ومن عادة المحزون أن يتذكرا

أ - تشطيره بيتين لحسان بن ثابت رضي الله عنه من قصيدته الهمزية المشهورة قال:

«قلت مشطراً بيتين لسيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه:

قرأنا في الضحى ولسوف يعطي
إله العرش أحمد ما يشاء
عطاء الله فوق العقل حقاً
فسرّ قلوبنا ذاك العطاء
وحاشا يا رسول الله ترضى
وأهل الحب بالنيران باؤوا
فلن ترضى ولن ترضى وحاشا
وفينا من يعذب أو يساء^(١)

ب - تشطيره أيضاً بيتين في التقى والزهد في الدنيا قال:

«وقلت مشطراً هذين البيتين:

اترك الدنيا جميعاً
وكذا السوء لتربح
واجعل التقوى مزاداً
إن تقوى الله أرجح
واقرع الباب قليلاً
بالدعا صدقاً لتنجح
وانتحب وابكي طويلاً
فلعل الباب يُفتح^(٢)

ج - تخميسه بيتاً فيه مناجاة وشوق ومحبة قال:

«وقلت مخمّساً بيتاً:

مولاي ذكرك في الأسحار هيمني
ونشر نورك في الأكوان تيمني
فهمتُ فيك وكاد الشوق يحرقني
ذكرُ المحبة يا مولاي أسكرني^(٣)
وهل رأيت محباً غير سكران

(١) اللمحة ١٧.

(٢) اللمحة ١٧.

(٣) اللمحة ١٧.

السمات الفنية لأشعار الشيخ ونثره

هذا ما عثرنا عليه من شعر الشيخ - وفقه الله ورعاه - ومع رقي هذا الشعر مبنىً ومعنىً وصورةً وخيالاً وموسيقىً، نرى الشيخ يتواضع ويقول بعد انتهائه من هذه القصائد: «هذا ما قلته مما يسمى شعراً، لأنه مجرد كلام مصفف، وهو محاولة شعرية معبرة عن شعور رجل في مرحلة معينة، والمحاولة قد يصيب صاحبها وقد يحالفه الصواب، وقد يتعثر فيرتج عليه ولا يبلغ المراد، وأنا من هذا الصنف، وإنما قلت كلاماً عبرت به عما يجول في خاطري، وينقدح في عقلي،» ثم يقرر بأن هذه القصائد قالها في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي^(١).

والحق الذي أحسبه أن شعر الشيخ يعد من الشعر الراقي الدال على ملكة شعرية عند الشيخ، فهذا هو قد نوع أغراضه، وراعى بحوره، وألبس أشعاره حلة عربية قشبية، ففي تشطيره وتحميسه لأبيات شعرية مهارة، وفي تقريظه للكتب التي قرأها جدارة، وفي حنينه وشكواه وعتابه مرارة، وفي نصائحه وإرشاداته منارة، وفي مدحه للرسول ﷺ، وللعلماء الأولياء صدق في العبارة، وراقي في الوجد والشوق والحب والوله يصل إلى الندارة، حلق بخياله حين مدح الشيخ يوسف النبهاني بقوله:

هذي النجوم بنورها تتألق والقلب دوماً في اضطراب مُقلق

فصعد إلى النجوم في عليائها، ثم انطوى إلى قلبه المضطرب القلق فكأنه بهذا الانتقال من النجوم إلى القلب شهاب ساطع ترك علياءه والتفت إلى ما يعاينه قلبه من حب وشوق إلى تلك النجوم الزاهرة الجذابة، وأتبع هذه اللمحة الجميلة مظاهر هذا القلب المضطرب فأبرزها في تلك الدموع الحارة الدامية الهاطلة الغزيرة التي حفرت أخاديد على الخدود لألم الفراق،

(١) اللوحة ١٣.

وشدة الوجد، والهام بالحبيب المصطفى ﷺ الذي عمّ هديه البرايا، وراح يطوف بخياله على مزايا الشيخ «يوسف» محب طه، ثم رجع مرة أخرى ليحلق إلى تلك النجوم ليرى الشيخ هناك في عليائه بكتاباتِه وتآليفه المباركة، وذلك حين قال في نهاية المقطوعة:

يا عاشقاً خير البرية أحمد الزم نجوماً بالضيا تتألق
أعني بها خير التأليف التي هي للذي في ذي السطور محقق

والشيخ إلى جانب هذا الخيال، وصّاف مبدع ورسام مفنّن، ندرك ذلك من قصيدته المعنونة بـ «نداء من وإلى حلب» فقد شبه أحبابه فيها بغادة حسناء مائسة مقصورة الطرف، كأنها الشمس يل هي كاحور العين رضاها الشهد، وهي الهناء والنعماء على كل حال، فبعد أن رسم هذه الصورة الجذابة الرائعة، وضع لمسته الأخيرة عليها حين قال: إنها خودة خفراء قد شعرت بقرب الوصال فلم تتمالك من فرحتها بهذا اللقاء نفسها فراحت وقد «هزها الطرب»، ولو تأملنا الأبيات التي وردت فيها هذه الأوصاف لرأينا شعراً يأخذ بمجامع القلوب وترتاح له النفوس وتسعد، فالصور بديعة، والألفاظ موحية تتناسب مع المشهد، والتراكيب مؤثرة تتناغم مع الموسيقى العذبة التي لحنها الشيخ باختياره قافية الباء المتفقة مع نهاية لفظي حلب، و«الحب» والحب هو الذي دفع بالشيخ إلى الإسراع في تقديم هذه الصورة الشعرية التي امتزج فيها الخيال مع العاطفة والموسيقى والجمال، ثم انظر إلى وصف الشيخ حين سلط قدرته التعبيرية إلى تلك الغادة، لترى كيف ترقى بسرد أوصافها إلى أن وصل إلى القول:

هي الهناء هي النُعمى بأجمعها قد ذقتُ منها رِضاباً كُلَّهُ ضَرَبُ

فماذا بقي بعد أن صارت هي الهناء وهي النعماء؟

لقد تدرج الشيخ قبل ذكره هذا البيت فأورد الأوصاف الحسية الجميلة والمعنوية الراقية ثم التقت هذه الأوصاف جميعاً بقوله: هي الهناء والنعماء. فله در الشيخ على قدرته في

الوصول إلى قمة المعنى، فكأن الهناء في نهاية الأمر هو إكليل يضعه على أوصافها الحسنة البديعة، وسجايها الرقيقة.

وتبرز دقة الشيخ في الوصف في مدحه للرسول ﷺ وذلك في قصيدته الميمية التي عنوانها «يا سيد الرسل»

وأولها:

يا سيدي يا رسول الله كنّ سندي في يوم حشرٍ عظيم فائق العظم
ففي هذا البيت نلاحظ تسلسلاً معنوياً يتجلى في مناداته للرسول أولاً ليكون له سنداً
ثانياً، وذلك في يوم الحشر العظيم المليء بالمصاعب ثالثاً، فأجاد الشيخ في هذا التسلسل
المعنوي المنطقي، وكأن الصورة أمام القارئ واضحة جلية تماماً، وكل ذلك حصل في بيت
شعري واحد، ثم يتقدم الشيخ ليقدم شخصية الرسول ﷺ الذي يطلب شفاعته، والشفاعة
تتطلب الكرم والجود والفضل، فذكر ذلك كله في الأبيات التالية، ووسع وصفه ليذكر شمائل
هذا الشفيع - ﷺ - إلى أن وصل إلى القول:

أنت الضياء ضياء الكون أجمعه لولاك لم تخرج الدنيا من العدم
ففي هذا البيت نشعر أن الشيخ حفظه الله وصل بنا إلى قمة المعنى، وإلى أجل صورة
أرادها في نهاية الصور الجزئية الفرعية التي قدمها ابتداءً في الأبيات السابقة، فالرسول ﷺ هو
الضياء الذي ينير السبيل في دياجير الظلمات، وهو المرشد المنير لهذا الكون أجمعه، ولفضله
ﷺ ومكانته، وهديه وتشريعه خرجت الدنيا من العدم، لتحيا بهذا الضياء وترشد بذلك
النور - ﷺ - وهذا هو الرسول ﷺ الذي التجأ إليه الشيخ في أول بيت قاله طالباً منه
الشفاعة يوم لا ظل إلا ظل الله تعالى، فما أجمل هذا الربط بين أبيات المقطوعة، وما أعذب هذا
الترادف في الصور، وما أنبل هذه المعاني النفيسة في شخصية الرسول ﷺ تلك التي ذكرها

الشيخ، بأبلغ عبارة، وبأحسن سبك، وأعذب موسيقى.

والشيخ - حفظه الله - يستخدم ذخيرته اللغوية وفق الموضوع الذي يتحدث عنه، ويضيف إلى ذلك ما اختزنه من علم المعاني والبيان، ليخرج البيت الشعري مزداناً بكل جميل، فالشكوى في قصائده التي ذكرناها تستلزم الجمل الإنشائية لما فيها من قدرة على تصور الشكوى، وإبراز العاطفة التي تومئ إلى إحساس الشاعر ففي مقطوعته المعنونة بـ «شكواي من طول الفراق» نلاحظ القسم والنداء وأفعال الأمر قال:

بالله يا حادي النياق	دندن بحزن واشتياق
واذكر لنا أحبة	من أجلهم تهدى المآق
بالله بلغ سادتي	وقل لهم يوم التلاق
يا سادة يا من بهم	غدوت حقاً في المحاق
منّوا علي بقربكم	وجودوا عطفاً بالوفاق

فأضفى بهذه الصياغة التعبيرية جواً يتناسق مع الشكوى التي يريدناها، ولا ينسى حفظه الله تأثير الموسيقى على إشاعة جو الشكوى، فلجأ إلى قافية القاف لتعطي الجرس الموسيقي المناسب لألم الفراق، وكم أبدع حين اختار الألف اللينة قبلها، ليدل بذلك على مدى البعد والنأي الذي يعانيه، فكأن القاف بعدها إيذان بنهاية البعد، وحصول اللقاء المأمول.

ومثل ذلك صنع في مقطوعته التي عاتب فيها أحد إخوانه لانقطاعه عنه، فترى أيضاً الجمل الإنشائية حيث وظفها أحسن توظيف، فهناك الاستفهام في قوله: «إلى متى هذا الجفا» و«أهكذا حق الأخوة» و«أهكذا العهد الذي».

كما نرى النداء وأفعال الأمر أيضاً، وذلك في قوله: «يا خل صبري قد عفا» «يا خل كادت تنمحي» «قسماً بربك إنه» «كن وافياً كن ذا وفا».

وهكذا نَوَّع في أسلوبه الإنشائي ليعبر بذلك عن عتابه^(١).

وهو لا ينسى أيضاً الجمل الخبرية الهادئة الرتيبة التي تأتي طبق الموضوع الذي يريده، ففي مقطوعته التي قرّظ بها كتاب طب القلوب - وهي ستة أبيات - لا تجد فيها إلا جملة واحدة إنشائية وهي قوله:

فالزم قراءته تسعد به أبداً فهو الضياء وعين العلم والحكم^(٢)

وبدهي أن هذا المسلك اللغوي لا يستقيم دائماً ولا يطرد، ففي النظم قد يحتاج الشاعر إلى تنويع جملة، لأن المعاني التي يريدتها مختلفة، ولهذا رأينا الشيخ وهو المتمكن من لغته يمزج في بعض قصائده بين الجمل الإنشائية والخبرية، لتتناسب مع معانيه وعواطفه المتغيرة، ففي قصيدته «العتاب» نراه بدأها كما ذكرنا بالاستفهام ثم بالنداء ثم بالنداء مرة ثانية ثم بفعل الأمر ثم بجملة خبرية، وذلك كله يتضح من قوله:

إلى متى هذا الجفا يا خلُّ صبري قد عفا
يا خلُّ فارقٍ إنه أضحى الفؤاد على شفا

فكأنني بالشيخ - رعاه الله - وقد اشتد به الشوق إلى رؤية صاحبه، تأججت عاطفته، فأثمرت جملاً إنشائية، وما إن هدأت، وسكنت حتى أثمرت جملاً خبرية، فتم بذلك الاتزان اللغوي الذي أعطى الأبيات جمالاً ورونقاً.

وكان سكون عاطفته استمر فنراه يأتي بأربعة أبيات بعد ذلك لا نرى فيها جملة إنشائية. لكن لواعجه وحبّه ثارت مرة ثانية فعادت الجمل الإنشائية مرة ثانية، وأجمل ما فيها قوله في البيت الأخير:

(١) وانظر قصيدته «نصيحة» لترى مدى اعتماده على الجمل الإنشائية أيضاً.

(٢) وانظر تقرّظه أيضاً لكتاب «جواهر البخاري» فأكثره جمل خبرية، وكذا تقرّظه لكتاب «أفضل الصلوات».

وختام نظمى قائل كن وافياً كن ذا وفا

إذ نلاحظ أنه ضمنه في شطره الأول جملة خبرية جميلة تمثل حالة وداع مكتوبة، ثم جعل شطره الثاني جملتين إنشائيتين، تعبران عن مدى ثوران عاطفة الشيخ تجاه صاحبه الذي وعده فأخلف، فلم يستطع الشيخ إلا أن يأتي بجملتين ليؤكد على أن عاطفته متأججة مشبوبة.

فلله دره على هذا النظم المعجب والمعنى المنيف^(١).

وهذا التنوع بين الإخبار والإنشاء رافقه تنوع أيضاً بين الجمل الاسمية والفعلية، ويكفي أن نورد بيتاً واحداً لنرى الجمال التعبيري في هذا التنوع، يقول مشطراً بيتين لسيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه، منهما البيت:

عطاء الله فوق العقل حقاً فسرّ قلوبنا ذاك العطاء

فقوله: «عطاء الله فوق العقل حقاً» هو جملة في جوهرها اسمية تفيد ثبوت هذا العطاء، وجاءت كلمة حقاً لتؤكد هذا العطاء الكبير الكثير، فهذا العطاء هو الحق، وهذا الحق هو العطاء، كلاهما واحد، وما إن أثبت هذا العطاء وأكدده راح يستخدم الجملة الفعلية «فسر قلوبنا» الدالة على التجدد والاستمرار، لأن هذا العطاء الكبير من خصائصه أنه عطاء مستمر دائم لا ينتهي، ولا يقال إن الشطر الثاني ليس من صنع الشيخ، لأننا هنا ننظر إلى حسن الاستخدام، وبراعة الصنعة، إذ عرف الشيخ جمال مواقع الكلمات والجمل، فأحسن صياغتها وأجاد استعمالها.

ومثل ذلك قوله في قصيدته «دندنة مشتاق»:

الله أكبر هذه الآثار طلعت فعمّت كوننا الأنوار

فتلاحظ ابتداءه بجملة اسمية لتقرير أن الله سبحانه وتعالى أكبر من كل كبير، فهي حقيقة ثابتة ناسبتها الجملة الاسمية، وأتبعها بجملتين فعليتين تناسبان المعنى الذي هدف

(١) وانظر قصيدته «دندنة مشتاق» لترى هذا التمازج بين الجمل أيضاً.

إليه، فهذه الآثار مستحدثة وكذلك انتشار الأنوار، لذا استخدم حفظه الله الجملتين
الفعليتين، فتم التناسب والتناغم بين الجمل للوصول إلى المعنى العام، وفي اختياره البحر
الكامل، وقافية الراء بعد الألف اللينة موسيقى شجية ندية، تملأ القطعة جمالاً وانسياباً
وسروراً، لذا عبّر عن ذلك بقوله في البيت:

الكلُّ في فرحٍ وسرٍّ ساحرٍ وكذا المحبُّ فشأنه استذكارُ

نعم إن هذا الفرح وهذا السرور، وحال المحب مما ثبت حصوله واستغرق من الوله
فناسبته الجمل الاسمية، ولولا خوف الإطالة لأتينا إلى كل بيت من هذه القصيدة نتلمس فيه
مواضع الإبداع والأصالة والصياغة الشعرية الجميلة.

والشيخ كما ذكرت وأكدت مراراً ذوّاق وصاحب أذن موسيقية، وإحساس مرهف،
لذا نراه يعتني بالقافية التي تتفق مع المعنى وتوائمه، ففي القصيدة نفسها نجد قافية الراء
وقبلها الألف، فالراء تفيد التكرار، كما أن الشوق في قلب المحب مستمر لا يهدأ فكأنه يتكرر
ويتجدد ولا يتوقف، والألف قبلها تفيد ذلك البعد والنوى مما يهيج العاطفة والشوق،
والناظر في كلمات هذه القصيدة يرى حرف الراء خاصة يتكرر كثيراً ليشيع نغمة موسيقية
مكررة تتطابق مع خلجات القلب، واضطرابه عند ذكر الأحبة والشوق إليهم.

ونوع الشيخ في بحوره الموسيقية، فاعتمد البحر البسيط^(١)، والهزج^(٢)، ومجزوء

(١) كقوله:

يا سيدي يا رسول الله كن سندي في يوم حشر عظيم فائق العظم

(٢) كقوله:

هتفنا باسم باريننا لغيث منه يحينا

الكامل^(١)، والوافر^(٢)، والرمل^(٣)، والكامل^(٤) وغير ذلك.

مما أشاع في قصائده موسيقى عذبة، وأنغاماً جميلة، تناسقت فيها الحروف والكلمات والجمل والحركات والسكنات. وأضاف إلى ذلك كله، قدرته على استعمال الشعر الحر، الشبيه بالنثر، على النحو الذي رأيناه في بعض مقطوعاته.

وما دمنا نتحدث عن الموسيقى علينا أن نعرض على تلك الأنشودة المدرسية التي تعد مهرجاناً موسيقياً ممتعاً، لما فيها من تنوع للقافية، ولأن بحر الهزج بأوزانه «مفاعيلن مفاعيلن» ينسجم مع حركة الأطفال الصغار وأصواتهم الشجية الندية، وهم يرددونها:

هتفنا	باسم	بارينا	لغيث	منه	يحيينا
إلهي	نحن	أطفال	وقد	ضاق	بنا الحال
أغشنا	أنت	مفضل	إله	العرش	بارينا

وما أحوجنا الآن إلى مثل هذه الأناشيد الجيدة نحفظها أولادنا بدلاً من تلك الأغاني المرذولة التي أفسدت هواء السماء بدنسها ورجسها وروائحها الكريهة التي تأنف منها النفوس الحرة الأبية.

(١) كقوله:

حبي لأحمد مذهبي و به هديت لطلبي

(٢) كقوله:

قرأنا في الضحى ولسوف يعطي إله العرش أحمد ما يشاء

(٣) كقوله:

هذه الأكوان شعت بالضياء حينها لاح لها نور الشفاء

(٤) كقوله:

هذي النجوم بنورها تتألق والقلب دوماً في اضطراب مقلق

ويلتفت الشيخ أيضاً إلى المحسنات البديعية لينقشها على أسلوبه فتظهر الصورة في غاية الجمال، ففي قوله:

نورٌ ونازٌ في فؤادٍ مغرمٍ عجباً لنورٍ في المحبة نازٌ
ترى الجناس ظاهراً بين النور والنار، كما تراه في تكراره للفظه النور والنار أيضاً^(١).

وفي قوله:

أين الحنين لقربهم ووصالهم نأت الديار وشط عنها مزارٌ
ترى الطباق بين القرب والنأي، كما ترى الجناس بين النأي والشط.

ومثله قوله:

ارحم قطيعة من رجاك لوصله فالوصل سؤلي والقطيعة نار
فجناس بين قطيعة الأولى والثانية، وطابق بين الوصل والقطيعة.

وتظهر براعة الشيخ أيضاً في دقته حين استخدم جذر لفظة الوصال والتواصل وذلك في قوله:

جودوا بوصل فالوصال رجاؤنا وعلى التواصل تلتقي الأبرار
وفي شعره الذي خصه بالشكوى والحنين نلاحظ لجوءه إلى استخدام بعض الألفاظ التي تستوجب الرحمة والعطف، فهو يناديهم بقوله: «يا سادتي» ويطلب منهم أن يمنوا عليه بالقرب، ويجودوا عليه بالعطف والكرم^(٢).

بل يصرح صراحة بأنه عبد على أعتابهم والعبد بحاجة إلى العطاء وإلى الجود وإلى

(١) لله دره كيف جمع النور والنار في قلب المغرم في آن واحد، لكنه نار الشوق مع نور المحبة واللقاء.

(٢) انظر قصيدته «شكواي من طول الفراق».

العفو وإلى الوصال^(١).

ومن مظاهر استخدامه اللغوي الرائع، ذلك التصغير الدال على الحنو والعطف، وذلك حين قال في قصيدته «نصيحة»:

اعلم أُخَيَّ بأن العلمَ مفخرةٌ وخيرُ ذخرٍ ليومِ الكربِ والندمِ

ومن ذلك استخدامه نداء النكرة المقصودة، وذلك في قوله:

يا قلبُ أنت وعدتني في حبهـم أين الغرامُ وهذه الآثارُ

وما ذاك إلا لأن الشيخ نفسه هو صاحب هذا الشوق لكنه حين يريد التعميم تراه يستخدم النكرة غير المقصودة وذلك كقوله^(٢):

يا عاشقاً خيرَ البرية أحمد الزم نجوماً بالضيـا تتألقُ

فهو هنا يدعو أيَّ عاشقٍ للرسول ﷺ، فهو من جهة يؤكد على كثرتهم، ويحرص على أن يكون هذا العشق هو عشق خير البرية من جهة ثانية، وقد ساعده في ذلك التركيب الإضافي ليتم حصر هذا العشق بخير البرية أحمد ﷺ.

وإذا تطلب المعنى الاقتباس من القرآن الكريم نجد الشيخ قادراً على ذلك، من ذلك قوله في قصيدته «العلم وأثره»:

اللهُ أعلنَ في الآياتِ رفعته في محكمِ الذكرِ فاقراً «نون والقلم»

ومنها قوله في مدح الرسول ﷺ:

الله قال ولو جاؤوك إذ ظلموا واستغفروا وجدوا الرحمن ذا كرمٍ

فيا سعادته ما أعلى لغة الشيخ، وما أرقى بيانه، وما أرفه إحساسه، وما أحر عاطفته،

(١) انظر قصيدته «شكوى المحب لأهل القرب».

(٢) من قصيدته «نجم التداني».

وما أجمل موسيقاه، وما أسرع تأثيره في القلوب والعقول - كثر الله فوائده ونفع بعلمه -
وسوف نقف على مزيد من قدرة الشيخ التعبيرية حين نعرض لنثره فيما يأتي:

ب- النثر:

تميّز الشيخ - رعاه الله - بلغته السهلة الواضحة الدالة على تمكنه من علوم العربية
أصولها وفروعها، فتراثه اللغوي ثرّ معطاء، انعكس على أساليبه التعبيرية، وطرقه البلاغية،
ففي أصعب الموضوعات العقلية تلك التي تستلزم لغة خاصة، ترى الشيخ أديباً مفتحاً إذ
استطاع أن يصوغها بأسلوب بسيط واضح لا لبس فيه ولا غموض، يفهمه المختص
والعامي^(١)، فهو ناثر رائق، وشاعر فائق، واضح العبارة، طريف الإشارة، بديع الأسلوب،
المعي التنوّع، فأحياناً يستخدم الجمل الإنشائية إن كان الموضوع يتناول ما يناسب هذه الجمل
كالوعظ والإرشاد والتحذير والتنبيه والتخويف والتهويل، قال عنه تلميذه النابه عماد
زغرات: «إذا تكلم تلاًّلاً الكلام من فيه ياقوتاً ومرجاناً»^(٢).

ففي حثه على الطاعات، وقيام الليل خاصة، أورد عدداً من الآيات التي تحض عليه،
وأردفها بعدد من الأحاديث الشريفة الحاثّة عليه أيضاً، وذيلها بأقوال التابعين والصالحين،
ثم قال بأسلوب أدبي راق، كأنه واقف على المنبر موقظاً الهمم، ومثيراً العزائم، مضمناً ذلك
كله الأسلوب الإنشائي من نحو النداء والاستفهام، والأمر والنهي ما نصه: «يا أخي المسلم
أتدري كيف مر على العباد الليل؟ ألك علم بما جرى للقوم، يا أسير الغفلة والنوم؟ قم وانتبه
أيها الغافل، ولا تدع قيام الليل، فإنه روح وريحان ونضرة ونعيم... الحقّ بأقوام تتجافى
جنوبهم عن المضاجع، واقتد بمن أنزل عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلثِي اللَّيْلِ

(١) انظر كتبه المؤلفة في الفقه لتقف على ما ذكرناه.

(٢) الشيخ ١.

ونصفه وثلثه ﴿وكن ممن مدحهم الحق جل وعلا﴾ ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾^(١) والزم أقواماً صفتهم ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ وحاول أن تكون ممن ﴿يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾^(٢).

وإذا كان الموضوع إخبارياً محتاجاً إلى الجمل الإخبارية التقريرية وجدته محافظاً عليها، منسّقاً بينها، رابطاً بين أفكارها، فكأنه قطعة نسيج واحدة، من ذلك حديثه عن الإيمان بالله تعالى:

إن أقرب الطرق إلى التعرف إلى هذه العقيدة الحية، وأوضح المسالك لغرسها في النفوس غرساً قوياً ثابتاً شاخهاً مع ما ينتجها من طمأنينة قلبية، وقناعة عقلية، وهدوء نفسي، وراحة فكرية، وصفاء روحي، هي طريقة التأمل والتفكير في آفاق الكون، والوقوف على دقائق الخلق، وبديع الصنع، وهي طريقة القرآن الكريم ومسلكه في عرض الإيمان الواضح الذي لا لبس فيه ولا غموض، وترسيخ قواعده في النفوس، وإشعال نوره في الصدور، فنظرة يلقيها الإنسان إلى ما في هذا الكون من عجائب الخلق، وما احتواه من غرائب الصنع، سماء مرتفعة، ونجوم زاهرة متألئة، وأجرام سماوية محكمة الخلق متقنة الترتيب في سيرها ونظامها، ونظرة أخرى يلقيها إلى الأرض وما فيها من نبات ذي ألوان متنوعة، وطعوم متفاوتة، وروائح مختلفة، مع أنها تسقى بماء واحد، وتنبت في أرض واحدة، لأدرك أنه لا بد لهذا الكون العجيب من خالق خلقه وأتم صنعه وأتقنه هو واجب الوجود، وخالق الخلق سبحانه وتعالى^(٢).

وهو في سوقه هذه الجمل يردفها بجمل قصيرة مترادفة تتضمن كل جملة معنى خاصاً،

(١) تنبيه الفكر ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) صون الإيمان ١١.

تنصب هذه المعاني جميعها في غاية واحدة، وهي المعنى العام الذي يريده، فكأن القارئ بعد أن استقر المعنى الأساس في ذهنه، أراد الشيخ تأكيد هذا المعنى وإيضاحه فزوده بتلك الجمل القصيرة الإخبارية المترادفة الدالة على غزارة الشيخ اللغوية، انظر معي إلى هذه الجمل الصغيرة التي تنصب في معنى عام لكنها - كما ذكرت - ذات مضامين معنوية خاصة بها، وترتبط في الوقت نفسه بالمعنى العام المراد، مثال ذلك قوله عن آثار التبرج: «ومتى تفلت المرأة من تلك القيود، وتجاوزت الحد المحدود، انقلبت ثورة عارمة، وناراً محرقة لا تبقي ولا تذر، وأضحت في متناول كل يد أثيمة، وفقدت عففتها وطهرها، ومزقت برقع حياؤها وفضائلها، وتطلعت إليها كل نفس خبيثة شريرة، وحلّ في المجتمع الشقاء، وعمّته الفوضى، وانتشر الفساد، وأضحى جحيماً لا يطاق، فلا استقرار ولا هدوء، ولا راحة ولا هناء، ولا صيانة ولا عفة، ولا فضيلة ولا خلق، بل خطر كبير، وشر مستطير، وقلق وشرد، وتهتك وانحلال، وسقوط في هوة سحيقة لا يدرك مداها، ولا راحة للمجتمعات البشرية إلا برجوع المرأة إلى قيودها وحدودها، وملازمة خدرها، والاعتلاء على كرسي مملكتها^(١)».

وهكذا تتوالى الجمل الصغيرة الفعلية والاسمية لتصل إلى المعنى العام وهو التنفير من التبرج، وكل ذلك بأسلوب ممتع مشوق، والشيخ عنده القدرة أيضاً على الجمع بين الجمل الخبرية والإنشائية مع أن ما يتحدث عنه يمكن تقديمه ضمن نوع واحد من الجمل فهاهو - حفظه الله - يدعو قومه إلى العفاف والطهر، ويحثهم على ذلك فيقول: «ألا ليت قومي يعلمون، وعن تلك العوائد القبيحة، والسلوك المنحرف يقلعون، وبأخلاق الشريعة وأحكامها يستمسكون وبحبل الله يعتصمون، وإلى دينهم يعودون، ومن نبع الطهر والفضيلة يرتشفون ويتطهرون، وبتراثهم الخالد وصرحهم الأخلاقي التليد يعتزون، وإلى الله

(١) حكم الإسلام في النظر والعورة ١٣١.

يتوبون»^(١).

فنراه في هذه القطعة الأدبية الجميلة يبدؤها بجملة إنشائية ينبه بها قومه ويتمنى لهم ما يمكن صنعه.

مما ذكره بعد ذلك ثم انتقل إلى الجملة الخبرية القصيرة ذات الموسيقى الجميلة لانتهائها بالواو والنون، فنشعر بعاطفة الحزن والأسى تنبعث من ثناياها، ونتبين مدى تأثير الشيخ بحال قومه وما آل إليه.

وهكذا يجمع الشيخ بين المباني والمعاني، فالمضامين سامية، والألفاظ والجمل تكاثفت بأساليب بسيطة فصيحة مؤثرة معبرة، وهو ما يرومه الشيخ منها.

ويحاول - أحياناً - وهو بصدد مناقشته العلمية أن يقترب من مناقشه، فكأنه أمامه، ومن شدة اعتقاده بفكرته، وحرصه على توصيلها لمخاطبه، يستحلفه ويقسم عليه أن يجيبه، فترى جملة الإنشائية ذات الوقع الموسيقي العنيف في أسلوبه، تتفق مع عاطفته الثائرة حتى تصل إلى قمة الحماس للفكرة، ثم لا تلبث أن تعود هادئة مطمئنة كأنها برد اليقين.

اقرأ للشيخ ما كتبه، في ردوده على أولئك الذين أقنعوا أنفسهم أن ذكرهم شرعي، فقال لهم الشيخ في أحد ردوده: «قل لي بربك يا أخي»^(٢)، كيف يصح أن تقول آه آه، مطلقين هذه الكلمة على أنها اسم من أسماء الله تعالى، مع أنها مأخوذة من التأوه الناتج عن ألم وضيق؟ وهي من أسماء الأفعال كما يقول علماء اللغة، فـ «آه» اسم فعل مضارع بمعنى أتوجع، وهذا من صفات الحوادث، والله سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً

(١) حكم الإسلام في النظر والعورة ٧٨ وانظر تنبيه الفكر ١٣٧.

(٢) وانظر مثل هذه العبارة أيضاً في إتحاف السائل ١ / ٢٣.

كبيراً» [الإسراء: ٤٣] ^(١).

وانظر إلى براعته في الأسلوب كيف أنهى الردّ بالاعتباس من القرآن الكريم هذه الآية الكريمة التي جاء بها في موضعها واضحة مؤثرة.

وكما نوّع - حفظه الله - بين الجمل الإنشائية والخبرية لتأدية الغرض، نراه أيضاً ينوّع بين الجمل الفعلية والاسمية - كما مر معنا سابقاً - ليلوّن أسلوبه بألوان مشوقة فهاهو يقول عن القرآن الكريم: «إنه قانون إلهي، ونظام سماوي، أحكامه لا تتغير وإن تغيّر الزمان، وحدوده لا تتبدل، وإن اختلف المكان فهو الكافل بإسعاد الأمم بعد شقائها، وإحياء الشعوب بعد موتها، ويصون أعراضها، ويحمي أموالها، ويبوئها مقاماً محموداً، ويكسوها شرفاً مؤثلاً، فهو روح الحضارة وسر النجاح، ومبعث التقدم والعمران، وطريق الرقي والاطمئنان، وسلم المدنية والأمن والأمان» ^(٢).

فترى من هذا النص الجمل الاسمية والفعلية مترنة متوائمة، تترافق للوصول بالقارئ إلى نهاية المعنى بأبسط مبنى، وأوضح أسلوب.

ولا أعتقد أن أحداً قرأ للشيخ وأخذ على أسلوبه أنه غامض أو مضطرب أو ركيك، فمن مظاهر هذا الأسلوب أنه يتفق مع القارئ مهما كانت ثقافته، فالعامي يفهمه، والمثقف يدركه، والمتخصص يعجبه، وهذا سر أسلوبه وروعة بيانه.

لقد منّ الله عليه بنصاعة البيان وقوة الحجة، وإظهار الأدلة، وصحة السبك، ووهبه القدرة على تنوع أساليبه اللغوية، إذ يعطي كل نوع من أنواع موضوعاته حقه من الأسلوب، فإن كان الموضوع علمياً تجده ذا عبارات علمية دقيقة واضحة، انظر لذلك أي نص من

(١) تنبيه الفكر ٩٤.

(٢) تنبيه الفكر ١٣٧.

نصوص كتبه الفقهية فترى أسلوب الفقهاء، إحكام العبارة، والبعد عن الإشارة، قال تحت عنوان ما يعفى من النجاسات: «يعفى عن دم الفصد والحجامة والقروح والدمامل من نفس الشخص، وإن كثر بغير فعله، ويعفى عن قليل دم من أجنبي إن لم يكن مغلظاً... إلخ»^(١).

فأنت لا شك معي أننا لا نستطيع حذف كلمة واحدة من هذا النص الدقيق، وقد أخرج الشيخ بأسلوب دقيق أيضاً وواضح، وهكذا الشأن في كل كتبه العلمية والفقهية.

أما إن كان الموضوع وعظيماً فترى أسلوب الشيخ ذا عبارات مترادفة متلاحقة تدل على غزارة لغته، وكثرة مفرداته، مع عاطفة تشع من أسلوبه تتناسب مع ما يريد، قال راداً على دعاة تحرر المرأة: «كم من إرهاب عصبي، ووهن فكري، وقلق وحيرة، وتوقد شهوة تحدثها في شباب الأمة وأبنائها، فتعتصر شبابهم، وتذوي نضرتهم، وتمتص طاقاتهم، وتبدد قواهم، وتجعلهم بلهاء حيارى مشدوهين لا يعرفون إلا الشهوة، ولا يستفيقون إلا على الفتنة، ولا تتركز أفكارهم وعقولهم إلا بها فيه المتعة الجسدية، وهذا أمر لا يحتاج إلى برهان نظري»^(٢).

فانظر رعاك الله إلى ترادف جملة «كم من إرهاب عصبي، ووهن فكري، وقلق وحيرة، وتوقد شهوة تحدثها.... فتعتصر، وتذوي، وتمتص، وتبدد... إلخ، كل ذلك أضفى على أسلوبه جمالاً وموسيقى امتزجت مع عاطفته التي عبر عنها باختياره لألفاظ «وتعتصر، وتذوي، وتمتص..» الدالة على الحزن والأسى على هؤلاء الشباب الذين وقعوا ضحية انحلال المرأة وإفسادها.

وقد يكون الموضوع متصلاً بالسلوك والتهذيب والتصوف عامة فترى الشيخ يصول ويجول بإشراقاته الروحية المؤثرة على أسلوبه الصافي النقي، فهو لعباراتهم فاهم، ولرموزهم

(١) الفقه المبسط ١ / ١١٩.

(٢) حكم الإسلام في النظر ١٤٢ وانظر ما ذكرناه سابقاً في الصفحة ٢٢٤ عن تبرج المرأة.

ناشر، تدخل عباراته إلى سويداء القلب لتمتزج بالروح كي يشع منها ضياء الهداية ونور الاستقامة، من ذلك حثه على الاجتهاد في العبادة في العشر الأواخر التماساً لليلة القدر، قال بعد أن أورد حديثين شريفيين يحضنان على هذا الاجتهاد: «إن في رمضان ليلة مباركة، ليلة يسح فيها الخير سحاً، وتفتح فيها أبواب السماء، ويسمع فيها الدعاء، وتهبط ملائكة الرحمة إلى الأرض تصلي وتسلم على كل عبد ذاكر قانت منيب، قد طهر قلبه من دنس الغفلات، ونقى نفسه من أوضار الأغيار، وأشعل فيه مصباح الهدى والرشاد»^(١).

وأعلى من هذا قوله عن التصوف: «إن التصوف قوامه الذكر والعبادة، والتأمل والطاعة، وهو منضبط بضوابط صارمة من الكتاب والسنة، وثمرته التجلي والمحبة وما ينتج عنهما من إلهام وصدق حال، وبين بدايته ونهايته أحوال ومقامات، ومعارج ونفحات، سرها الترقى الدائم في صفاء القلب وإلهامات الروح وإشراقات الحس»^(٢).

فانظر إليه كيف استخدم مصطلحاتهم وأبرزها بأسلوب واضح، ظاهر تشع منه روحه - حفظه الله - وصفاءه، ومنهجه في السير نحو الله، وهو المنهج المنضبط - كما قال - بالكتاب والسنة.

والحق أن الشيخ - رعاه الله - صاحب أسلوب رشيق، حافظ عليه في كل كتبه وتأليفه، استطاع به أن يقرب البعيد ويجلو الغامض، ويعطي كل مقام مقاله بجمل تناسبه، وألفاظ توائمه، بحر زاخر، وغمام ماطر، والله يعطي الفضل لمن يشاء^(٣).

ومما سبق نتبين أن الشيخ - أيده الله بتوفيقه - أديب - فله من اسمه نصيب - وناثر

(١) الفقه المبسط ١ / ٣٤٤.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٦٨.

(٣) انظر أقواله لتقف على مظاهر أسلوبه الثري بشكل واضح تماماً.

من القلوب قريب، فشعره فائق، ونظمه رائق، علامة بالأساليب اللغوية، سواء أكانت شعرية أم نثرية، يدهشك مقاله، ويأخذك شعره، وتأسرك أفكاره، ويروقك خياله، وتجذبك معانيه لأن أهدافه من نشره وشعره سامية، وغاياته نبيلة، لذا علت راياته، وارتفعت غاياته، فسما بأدبه إلى القمم العالية لتكون نبراساً لمن ضلّ الطريق، ومشعلاً لمن سار في ليل بهيم، نور الله مداده ونفع به عباده.

الفصل الخامس

مناقب الشيخ وما وقع له

لم يكن الشيخ - حفظه الله - في يوم الأيام ممن يتحدث عن نفسه، أو يحاول أن يبرز نفسه، فهو دائم الذكر أن «الأنا» وحب الظهور كم قصمت من ظهور، وهو يرى أن مصاب الحركات الإسلامية هو «الأنا» ومصاب العلماء هو الغرور- أحياناً - ومصاب السالكين إلى الله هو حب التطلع إلى مثل هذه الترهات من نحو جذب وشطح وسلب إلى آخر ما يشغل المرید عن طلب الحقيقة والرقى إلى درجات الكمال، وكم من مرة سمعناه يقول: إن الأولياء يستترون من الكرامة كاستتار المرأة من حیضها، وإن الاستقامة هي عين الكرامة ولهذا رأيناه ينهي إجابته حول المعجزة والكرامة في كتابه إتحاف السائل بما قاله الشيخ سعيد البرهاني حين سئل أن يروي شيئاً من كراماته قال: «ليس عندي كرامات ولست أهلاً لها، وقد ألح عليه أحدهم وشدد على الشيخ فأجابه: «ليس عندي إلا كرامة واحدة إذا أحببت أن تسميها كرامة وهي أنني أصلي الأوقات الخمس مع الجماعة»^(١). وأكد في موضع آخر «أن الأولياء من الصالحين يعتبرون أن الكرامة العظمى هي الاستقامة على أمر الله والالتزام بمقتضيات الكتاب والسنة في سائر الأعمال»^(٢). ونقل عن السيد أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى قوله: «من أظهر الكرامة فهو مدّع، ومن ظهرت عليه الكرامات فهو ولي، إلا أن الولي من ولي وجهه عن

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٣٣.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٣٢ - ١٣٣.

النفس والشيطان والدنيا والهوى^(١)، وانتهى إلى القول: «فهل فهم هذا الكلام من يدعي الكرامات، وهو تحت طي الكرى مات، والذي يشتغل عن الحقيقة بالمنامات وهو تحت طي المنى مات»^(٢).

ولكن الشيخ ظهرت له منح من الله وعطايا، وكرم من الكريم الوهاب ومزايا، عرفها طلابه الصغير منهم والكبير، وبعضها حدث به، والعارف بالله قد يفاض عليه فلا يستطيع إلا الحديث، فلعل ذلك تشجيع للطلاب، ورغبة للأحباب، وتثبيت للمترددين الشاكين من الأصحاب، فمما وقفنا عليه:

١- أن الشيخ وهو صغير كان يقف بعد أداء صلاة ما ليعظ الناس، أو يتحدث عن حكم فقهي لحظه على أحد المصلين، وذلك في المسجد الشرقي في حيه فكان يتهيب هذا الموقف، وترتجف رجلاه ويخاف من أن يرتج عليه، فرأى في المنام الشيخ يوسف النبهاني - رحمه الله - وتفل في فم الشيخ محمد أديب، ومنذ ذلك الحين لم يعد يتهيب أي موقف، بل إن الأفكار مع الألفاظ تتداعى إليه سراعاً وتتراحم، وذلك بفضل هذه الرؤية - والله أعلم -.

٢ - ذكر الأستاذ غالب أن أحد إخوانه في حماة، كان يتردد على الشيخ محمد أديب بعد سفر الأستاذ غالب إلى السعودية فكان كلما رزق الأستاذ غالب بمولود بنت أو ولد كان الأستاذ الشيخ يخبرهم بأنه رأي في الحلم، أحمل مولودة أو مولوداً، فكانت أحلامه كفلق الصبح لا تتخلف^(٣).

٣ - ذكر الأستاذ عوض القناني، أنه وقف مع الشيخ بعد انقضاء الصلاة أمام دكان

(١) إتحاف السائل ٣/ ١٣٢-١٣٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تجربتي مع الشيخ ٢٧.

الحاج «حمدو الرجب» الملاصقة للجامع الشرقي، وقال لي إنني رأيت في المنام أن بين يديك غلاماً وكان قد فات على زواجي، قرابة شهرين فقط، فاطمأنت إلى أن يسر الله ورزقت بمولود أصر الشيخ على تسميته بـ «محيي الدين»^(١).

٤ - شكنا المنشد عبد الكريم حجازي يوماً قلة الزبائن، إذ كان صانع أحذية، فأعطاه ورقة كتب فيها بعض الأدعية وأوصاه بأن يلقيها في نهر العاصي، وما إن فعل حتى فتح الله عليه، وكثرت الزبائن^(٢).

٥- أخبرني أخي هشام بأنه قبل أن يغادر حماة منذ ثلاثين سنة، رأى في المنام الشيخ محمود الشقفة، ومعه الشيخ محمد أديب، أمام منزل الشيخ محمود الشقفة، وأمامهما السيارة البيضاء الأمريكية التي كان يستقلها الشيخ محمود في ذهابه إلى مسجد التكية، وأضاف قائلاً: سمعت صوتاً يقول صاحبه: هذا أبو بكر الصديق، مريداً الشيخ محمود رحمه الله، وهذا عمر بن الخطاب مريداً الشيخ محمد أديب - حفظه الله - نفع الله بهما وبمعارفهما..

٦- سمعت من الشيخ ومعي الحاج ممدوح طهماز وغيره، أنه رأى في المنام ابنة الشيخ أبي الهدى الصيادي - رحمه الله - فاطمة بحضور الشيخ محمود الشقفة - رحمه الله - فناولته مجموعة من كتب والدها هدية، مع الإجازة بالطريقة الرفاعية.

٧- أخبرني مساء يوم الجمعة المصادف لـ ١٩/٤/١٤٢٩هـ حين هاتفته بأنه رأى البارحة في المنام الشيخ محمود الشقفة رحمه الله، وقال له يا شيخني لو سجدت على جمر الغضا لما أدبت لله سبحانه وتعالى شكره على ما أنعم به علي من فضل، فنظر الشيخ إليه وهز رأسه قرير العين.

(١) من ذكرياتي ٨ .

(٢) تجربتي مع الشيخ ٢٩ .

٨ - وفي اليوم الثاني عشر من رجب الفرد عام ١٤٢٩ هـ رأيت في المنام كأنني في التكية والشيخ حفظه الله جالس على درج يؤدي إلى ممر كأنه شرفة، وبجانبه رجل من الصالحين لا أعرفه والشيخ أديب ينادي بأعلى صوته في الناس: تعالوا وانظروا إلى وجه الشيخ محمود، وجثمان الشيخ محمود مسجى في هذه الشرفة، ويقول للناس: هل هذا وجه ميت أم حي؟ وكأن الشيخ يريد بيان كرامة للشيخ محمود ومنزلته وإظهار أن وجهه ينضر بالحياة مع أنه ميت - رحمه الله -.

٩ - ذكر الأستاذ غالب - حفظه الله - أن الشيخ أخبره بأنه قرأ في كتاب الأم للإمام الشافعي قضية تتعلق بوعده يصدر عن شخص لآخر بأنه (أي الآخر) إذا اشترى سلعة ما فسوف يشتريها منه بسعر أعلى ليربحه فيها، ثم بعد أن يشتري الآخر الساعة يتراجع الأول عن وعده، فالحكم أنه يحق له الرجوع في وعده وأنه غير ملزم بتنفيذه. فعلق بأن الوعد هو تعهد وملزم لمن أصدره وإلا كان ذلك تغريراً وتوريطاً للآخر. ثم بعد أيام من ذلك جاءه شخصان من حمص وطرقا الباب عليه مساء، وعرفاه بنفسيهما، وقال له أحدهما: لقد رأينا فيما يرى النائم الإمام الشافعي وطلب مني أن آتي إليك في حماة ودلنا على بيتك وأرانا صورتك وهي نفس صورتك الحقيقية إلا أنك في الحلم أكثر صحة منك في اليقظة وأبلغك تحيته ومحبتة لك. وكان هذا الحلم بمثابة تأييد له لما رآه في الحكم الذي قرأه في القضية، ومنهجه الشمولي في النظر فيها.

ولقد علمت بهذه القصة أيضاً من مصادر أخرى وحمد الله وأثنى عليه لتوفيقه وفضله.
وما أحسن قول الرواس:

الله أيديني وأعلى مظهري وأقامني روحاً لذي الإذعان
فاختارني حبي لخدمة قدسه وبفيض أنواع القبول حباني

١٠ - أخبرني الحاج ممدوح طهماز - رعاه الله - مساء يوم الاثنين في صيف عام

١٤٢٨هـ في شهر جمادى الأولى، حين قدم إلى مكة المكرمة معتمراً أنه سمع من الشيخ أن الشيخ - رعاه الله - في حجته الثانية عام ١٣٩٤هـ - ١٩٦٢م كان معه مجموعة من الحجاج، جاؤوا عن طريق البر بسيارة تكسي، وفي الطريق، قال السائق: إن البنزين نفذ ولا يكفي للوصول إلى محطة البنزين، ولا ندري كم تبعد عنا الآن؟ فانبرى الشيخ - حفظه الله - وقال له: «لا تقف امشِ وسر على بركة الله» ووضع السائق رجله على دعسة (ضاغط) البنزين، والشيخ يقول له: «لا ترفع رجلك أبداً واتكل على الله، وإذ بالسيارة تتابع سيرها ولم تتوقف حتى وصلوا إلى محطة البنزين، وساروا على هذا الحال مسافة ١٦٠ كيلو متر، وتعجب السائق والقوم كيف سارت السيارة على هذا الشكل مع أن البنزين، قليل جداً وربما هو نافذ، والسائق متأكد أن البنزين في خزان السيارة لا يكفي أبداً لقطع هذه المسافة وأضاف الحاج ممدوح طهماز - وهو من تلاميذ الشيخ المقربين - بعدئذ أن الشيخ أديب - زاده الله مدداً - رأى - قبل أن يقول السائق بأن البنزين نفذ، الشيخ أحمد الحارون - رحمه الله - الولي المشهور صاحب الكرامات التي يعرفها الناس والعلماء - وهو جالس على رفراف السيارة من الأمام ماداً رجله، فعرف أن شيئاً سيحصل معهم، وكأن الشيخ أحمد الحارون كان إشارة لما حدث ولا نعلم بعد ذلك شيئاً، فلعل الله استجاب للشيخ محمد أديب دعاءه حين حصل الأمر واشتد الخطب. ولأهل الله أسرار عجيبة يدركها الموفقون.

١١- أخبرني الأخ موفق بن عمر السفاف بحضور عبد المنعم الأمين وأخيه منذر الأمين في ليلة الجمعة، من شهر شعبان سنة ١٤٢٦ هـ في مكة المكرمة أنه سمع الشيخ محمد أديب في أحد دروسه الصباحية في شهر رمضان الكريم، يقول منفلاً خارجاً عن طوره ويقظته وهو بصدد تنبيه المصلين إلى عدم رفع رؤوسهم قبل الإمام في الركوع أو السجود، ذاكراً لهم الحديث الشريف الذي يفيد أن من يفعل ذلك يخشى عليه من أن يصير رأسه رأس حمار، - قال وهو منزعج من هذا الفعل - «والله لقد رأينا بعض الرؤوس رؤوس حمير» وأكد

ذلك الأخوان عبد المنعم ومنذر الأمين وأضاف الأخ عبد المنعم الأمين بأنه سمع من الشيخ أيضاً في أحد دروسه الوعظية العامة - وهو في حال انفعال شديد - أنه سمع أصوات بعض من يعرفهم وقد ماتوا، وهم يصرخون من العذاب متأثراً عليهم، وداعياً لهم بالرحمة، وقد أكد هذه الرواية أيضاً الأخ عبد العزيز الأمين حفظه الله.

١٢- علمت أن الشيخ في عمرته الأولى، طلع على أصحابه الذين كانوا معه ومنهم الحاج ممدوح طهماز وعادل فندقجي صباحاً متهللاً قائلاً لهم: أبشروا لقد أذن لنا بعمره ثانية في العام القادم، وفي العام القادم أتوا جميعاً وقد جلب الشيخ ولديه علي وزاهر لرؤيا رآها لا نعرفها، والآن كلما اتصلت بالشيخ داعياً إياه للحضور حاجاً أو معتمراً يجيبني: «إذا جاءت البشارة ركبنا الطائرة»، وأخبرني مرة: «أننا تركنا نافلة العمرة الآن لأننا لا نستطيع ترك الناس هنا في البلد، فهم في حاجة إلى الفتاوى وحل المشاكل...» قال لي: «وهذا منهج شيخنا الشيخ محمد الحامد - رحمه الله -» والله أعلم.

١٣ - في ثورة حماة عام ١٩٦٤م بدأ الجيش بتفتيش البيوت في حماة بيتاً بيتاً، وحين وصلت مجموعة من الجيش إلى «دار المشايخ» مساء بعد صلاة العشاء كانت حلقة الذكر مقامة، فسمع الجنود أصواتاً ظنوها أصوات أناس يبكون على ميت لهم، ولم يدخلوا الدار لتفتيشها^(١).

١٤ - وفي التفتيش الذي حصل عام ١٩٧٨م في شهر نيسان دخلت مجموعة من الجيش منزله، فكانوا مع شراستهم هينين ليّنين يريدون إرضاء مع اعتذارهم الشديد له، وقد تعجب الجيران وأهل الحي من هذه المعاملة غير المعهودة.

أما حين ذهب مرة إلى الأمن العسكري فقد هياً الله له ضابطاً عليه أمارات الصلاح،

(١) من ذكرياتي ٩.

فعامله أحسن معاملة، وفتح له نافذة الزنزانة ليتنفس الهواء النقي، ثم أفرج عنه بعد خمسة عشر يوماً^(١).

١٥ - وفي أحداث حماة عام ١٩٨٠م فتش الجيش كل بيوت الحي ماعدا بيت الشيخ فقد تركوه ولم يطرقوا الباب، وكأن الله أعماهم عن البيت.

١٦ - وفي أحداث حماة الدامية عام ١٩٨٢م حصل للشيخ قصة تظهر منها عناية الله بالشيخ، رواها محبة الحاج ممدوح طهماز - حفظه الله - لبعض إخوانه قال: توجّهت صباح أول يوم بدأت فيه أحداث حماة إلى مزرعتي القريبة من حماة لاستشعاري أن المعركة فيها يبدو ستتشب، وسوف تحتدم المعارك، واصطحبت معي أسرتي كلها، وما إن خرجت من منزلي خطر على بالي الشيخ محمد أديب وأسرته، وقلت في نفسي: يا ترى إلى أين سيذهب الشيخ مع أسرته وهو مريض وأولاده صغار؟ فرجعت مسرعاً من منتصف الطريق تقريباً، وتوجهت نحو بيته وطرقت الباب، وفتح لي - حفظه الله - وبعد السلام عليه والتحية قلت له: يا شيخني من الواضح أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، لذا أرجو أن تأتي معنا إلى مزرعتنا خارج البلدة، فأطرق الشيخ لحظة وقال: نعم، الآن كنت أقول للأولاد أين الحاج ممدوح؟ وغادرنا البلدة - كما يقول الحاج ممدوح - جميعاً وبقي الشيخ عندنا في المزرعة أكثر من عشرة أيام، ثم فجأة عزم على الانتقال مع أسرته إلى مزرعة أخرى لأن الشيخ فيها يبدو شعر أن مزرعتنا ضاقت لكثرة الناس والأقرباء الذين جاؤوا إليها هرباً من الأحداث التي تشهدها البلدة، وحاولت إقناعه بأن يبقى معنا لكنه أصرّ على الذهاب إلى مزرعة أحد معارفه ليوسّع على الناس، ثم جاء أحد الإخوة راكباً دراجة نارية (موتوسيكل) وقال للشيخ: إن الجيش واقف عند مكان ذكر اسمه هذا الأخ فأريدك أن تتبّه لذلك، فقال له الشيخ: «اذهب أنت

(١) من ذكرياتي ١٠.

وسر على الطريق العام، ونحن سنسير بمحاذاة الطريق العام أسفل الوادي وعلى جنباته حتى لا يرانا الجيش» وسار الأخ وأسرع في سيره فلحظه الجيش وانطلق بعض منهم وراءه ورموه بنيران رشاشاتهم، لكنهم لم يصيبوه، ونظروا فرأوا الشيخ مع ولديه وراحوا يرمونه بنيران رشاشاتهم أيضاً، فقال الشيخ لولديه: «الظاهر أننا انتهينا، انطلقوا بالشهادتين والحمد لله على كل حال» وفي هذه الحال رأى الجيش مرة ثانية الأخ الذي يركب الدراجة النارية لأنه رجع بعد أن سمع إطلاق الرصاص ليطمئن على الشيخ ونفسه تحدثه بأن الشيخ قد استشهد، ولكن الجيش حين رآه مرة ثانية صوبوا بنادقهم مرة ثانية عليه وتركوا الشيخ وكأنهم ظنوا - حيثئذ - أن الشيخ ومن معه قد ماتوا، في حين أن الشيخ وولديه ما زالوا في أسفل الوادي، ثم عاد الجيش ونظروا إلى أسفل الوادي وجنباته فلم يروا أحداً، وتوقفوا عن إطلاق الرصاص على الشيخ وولديه وكان الله أعمى أبصارهم، وظنوا أن الشيخ قد مات مع ولديه، ثم سار الشيخ ببطء شديد وبحذر على جنبات الوادي، إلى أن قطعوا مركز الجيش المقام على الطريق العام، ونجوا جميعاً من هذه الواقعة، وبعد مدة، قال له راكب الدراجة: والله يا شيخني أنا نظرت إلى أسفل الوادي فلم أرك ولم أرَ ولدك، قال الشيخ له: «كنا نراك ونرى الجيش، ولكنهم - والحمد لله - لم يرونا في النهاية، لأن الأجل لم ينته، فلكل أجل كتاب» وبقي الشيخ عند هؤلاء حتى انتهت الأحداث، ورجع إلى بيته

١٧ - وقد غادر الشيخ حماة قبل الأحداث متوجهاً إلى الأردن الشقيق، واستأجر بيتاً في محافظة ماذبا، ودفع العربون، لكنه رجع بعد أن رأى الرؤيا التي ذكرناها حين ترجمنا للشيخ محمود الشقفة رحمه الله، ولا داعي لذكرها مرة ثانية، فليرجع إليها من أراد وهي تدل على تلك الصلة الروحية الراقية الدائمة بين الشيخ وتلميذه. فما هذه الدنيا إلا ظلال ووراءها عجائب وأسرار.

١٨ - طلبت مني والدتي وكنت يومها في الصف السادس الابتدائي شراء أغراض لها

من بقالة (الحموية) المشهورة في الحارة، وطيشاً مني لم أقم بتلبية طلبها قائلاً لها: اطلبي من أحد إخوتي ليعلمك في ذلك. فانزعجت - حفظها الله - وتألمت لأنها كانت بحاجة إلى هذه الأغراض، وفي اليوم الثاني ذهبنا مع الشيخ بعد صلاة الفجر للعب الرياضة بالقرب من ثانوية عثمان الحوراني لأن الشيخ - كما ذكرنا - أسس نادياً رياضياً لنا أسماه (نادي الفجر الإسلامي)، وبعد أن مارسنا لعبة كرة القدم قفلنا راجعين إلى المسجد الشرقي ثم لتتفرق من هناك إلى بيوتنا، وأفاجأ بالشيخ ونحن راجعون يمسك بيدي ويقول لي: «إن عقوق الوالدين يا رياض كبيرة من الكبائر، اذهب الآن وأرض أمك» وخجلت كثيراً، وامتقع لون وجهي، وانزعجت من والدتي لأنها أخبرت الشيخ بذلك، وحين وصولي البيت وجدت الوالدة - حفظها الله - تنتف ورق الملوخية، وعاتبته بشدة منزعجاً قائلاً لها: لماذا أخبرت الشيخ بما حصل؟ فأكدت لي وأقسمت - على ما أذكر - بأنها لم ترسل أحداً إلى الشيخ لتبلغه، ولا علم لها، ولا يخطر ببالها أن تبلغ الشيخ.

والحق أن فراسة الشيخ عجيبة، لقد كنا في دار المشايخ نخاف من المجيء إليها إن كنا مقصرين في شيء من الأمور الشرعية، كتأخير وقت صلاة، أو حصول مشاجرة مع بعض الإخوة، أو التكلم بغيبة، لأننا على اعتقاد بأن الشيخ سيلمّح إلى ذلك، ما إن ينظر في وجوهنا.

١٩- تردد الشيخ رشيد الراشد التاذفي إلى الشيخ محمد أديب مراراً وتكراراً، وكان الشيخ محمد أديب يحسن وفادته، فكان يقدمه أحياناً لإلقاء الدرس الصباحي في شهر رمضان إن كانت الزيارة في هذا الشهر، وفي إحدى الزيارات لم يقدمه الشيخ محمد أديب لإلقاء الدرس لأن الشيخ كان يسير فيه وفق منهج وضعه ويريد تحقيقه، ولعل ذلك - كما قال الأخ غالب المصري -: أثار حفيظة الشيخ رشيد، وعكّر قلبه قليلاً، وظن أن الشيخ محمد أديب فعل ذلك اعتداداً بنفسه وإهمالاً للضيف أو تعالياً عليه، فحاول من خلال التوجه القلبي والروحي عليه أن يوقفه عن الدرس، ويصبيه بالعجز عن الاستمرار فيستغلق عليه الكلام

وتضيق منه الأفكار، وصارح الشيخ محمد أديب بذلك، وأخبره أنه فعل ذلك مع كثيرين قبله فلم يقدرُوا على متابعة الكلام «إلا أنت، وهذا دليل إخلاصك، وتمكنك، وثقتك بنفسك، وتأيد الله لك» وقد لقّنه ولقّنا كما يقول الأخ غالب المصري - الطريقة النقشبندية، وأذن لنا بوردها، وأخذنا ذلك منه تبركاً بذكر الله تعالى، وبطريق الصالحين في التربية والسلوك إلى الله تعالى^(١).

٢٠ - قدّم أخي في أمريكا لي طلباً إلى إدارة الهجرة هناك لإعطائي الجنسية الأمريكية بناء على القانون المسمى عندهم (بلم الشمل) وذلك منذ عام ١٩٨٤م، وقد أرسلت لي السفارة الأمريكية في الرياض عام ٢٠٠٠م نموذجاً ملئته ثم السفر إلى أمريكا لأجل الحصول على ما يسمى بـ «كرين كارت» أي «الكرت الأخضر» الذي يسمح لحامله الإقامة الدائمة في أمريكا، وفعلاً سافرت مع الأسرة وحصلنا على الإقامة الدائمة، ثم رجعنا إلى محل إقامتنا وهو المملكة العربية السعودية، وبعد شهور ذهبت لتحرير ما يسمى بالبصمات وعدت، ثم بعد سنوات اتصلوا بي وأخبروني بأن هناك امتحاناً باللغة الإنجليزية لابد من اجتيازه، وأرسل لي أخي بقائمة الأسئلة التي سأسأل عنها، ودرست هذه الأسئلة وحفظتها عن ظهر قلب، وعزمت على السفر، فاتصلت بالشيخ محمد أديب مستشيراً - لازال لنا هادياً ودليلاً - كعادي في كل مرة أسافر فيها، وقلت: يا سيدي إنني متردد جداً جداً، وأخاف أن يكون حصولي على هذه الجنسية هو ضرب من الولاء بما تعنيه هذه الكلمة، لكنني مضطر إلى الحصول على جواز سفر أدبر شؤون حياتي وأسرتي، فقال: «اذهب، فأنت مضطر، والضرورات تبيح المحظورات» ثم اتصلت به مرة ثانية مبدياً له ترددي فقال لي: «إذا عزم فتوكل على الله، لا تتوقف، خاصة أنك لن تقيم مع أسرتك هناك» وأضاف قائلاً: «هل تعرف

(١) تجربتي مع الشيخ ١٥ - ١٦.

عبد الله طربين؟ ذلك الرجل المجذوب الذي كان في حي الشرقية، وعُرف عنه أنه لا يتكلم؟ قلت: نعم، قال: «أمسكت به مرة وقلت له: لا بد أن تكتب لي إن لم تتكلم، وشددت عليه حتى كتب لي البيت الشعري المعروف:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا

لذا أقول لك: اذهب ولا تتردد «وفي الطائرة أخرجت ورقة الأسئلة لأراجعتها وأستذكرها لأن الامتحان سيكون في اليوم الثاني من وصولي، وجلس في الطائرة بقربي رجل عراقي تبين لي بعد ذلك أنه طبيب بيطري، ورآني أقرأ الأسئلة التي سأمتحن بها، فأخبرني بأن هناك أسئلة أخرى جديدة وضعت للأجانب بعد أحداث سبتمبر ولا أراها معك ضمن هذه الأسئلة، وأضاف: إن زوجتي رسبت بسبب الأسئلة الجديدة، وفوجئت بذلك فسبحلت وحوّلتُ لأنني لا شك سأرسب في هذا الامتحان وقلت: كله خير إن شاء الله، وسأنويها زيارة لإخوتي هناك، مع العلم أنني سافرت بناء على طلب إجازة اضطرارية من الجامعة مدتها تسعة أيام فقط، وحين وصلت مطار شيكاغو كان أخي ينتظرنني، ومباشرة قلت له: أين الأسئلة الجديدة يا صفوان؟ وسردت له القصة، قال: والله لا أعرف، وسوف أستخرجها لك حين نصل إلى البيت من «الإنترنت» وفعلاً استخرجها فإذا هي كثيرة مختلفة عن التي حفظتها، فما العمل، وليس أمامي إلا هذه الليلة؟ لأن الامتحان سيكون في اليوم الثاني، وقلت له: ترجمها لي بسرعة، فأدركت أن الإجابة عنها إما بالإيجاب أو بالنفي، فحفظت مواضع الإيجاب فقط، وقلت: إن سئلت عن غيرها فهي من مواضع النفي، أما الأسئلة القديمة فإني حافظ لها ولا يهمني أمرها، وصباحاً توجهت إلى مبنى الامتحان بصحبة أخي، وحين نادوني، جاءني امرأة زنجية كبيرة السن وقلت لها باللغة الإنجليزية: أرجوك أن تسأليني ببطء، فأجابت بـ «نعم» وأنه لا مشكلة في ذلك، وسبحان الله راحت تسأل وأنا أجيب، والإجابات كلها صحيحة، وكانت سهلة جداً ويسيرة وغاية في اللطف، مع أنني كنت

خائفاً جداً من موظف يهودي يضع على رأسه شارتهم اللعينة، وكان التسلسل الرقمي يحتم أن أكون عنده، لكن لا أدري ما الذي حصل؟ فإذا بهذه المرأة الزنجية تنادي على اسمي ورقمي، وتم الامتحان عندها بدلاً من أن يكون عند ذلك اليهودي الذي رَسب العرب والمسلمين، وبات معروفاً عند العرب هناك، وحين خرجت من الامتحان ناجحاً أدركت أن لطفاً من الله وعناية رافقتني في هذه الرحلة، وذلك ببركة دعاء الوالدة - حفظها الله - ودعاء الشيخ - رعاها الله -، فوجود الأخ العراقي بقربي في الطائرة، ثم امتحاني عند هذه المرأة الزنجية بدلاً من اليهودي، ثم لطف هذه المرأة ويسر الأسئلة، ومن قبل سهولة الحصول على الإجازة الاضطرارية من الجامعة، كل ذلك ما أظنه ميسراً إلا ببركة دعاء الوالدة ودعاء الشيخ، وتتوالى هذه البركة حين اتصلوا بي بعد يومين من النجاح طالبين مني الذهاب إلى المحكمة، ثم الحصول على جواز السفر، وهذا أمر لا يتحقق إلا في النادر، لأن المدة بين النجاح في الامتحان والحصول على جواز السفر تستغرق شهوراً بل سنوات، وسبحان الله أنهيت كل ذلك بيسر وسهولة لا يكاد يصدقها المرء، وبعد حصولي على جواز السفر قفلت راجعاً، واتصلت هاتفياً بشيخنا - حفظه الله - وأخبرته بكل ما حصل، فقال لي: «قال بلي ولكن ليطمئن قلبي»، والحمد لله على نعمه التي لا تحصى والحمد لله الذي عرفنا على شيخنا فتفيئاً ظلاله، ونهلنا من معينه، ونسأل الله أن يقيدنا لخدمته ولخدمة أمثاله من العلماء الأولياء المخلصين، وأن يجعلنا من المقبولين - اللهم آمين -.

٢١- في قرية الضاهرية - القرية من حماة - رجل اسمه الشيخ منصور، جاءته أحوال روحية عنيفة، منها أن أرواح بعض الصالحين كانت ترد عليه، وكان حين ترد عليه إحدى الأرواح يدور رأسه دون إرادته يميناً وشمالاً حتى يكاد رأسه ينخلع، ويشفق عليه كل الحاضرين، ولم يكن في هذه الحالة مفتعلاً أو مصطنعاً ولم يستطع أحد أن يوقف هذه الحركة عنده، وفي إحدى زيارات الشيخ أديب له أمسك ببعض أصابعه، وراح يقرأ بصوت لم نسمعه

فاختفت منه تلك الحركة، فصار استحضار الروح عنده هادئاً. وموضوع استحضار أو حضور الأرواح أمر غيبي، ومسألة حساسة وشائكة، ولا يدركها ويحسن الخوض أو التصرف فيها إلا ذوو الخبرة والذوق والعلم، فلا ينفع في هذه المسألة ذوق من غير علم ولا علم من غير ذوق أو خبرة. وكان الأستاذ يرشدنا إلى خطورة الأمور الروحانية إذا حدثت مع الجاهل الذي لا يملك معياراً علمياً يحميه من الوقوع في الضلال أو الغرور أو الوقوع في حبال الشيطان، فقد يختلط بهذه الأمور الروحية أمور شيطانية تخرج المسلم من دائرة الهداية والنقاء إلى الضلال والانحراف، كما حدث مع أحد إخواننا حينما اكتسب هذه الشفافية الروحانية وأصبحت ترد عليه أرواح صالحة، وما لبث أخونا هذا أن آلت حاله إلى انحرافات نفسية وقلبية وروحية عانى منها كثيراً من تلبس الأرواح الشيطانية له، فكنت تجده تطراً عليه أحوال تنظر أثناءها إليه فكأنه شيطان مريد، وتتضاعف قوته فلا يسيطر عليه أحد، وكان الأستاذ يعالجه في تلك الأحوال جميعاً بهدوء، فكان يمسك بإحدى أصابعه، ويتلو عليه شيئاً من القرآن الكريم أو الدعاء المأثور، فتجده ينتفض ويصحو وكأنه قد نشط من عقال، وإن دل هذا على شيء فإنما هو دلالة على ما تتمتع به الأستاذ من قوة روحية وفتح رباني وخاصية تربوية إيمانية، هي في الحقيقة إرث نبوي إيماني يختص بها الله من شاء من عباده^(١). وقد شجع الشيخ هذا الأخ بعد ذلك على الذهاب إلى الشيخ محمود الشقفة رحمه الله وتحسنت أحواله وكان الشيخ محمد أديب يقول عن هذا الأخ: إنه من نصيب الشيخ.

٢٢- حدث غير مرة بأنه في عام ١٩٥٤م كان مع الشيخ محمود في حديقة التكية فسنح في خاطره المكان الذي سيدفن فيه الشيخ محمود الشقفة رحمه الله تعالى وذلك بين الشجرات الأربع، وأبقى ذلك سراً في نفسه مستغرباً من هذا الخاطر، وحين حصلت حادثة الشيخ دفن

(١) تجربتي مع الشيخ ٢٦ بتصرف.

رحمه الله في المكان الذي حدده قبل خمسة وعشرين عاماً من وقوع الحادثة، وأخبرني جمال بارودي وهو تلميذ الشيخ محمود رحمه الله بأن الشيخ كان يقول لهم: بشرني الرسول ﷺ بأن قبري سيكون هنا - أي في المكان الذي خطر ببال الشيخ محمد أديب منذ عام ١٩٥٤ م حين كان مع الشيخ -.

هذا ما عرفته وما جمعته من أفواه الإخوة الثقات مما حصل معهم أو سمعوه من غيرهم حول أحوال الشيخ، ومناقبه وبركاته وكراماته.

وفي هذا الكتاب يقف القارئ على كثير من الوقائع للشيخ، من أبرزها سيرته الشخصية والعلمية، فهي كلها كرامة، وكفى بذلك كرامة ومنقبة ورفعة، وبذلك فليتنافس المتنافسون، وكم من إشارة هي أبلغ من عبارة، تبدو من رسالة شيخه الشيخ محمود له، وهي كمال قال الرواس - رحمه الله -:

له بتصريفها محو وإثبات	لله في طي هذا الكون آيات
وفي العبارات إذ تتلى إشارات	جاءت عباراتنا شتى لرقتها
وسبحان المجتبي المعطي الوهاب.	

الفصل السادس

تلامذة الشيخ

رأى الشيخ أن الذين يتجهون نحو العلوم الشرعية كثر، ولكن الذين يجمعون بين هذه العلوم والتجارة والعلوم الدنيوية قلائل، فاتجه - كما ذكرنا - في تربيته لطلابه إلى الجمع بين ذلك كله، ولهذا لم نجد بين طلابه مشايخ تخصصوا في العلوم الشرعية، بل تراهم موزعين في المجتمع، فمنهم التاجر، ومنهم الأستاذ المدرس، ومنهم المزارع، ومكانتهم تبدو أنهم جمعوا بين أعمالهم الدنيوية وعلوم الشريعة، فمثلاً لو اتجهت إلى الأخ الفاضل عبد القادر الرئيس وسألته أي سؤال فقهي لوجدت الجواب حاضراً عنده، وقد يعطيك أكثر من رأي في المسألة، مع أن الأخ يعد من التجار المشهورين، وكذا لو سألت الأستاذ غالب المصري في العقيدة أو الحديث أو السيرة، مع أن فضيلته أستاذ في اللغة الإنجليزية، وهكذا الحال مع تلامذة الشيخ، وبدهي أن الملكات تتفاوت، والقدرات تختلف، ولكل وجهة هو موليتها.

ويمكن تقسيم تلامذة الشيخ إلى قسمين:

الأول: تلامذته الذين درسوا عنده في دار المشايخ، ولازموه في دروسه الخاصة والعامة، واعتنى بهم عناية خاصة.

الثاني: تلامذته ومحبيه الذين درسوا عنده في المحمدية الشرعية، أو حضروا دروسه العامة التي كان يلقيها في المسجد الشرقي.

* - أما الطائفة الأولى: فأذكر منهم:

١ - أستاذنا الفاضل غالب المصري: أستاذ اللغة الإنجليزية في مدارس حماة، مدرّسنا في العربية والفقه والرياضيات، فضلاً عن اللغة الإنجليزية، لقد كان بحق موسوعة علمية، صاحب ذكاء واضح، شاعر مطبوع مجيد، وناثر أريب، وكاتب مفنن، وما أظن أحداً في دار المشايخ من الطلاب لم يستفد منه، ومما يلفت الانتباه في شخصية هذا الأخ الفاضل هو نشاطه الدؤوب، إذ كان في اليوم الواحد يلقي أكثر من درس في علوم متنوعة دون كلل أو ملل، حظي هذا الأخ بحظوة عند الأستاذ وإخوانه، فكان يكلفه بإعطاء الدرس بدلاً منه إذا عرض للشيخ عارض يمنعه من الحضور، قال الأستاذ عوض القناني: كان الشيخ يكلف غالب المصري بإعطاء الدرس بدلاً منه في جامع المهنا إذا كان الشيخ مشغولاً، وكان الشيخ غالب صغيراً لم يكن الشعر خط عارضيه ولا شاريه^(١).

وقد بيّن حفظه الله كيف تعرف على الشيخ فقال: «تعرفت على الشيخ عام ١٣٨٣ هـ الموافق عام ١٩٦٣ م عندما حضرت دروساً له كان يعقدها في الجامع الشرقي بمدينة حماة، وقبل ذلك كان للوالدة - حفظها الله - فضل إرشادي إلى مجالس العلم والذكر، فقد أرشدتني قبل ذلك بعامين إلى درسه الذي كان يقيمه في الجامع الشرقي بمدينة أبي الفداء، وأول ما شدني إلى تلك الدروس منهجها العلمي، واستيعاب المسائل من جميع وجوهها، وصبر الأستاذ وتحمله للمناقشات والأسئلة الكثيرة التي كانت تطرح عليه، مع أسلوبه المقتنع، وتواضعه للمتعلمين حتى تظنه أحدهم»^(٢).

ولقد انتبه الشيخ - حفظه الله - إلى نباهة أخيها غالب فأولاه عناية ورعاية، وكنت

(١) من ذكرياتي مع الشيخ ٦.

(٢) تجربتي مع الشيخ ١.

أشعر - وأنا صغير في تلك الدار - أن الأستاذ غالب كان مقرباً من الشيخ، وكان الشيخ مسروراً منه دائماً منه لكثرة مناقشاته العلمية ومدخلاته الفقهية، وقد أشار إلى هذا الأخ الأستاذ عوض القناني فقال: «ويجب - أي شيخنا الفاضل محمد أديب أدامه الله - من يناقشه ويسأله، وكان رائد هذا الميدان الشيخ غالب المصري، وكان بعض إخوانه يعترضون على الشيخ غالب ويقولون: اسكت يا غالب، مللتنا بالأسئلة، ولكن الشيخ محمد أديب يسكتهم، ويشجع الشيخ غالب على طرح الأسئلة الأخرى»^(١).

ولا ننسى ونحن نتحدث عن هذا الأخ تلك الشاعرية التي حباه الله إياها، فهو من الشعراء المطبوعين، فهو منذ حداثة يقول القصيد، والشيخ محمد أديب يستمع إليه مع الإخوة، وستمر معنا قصيدته (مدينة العلم) وسوف نرى فيها ما ضمنها من المعاني المنيفة، والتراكيب البديعة، والموسيقى الجميلة، والعواطف الراقية، وإني لعلّ يقين أن له أكثر من ديوان شعري، لكنه لم يطبع هذه الدواوين، ولو نشرها لأدرك الشعراء والنقاد أنه من فحول الشعراء المحدثين، ولعل عمله الآن وهو ترجمة الكتب الإسلامية من العربية إلى الإنجليزية في دولة الإمارات يدل على سعة ثقافته واتساع شاعريته، وهي أثر من آثار تربية الشيخ له، وتهذيبه وتشذيبه، ولعل الأمر الذي لا يعرف عن الشيخ غالب المصري أنه كان ينشد في حلقات الذكر الأناشيد الجماعية، جزاه الله عنا كل خير، ووسع له وبارك في علمه وولده ورزقه.

والأستاذ غالب حصل على درجة الماجستير في اللغة الإنجليزية من جامعة البنجاب عام ١٩٩٣ م، وله عدد من الأعمال المؤلفة بالإنجليزية أو باللغتين العربية والإنجليزية منها:

* - كتابا «لمحة عن العقيدة الإسلامية» و «طريق السعادة» THE WAY TO

(١) من ذكرياتي مع الشيخ ٣٠.

A GLIMPSE OF ISLAMIC FAITH و HAPPINESS

الناشرون: مركز الجاليات بمدينة الرياض، ودار الحرمين، ودار الذكر بالفلبين وغيرها، وقد طبع من العاملين أكثر من مئتي ألف نسخة، وهما موجودان على عدد من المواقع على الشبكة العالمية Websites وكان الأول قد صدرت منه طبعة أولى باللغتين العربية والإنجليزية، أما الثاني فصدر بالإنجليزية بالاشتراك مع مؤلف مشارك آخر.

* - كتابا «دروس في معرفة الإسلام» و«دليل المسلم إلى أحكام الصلاة»

Interoduction To Islam و Amuslim ، Companion To Prayer s نشر

دار ابن حزم (بيروت) والدار العالمية للكتاب الإسلامي (الرياض)

* - «ماذا عن المرأة في الإسلام؟» What About Women in Islam نشر دار المسلم

(الرياض)

* - تصنيف كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «الثقافة الإسلامية» «Islamic culture»

مقرر بكلية الإمارات للتكنولوجيا.

* - عدد من الكتب والدراسات المتخصصة الأخرى والمنشورة من قبل عدد من

الجهات الأخرى أيضاً، مع عدد من الترجمات والمؤلفات غير المنشورة باللغتين الإنجليزية

والعربية مثل كتاب «دليل الحاج والمعتمر» Apilgrim,s Companion to Hajj and Umra

وغیره.

* - ديوان «رسائل من القلب» حاز على المركز الأول في مسابقة أنجال الشيخ هزاع بن

زايد بن سلطان آل نهيان لشعر الطفل العربي (الدورة السادسة - ٢٠٠١) بدولة الإمارات

العربية المتحدة.

* - مجموعة من القصائد المنشورة (باللغة العربية) في الصحف والمجلات في دولة الإمارات العربية المتحدة وسورية، مع بعض التحقيقات والمقابلات في الصحف، ومن الأعمال الشعرية غير المطبوعة «أغاريد الطفولة» و «ملحمة الأمومة» و «ملحمة الطفولة» و «على ضفاف الخليج» و «على ضفاف نهر العاصي» و «مع المرأة في واحة الشعر» و «قصائد كاريكاتورية» وغيرها، قال: وتعود تجربتي الشعرية إلى نهاية المرحلة الابتدائية عندما تعلمت ومارست نظم الشعر في الصف السادس الابتدائي، وشملت مطالعاني كتباً وأعمالاً لشعراء وأدباء مثل المتنبي و أبي تمام وشوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم، ومصطفى صادق الرافعي والمنفلوطي وعباس محمود العقاد وطه حسين والشيخ علي الطنطاوي، ولعدد من أئمة الفكر والعلم مثل الإمام الغزالي والنووي وعبد الوهاب الشعراني وابن الصلاح والسيوطي وغيرهم.

* - مجموعة من القصائد (باللغة الإنجليزية أو باللغتين العربية والإنجليزية) نشر بعضها على موقع Poetry. com وبعضها الآخر في مجموعات شعرية عالمية، مع ترجمة بعض القصائد من اللغة الإنجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الإنجليزية شعراً ومنها معلقة زهير بن أبي سلمى ودراسة لها باللغة الإنجليزية.

* - مجموعة من الأعمال المترجمة إلى اللغة الإنجليزية:

- Under the Walls (ترجمة مسرحية تحت الأسوار لمحمد علي الضناوي، وهي مسرحية تاريخية عن محمد بن القاسم الثقفي فاتح بلاد السند) نشر دار العربية (بيروت ١٩٧٧).

- Seven Short Stories (ترجمة مجموعة قصصية مختارة لإبراهيم عاصي) نشر دار العربية (بيروت ١٩٧٨).

- Eight Short Plays (ترجمة مجموعة مسرحيات قصيرة لموفق سليمة، نفذت الطبعة ولم يبق منها نسخ) نشر دار العربية (بيروت ١٩٧٩).

- «رسالة الإسلام» The Message of Islam و «ما يجب أن يعرفه المرء عن الطهارة» What One Must Know About Purity و «حصن المؤمن» The Believer,s Stronghold وهي ترجمة لثلاثة كتب من تأليف عبد الرحمن الشيحة، نشرها المؤلف خلال مكتب الجاليات بالرياض (وبعضها موجود على الشبكة العالمية)

- مراجعة وتصحيح وتحديث للغة ترجمة معاني القرآن الكريم لمحمد مراديوك بكثول The Meaning of the Glorious Qur'an مع مراجعة وتركيز من دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث التابعة لحكومة دبي.

- ترجمة كتاب «دعوة إلى السنة في تطبيق السنة منهجاً وأسلوباً» للدكتور عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، وشاركني أخو المؤلف الدكتور عطا الله الرحيلي في ترجمته.

- «رحلة الحج الجوية من أمريكا إلى مكة» تأليف عبد الغفور شيخ فضل إلهي (من الإنجليزية إلى العربية، وهو عمل من أدب الرحلات نشر أصله في مجلة Nation Geografic Magazine الأمريكية عام ١٩٥٣م) الناشر: دار الرفاعي (الرياض، ١٩٩٩).

- تدريس اللغة الإنجليزية في المدارس الحكومية منذ بداية السبعينات وذلك في سوريا ثم في السعودية (١٩٧٢ - ١٩٨٤).

- الترجمة بأنواعها (الأدبية والفكرية والعلمية والاقتصادية والتقنية الهندسية والتجارية والقانونية والدينية وغيرها) لدى عدد من المكاتب الاستشارية العالمية والمؤسسات البحثية الحكومية في المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة (١٩٨٤ - حتى تاريخه).

- المشاركة في ترجمة «الموسوعة العربية العالمية» عن World Book Encyclopedia
برعاية سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود بالرياض، ونشر دار الشويخات بالرياض.
- عضوية عدد من لجان التأليف والترجمة في بعض مكاتب الجاليات واللجنة الثقافية
في بعض اتحادات الكتاب والأدباء، والمشاركة في بعض جماعات وأمسيات الشعر والأدب
باللغتين العربية والإنجليزية.

العنوان البريدي: ص ب ٧٣٦٢٠ أبو ظبي

الهاتف والفاكس: ٠٢٦٣٣٩٥٦٦

الموبايل: ٠٥٠٤٤٥٩١٣٢

البريد الإلكتروني: masri12@hotmail.com

٢ - الأخ الفاضل الحاج ممدوح طهماز - حفظه الله - من تجار منطقة الحاضر
المشهورين، وواحد من أكثر المحبين للشيخ، المخلصين له، له وقفات مع شيخه في كثير من
أزماته، وصل إلى الغاية في الإخلاص والوفاء حتى سمعت الشيخ يقول فيه: «أسأل الله أن
يجزيه عني خير الجزاء» تميز حفظه الله بصلابته في الحق ورباطة جأشه، مع مقابلة الإساءة
بالإحسان، وله من حسن الخلق وكرم الشيم الكثير الكثير، شارك الشيخ في أعماله التجارية،
وحصلت له بركة المشاركة، فأنعم الله عليه بكثير من نعمائه، المال الوفير، والذرية الطيبة، وهو
على كل حال من أكثر المقربين من الشيخ، ومكانته عند إخوانه لا تخفى على أحد لكثرة
فضائله وشيئله - أعزه الله ووفقه -.

ومما يدل على مكانة الحاج ممدوح عند الشيخ ومنزلته ما أخبرني به الشيخ مساء يوم
السبت الموافق للخامس والعشرين من شهر المحرم عام ١٤٢٧هـ إذ اتصلت به هاتفياً كعادي
للاطمئنان على صحته فمما ذكره لي في هذه المكالمة: «أن الحاج ممدوح يا رياض لم يتركني منذ

البداية إلى الآن، عاش معي في ضرائها وسرائها، أما الآخرون فهم كالعصافير المحبوسة في قفص، ما إن فتح لهم الباب حتى هربت وطارت ولم تعد»، ولكنه أخبرني في مكالمته هاتفية عصر يوم الجمعة ٢٩/٤ عام ١٤٢٩هـ أن طلابه جميعاً لا يغيبون عن باله وإلا كما قال لي: ليس عندنا وفاء». فله دره ما أبره.

٣ - الأخ الأستاذ عوض القناني: أستاذ في اللغة الإنجليزية، طيب القلب، نقي السريرة، من طلاب الشيخ القدماء، اشتغل بالتدريس في مدارس حماة، ثم سافر إلى الكويت ولا يزال يعمل هناك وفقه الله.

٤ - الأخ عبد الله كرزون: من الإخوة الأفاضل الذين اتصلوا بالشيخ مبكراً فاستفاد الكثير من علوم الشيخ، تميز بالحدة، والجرأة في الحق، والصلابة في الدين، مع أوصاف رضية، وشئائل أحمدية. سلمه الله وبارك به وبأحفاده.

٥ - الأخ عبد القادر ريس: تاجر مشهور، فقيه بارع، أذكره مدرساً للفقه في بعض الأحيان حين غياب الشيخ، أخلاقه فاضلة، وأياديه فاضلة، صاحب ظرف ونكتة، محبوب عند إخوانه، مواظب على مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ في مسجدي التكية والجديد، بارك الله له في رزقه وولده.

٦ - الأخ ياسين الهاني: تاجر، ومن تلاميذ الشيخ القدماء، وصاحب نكتة وبديهة، جلسته لا تخلو من الدعابة كأخيه عبد القادر الرئيس، مواظب على الصلوات جماعة في مسجد الحراكي في البارودية، رعاه الله ووفقه، كان الشيخ محباً لشايه الذي يصنعه (الشاي) المتميز ويفضله على غيره.

٧ - أحمد محيي الدين منصور: من خلّص المريدين، ومن أقرب المقربين إلى الشيخ، كأني به كان صديقاً للشيخ منذ الصغر، وكان في دار المشايخ أباً للجميع، تميز بسعة الصدر،

ورجاحة العقل، ناهيك عن الأخلاق الحميدة، وله حال في الذكر، أعرفه موظفاً في دائرة المساحة في بلدية حماة، وتوفي رحمه الله بعد مرض عضال ألمّ به، برّده الله مضجعه، وأسكنه الجنة.

٩ - الحاج مرعي خليف: من محبي الشيخ، أخلاقه محمدية، وشمائله رفيعة، عرفناه في الدار شيخاً كبيراً وقوراً متزناً، دائم الذكر والصلاة على الرسول ﷺ، أحبه الشيخ فكان يكرمه ويحمله، وشاركه في بعض السنين في تجارة الحبوب على ما أذكر، وكان - أحياناً - يحضر معه ضيوفه إلى الدار، وكانت دكانه في الحاضر مأوى العباد الزاهدين والصالحين، لا تفوته مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ في مسجدي التكية والجديد، أكرمه الله بالشهادة مع عدد من أولاده في أحداث حماة ١٩٨٢م رحمهم الله جميعاً.

ومن ذكرياتي مع هذا الرجل الفاضل أنني كنت في السنة الخامسة من المرحلة الابتدائية حين حضرت إلى دار المشايخ وناديت أحد الطلاب بقولي «يا ول» من غير دال، فهمس في أذني من غير أن يسمع أحداً قائلاً: لا تقل «يا ول» لأنها كلمة غير جميلة معناها يا ولد. ومن حينها لم أقلها - جزاه الله خيراً - وحاول مرة أن يشدني في مسجد التكية في أحد مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ إلى حلقة المنشدين مع صغر سني، فرفضت قائلاً له: إن الشيخ محمد أديب لا يسمح بذلك، فتوقف، رحمه الله ونور قبره.

١٠ - هشام عبد الكريم صوي: نشأ وترعرع في دار المشايخ، خصه الشيخ بعناية خاصة، وكان والده يتردد أيضاً إلى الشيخ، أفاد من الدروس الشرعية والتطبيقية، وتخرج من جامعة دمشق - قسم الجغرافيا وفقه الله ورعاه.

١١ - هشام عبد الرحمن البارودي: يعد من أوائل الملازمين للشيخ، صاحب خلق رفيع، تخرج من قسم اللغة العربية من جامعة دمشق، وهو يعمل الآن في الإمارات العربية،

حفظه الله ووفقه.

١١ - محمود علي خليفة: أخ كريم، دمث الأخلاق، راجح العقل، تردد إلى دار المشايخ ولازم الشيخ، تخرج مدرساً لمادة الرياضيات من جامعة حلب، والظاهر أنه يعمل الآن في ميدان التدريس، وفقه الله.

١٢ - الدكتور الفاضل مرهف بن عبد الجبار سقا: أخ فاضل، نشأ في طاعة الله، وترعرع محباً للعلم وأهله، عرفه أهل البلدة مدرساً لمادة التربية الإسلامية، وخطيباً في جامع الشيخ محمد الحامد رحمه الله، ثم الأحذب، ومدرساً لعلوم القرآن والحديث في التكية الهدائية.

وله المستقبل العلمي المشرق بعون الله، وتآليفه العلمية تدل على ذكاء متميز، وسعة في علوم متعددة متنوعة، والذي يعنينا الآن هو ما ذكره في مقالته عن الشيخ محمد أديب، وكيف تعرف عليه، وأفاد من علومه وتوجيهاته، قال: «كنت في المرحلة الثانوية وبالتحديد في الثاني الثانوي على ما أذكر ذاهباً إلى سوق الحاضر قبيل الظهر بقليل، وفي طريقي أتأمل الدكاكين والمحلات، وأنظر فيها، فمررت على محل (فروج زين العابدين) فأنظر فيه أيضاً، ويسترعي انتباهي رجل يتوسط اثنين كلهم جلوس على كراسي متقابلين، ولكن الرجل المتوسط بين الاثنين لم أستطع التأكيد في وجهه مع أنني حاولت التعرف على ملامحه، وكان السبب أني لم أر وجهاً ولكني رأيت نوراً وحوله (شماخ) لونه رصاصي قد لف هذا النور، فرجعت إلى البيت وحدثت أبي عما رأيت، وسألته إن كان يعرف هذا الرجل فأخبرني بأن هذا الرجل هو الشيخ محمد أديب كلكل، ثم أخذ يقص عليّ أنه كان يحضر دروسه في جامع الشرقي، وكيف كان الناس يخرجون من درسه منشرحي الصدر مبتهجي النفس، وأن المسجد الشرقي كان يزدحم بالناس... فاشتقت للتعرف عليه ولكن كيف السبيل لذلك؟ فلم أكن وقتذاك طالب علم،

ولم أسمع عن طلب العلم، لأنني نشأت في بلدة حرمت من دروس العلم في المساجد من حوادث حماة.

ثم قدر الله تعالى أن أدخل كلية أصول الدين في جامع أبي النور بعد أن نلت الشهادة الثانوية فرع الأدبي، وأدرس علوم الشريعة، وأتدرج في طريق طلب العلم، وما زالت تلك الصورة مرتسمة في ذهني، وقد ترددت مرات بعدها إلى ذلك المحل أنظر فيه لعلي أرى الشيخ، ولكن لم أجده.

ثم حصل للأستاذ مرهف مشكلة تحتاج إلى فتوى، وبعد تتبعه وجد الفتوى الصحيحة عند الدكتور البوطي والشيخ محمد أديب، فتوثقت العرى وبات من المترددين على الشيخ يفيد منه قال: «ومن هنا بدأت معرفتي به، وتوالت زياراتي له بعد ذلك، فلما استأنس مني صار كلما أسأله عن مسألة يفتق عقلي بالأجوبة، ويكسر حاجز التقوقع الفقهي في داخلي، والذي زرعه بعض من قرأت عليه الفقه الشافعي في البدايات، ثم صرت أستشيريه في شؤوني ومسائلي الخاصة، فكان الشيخ أعزه الله أباً غيوراً وقلباً رؤوماً أجده فيه راحة البال وطمأنينة النفس، لا أخفي أنه كان يحدثني أحاديث منها لا أستوعبها، ولكنها تغرس في نفسي، أجده صداها بعد سنوات فأستفيد منها، فلئن كان في من خير فإن لشيخنا أطل الله في عمره اليد الأولى فيها، بل إنه بحق صاحب يقظتي الفكرية»^(١).

وللأستاذ مرهف عدد من المؤلفات العلمية منها:

* - تحقيق جزء مخطوط من تفسير (اللباب من علوم الكتاب) لابن عادل الدمشقي الحنبلي بإشراف الدكتور نور الدين عتر (وهي رسالة الماجستير)

* - منهج التفسير العلمي وتطبيقاته في سورة النحل (وهي رسالة الدكتوراه)

(١) الشيخ كما عرفته ١ - ٢.

بإشراف الدكتور نور الدين عتر.

* - مزيل الإلباس عن حكم التعامل مع شركة بزناس.

* - لا تعتدوا على الله (يتكلم عن ظاهرة شتم الذات الإلهية والدين في بعض البلاد).

* - إيقاظ الوسنان لقراءة القرآن.

مع العديد من المقالات المنشورة منها:

* - نظرات في قرار مجمع البحوث العلمية الإسلامية في القاهرة حول المصارف

والربا.

* - إبلاغ الواعي بشرح حديث التداعي.

* - عقلانية رأس الفتكان وسماحته (قراءة في الجذور والتاريخ).

* - هل الزكاة ضريبة (بحث منشور على موقع مركز أبحاث فقه المعاملات).

وغير ذلك.

١٣- الأخ الفاضل عماد مفيد زغرات - حفظه الله -: من الطلاب الذين لازموا الشيخ فأفادوا منه سلوكاً وعملاً وعلماً، حتى وفقه الله الآن إلى إعداد رسالة الماجستير في الفقه المقارن. ذكر في مقدمة مقالته عن الشيخ كيف تعرف على الشيخ فقال: «عرفت الشيخ حفظه الله تعالى عن طريق بعض الأخوة الكرام، وشاء المولى الكريم أن يفتح الشيخ قلبه لي، وكان ذلك من توفيق الله تبارك وتعالى أن قبلني الشيخ تلميذاً عنده، فالمحروم من حرم خير أهل عصره، وقد غرسني الشيخ فسيلاً في بستان العلم والمعرفة وتعهديني بالرعاية والسقاية بهاء الجنان، فارتويت من علمه حتى تضلعت فربت علي وقال: «أريدك أن تكون نسرّاً بين النسور، محلقاً في الفضاء، ولكن بشرط أن ترى النسر نسراً والقزم قزماً» كان لا يرضى حفظه

الله ورعاه أن نكون أنصاف علماء أبداً، بل كان يحثنا على المثابرة لنيل أعلى الشهادات. عرفت الشيخ زاهداً بما في أيدي الناس لذلك أحبه الناس، وإني أراه متمثلاً قول النبي ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس» وكثيراً ما كان يقول لي: «ليس الزهد خلواً اليد، وإنما الزهد فراغ القلب من حب الدنيا».

ثم راح يعدد بعض الأسباب التي دفعته أيضاً إلى ملازمة الشيخ قائلاً: «ومما دفعني إلى ملازمته أنني وجدته شديد الحرص على دينه منضبطاً بأحكام الشريعة، يحمل هم الأمة بين جوانحه ولكن دون يأس ولا إحباط، تراه يبعث الأمل في النفوس ويشحذ الهمم ولا يرضى بالخمول ولا يكون بل كثيراً ما كان يحثنا على العمل والمثابرة ونيل معالي الأمور متمثلاً قول النبي ﷺ: «إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس الأعلى» فالشيخ بحق مدرسة تربوية فكرية يشار إليها بالبنان، وكثيراً ما كان يقول: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم، ومما دفعني لملازمة الشيخ حفظه الله تعالى أنني عندما كنت أقرأ في سير الصالحين من هذه الأمة وما هم عليه من علم وزهد وورع وجهاد في سبيل خدمة هذا الدين فوجدت ذلك متمثلاً في الشيخ حفظه الله، وقد انتهى إلى سمعي أن الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى كان يقول: «إذا دخل عليه الشيخ أديب كل كل كأن صحابياً دخل علي».

وهو بعد ذلك دائم الحمد لله أن وفقه لمعرفة الشيخ قال: «وفي الخاتم أحمد المولى سبحانه وتعالى أن وفقني لمعرفة هذا العالم الجليل وأتوجه إليه سبحانه أن يمتعنا به حصناً يبعد عن هذه الأمة كل دخيل، وإنني إذ ذكرت ما ذكرت في هذه العجالة عن الشيخ حفظه الله لم أوفه حقه، ولكنني أذكر هذه الأمور عرفاناً بالجميل ووفاء بالعهد، وأجدني أتلقف الكلمات وهي خجلى لأنها لم تؤد الشيخ حقه ولكن إن كانت الكلمات تعجز عن البيان فإن

القلب يفيض بالحب يترجمه اللسان، وما أجمل قول الشاعر:

لغة الكلام كما رأيت على فمي خجلى ولولا الحب لم أتكلم^(١)

١٤- الأخ الفاضل عبد الرحمن العشي رعاه الله: من محبي الشيخ المتفانين في خدمته، مدرس في مدارس حماة الابتدائية، وقد أحبه الشيخ كثيراً، وفقه الله وبارك له.

١٥- الأخ الفاضل مصطفى كُرَيْم السواس حفظه الله: واحد ممن ترددوا على الشيخ فأفاد منه كثيراً، وفقه الله^(٢)..

هذا ما يحضرنى الآن من أسماء الإخوة الطلاب الذين ترددوا إلى الشيخ وعاشوا في رحاب دار المشايخ، ينهلون من معينه الفياض، ويتفنيون ظلالها الوارفة، وهو يرعاهم بعقله، ويلحظهم بروحه، مريداً لهم ما ذكره الرواس:

عرفتك للجلى وعزمك فوقها وللدين والدنيا وللحشر والنشر

فيا لها من سعادة، ويا لها من مغنم، ولذا فلا ضير إن قلنا إن لسان حالهم يقول:

لك المجد والإجلال والعز والعلی وغر الأيادي البيض في الطي والنشر

اللهم آمين يا رب العالمين.

* - أما طلاب الشيخ من الطائفة الثانية فهم كثر لا يُحصَوْنَ عدداً، فمنهم طلاب المدرسة المحمدية الشرعية، فقد كان الشيخ يعتني بهم لأنهم مشاغل المستقبل، قال الأستاذ عوض القناني: «وكم سمعتهم - أي طلاب المحمدية الشرعية - يقيمون حلق الذكر ومجالس الصلاة على النبي ﷺ داخل الصف.

(١) الشيخ ٥.

(٢) وتلامذة الشيخ كثيرون جداً لعلنا في طبعات أخرى نذكرهم جميعاً بعد اكتمال المادة العلمية عنهم، فليعذرنا من لم نترجم له.

ومرات كثيرة جاء الشيخ بهؤلاء الأطفال إلى المساجد لإلقاء الدروس الدينية، وذلك ليشير الشيخ شهية المصلين لتربية أولادهم على هذه الشاكلة»^(١).

وإلى جانب طلاب المحمدية الشرعية كان كثير من محبي الشيخ، وطلاب العلم يفدون إلى الجامع الشرقي لحضور دروس الشيخ العلمية العامة، أو حضور حلقة الذكر العامة المقامة ليلة الجمعة من كل أسبوع

ولقد تردد إلى هذه الدروس وحلقات الذكر أفراد كثيرون من الجماعات الإسلامية، لأن منهج الشيخ - كما ذكرنا - هو الاعتدال والتوسط، فكنت ترى في درسه الصوفي والسلفي، والشيخ العاجز والشاب والأمي والمتقف، كما أن قسماً من المسجد خصص للنساء أيضاً، فكان المسجد يغص بالحضور حباً في الشيخ ودروسه.

وبالجملة فتلاميذ الشيخ يصعب حصرهم لكثرتهم، ومن المفيد أن أنهي ما قدمناه بنصيحة الشيخ لطلابه ولغيرهم، ففي إحدى المكالمات أيضاً قال لي: «إن من يقول شيخي فلان، وأستاذي علان، ولا يسير على خطا شيخه سيكون شيخه خصيمه يوم القيامة، نريد الأفعال لا الأقوال».

وهذا كلام نافع مفيد، ورسالة لكل من يدعي صلة بشيخ من الشيوخ ولا يسير على نسجه ومنواله، نسأل الله أن يجعلنا من أتباع مشايخنا وأساتيذنا قولاً وفعلاً، وأن يجعلهم راضين عنا، مساحين لنا إن أخطأنا في حقوقهم وواجباتهم أو قصّرنا، فهم كرام أخيار، وأن يقيّدنا - دائماً - لخدمتهم، اللهم آمين.

وأخيراً ألي لا أكون مبالغاً إن قلت: قلّ من لم يتأثر بعلوم الشيخ من طلاب العلم في مدينة حماة خاصة.

(١) من ذكرياتي ٥.

الفصل السابع

ثناء العلماء على الشيخ وصلاته العلمية

نال الشيخ محمد أديب حظوة عند العلماء الأثبات، ومكانة عند المحققين الأكابر من الأولياء، وذلك لعلمه واستقامته ولأنه عزّ منهجاً وحسن طريقاً.

* - لقد دعاه الشيخ الراحل محمد منير لطفي رحمه الله تعالى مرة، وكان عنده العلامة الراحل عالم إدلب الشيخ عبد الغني حمادة رحمه الله تعالى وقد طلب إلى الشيخ محمد منير لطفي أن يجمعه بالشيخ محمد أديب ويعرفه عليه، فقام الشيخ عبد الغني إلى الشيخ محمد أديب عندما دخل، وسلّم عليه بحرارة، وقبّل رأسه، وطلب إليه أن يأتي معه إلى إدلب ليعلم طلبة العلم هناك طريقة الذكر الشرعي، كما طلب إليه في مرة أخرى أن يعطيه لمحة عنه وعن شيوخه وطريقته العلمية لينشرها ضمن ما كان ينشر من علم وكتب قيمة، لكن مسلك الشيخ محمد أديب كان يحول بينه وبين أن يستجيب إلى ما يكسبه الشهرة، فكان يؤثر عدم الظهور^(١).

* - ومثل هذا ما رأيته حين حضر - رعاه الله - إلى مكة معتمراً في المرة الأولى، ولم أك موجوداً فترك لي رسالة عند الأخ مصطفى كريم (السواس) وحين قرأت هذه الرسالة على أستاذنا الفاضل العلامة سعيد الطنطاوي قال لي: «هذا رجل من القوم، وأطرق ساكتاً على

(١) تجربتي مع الشيخ ١ - ٢.

عادته، وكنت من قبل أسمع منه الثناء على الشيخ محمد أديب، قائلاً لي: لم ألتق به، لكنني عرفت من كتبه، وآمل أن تبلغه سلامي وتحياي الدائمة، ومعلوم أن الشيخ سعيد الطنطاوي لا يثني على أحد إلا بما هو أهله.

* - وفي السنة الثانية - على ما أذكر - حضر الشيخ - وفقه الله - إلى العمرة أيضاً بصحبة ولديه وبعض تلامذته - حفظهم الله جميعاً - منهم الحاج ممدوح طهماز، فسافرت بسيارتي إلى المدينة حباً وشوقاً، ورجعت بهم إلى مكة، ثم استأذنتهم بأن أتشرف بتوصيلهم إلى المدينة أيضاً، فسمح لي الشيخ بذلك بعد إلحاح شديد مني، وحين وصلنا إلى المدينة توجهنا إلى منزل الأخ المحب محمد العجان حفظه الله، وإذ بعدد من المشايخ السوريين عنده يتناولون طعام العشاء، منهم الشيخ المربي عدنان السقاء، والشيخ ممدوح الجنيد من حمص، والشيخ محمد عوض من دمشق، والشيخ محمد الحييني من حلب، وما إن سلمنا عليهم وجلسنا، قال أحدهم: عرفناك يا شيخنا من كتبك، وكم نحن سعداء برؤياك الآن، كنا ننوي الذهاب إلى بيروت لأن الوقت تأخر، لكننا حرصنا على البقاء وانتظرنا لنجلس معك فنحن في شوق إلى رؤياك، فشكرهم الشيخ محمد أديب بتواضعه المعروف، وسمته المهيب، وهو كما قال الرواس:

نحنُ بالفقرِ إلى الله وبالـ هجر للدنيا بدت دولتنا

* - أما ثناء العالم العارف المحقق محمد الحامد - بل الله ثراه بالرحمات - فحدث عن ذلك ولا حرج، لقد أخبرني الأخ الفاضل الحاج ممدوح طهماز في مكة المكرمة سنة ١٤٢٩هـ ومعه محمد حيان طهماز، أنه سمع من الشيخ محمد الحامد عليه الرحمة بعد صلاة الجمعة حين كان يسلم عليه، وتعرف إليه أن الشيخ قال ما نصه: من أراد أن ينظر إلى وجه صحابي فلينظر إلى وجه الشيخ محمد أديب كلكل حفظه الله، وقد كررها الحاج ممدوح مرة ثانية في شهر رجب سنة ١٤٢٩هـ بحضور الأخ عبد العزيز الأمين ونصر هزاع وولدي حسان وعماد

الدين في منزلنا في مكة المكرمة، فهنيئاً لشيخنا المفضل، لأن جهيزة قطعت قول كل خطيب. ولقد ذكر الأخ غالب المصري ما يفيد مدى حب الشيخ محمد الحامد للشيخ محمد أديب، واقتناعه بطريقته التربوية، قال:

«إن الشيخ محمد الحامد رحمه الله رآني مرة فسلم، وقال لي: كيف حال الشيخ محمد أديب؟ سلم لي عليه، وقل له: أن يحرص على نشر الطريقة الرفاعية في البلد، صحيح أنني نقشبندي، لكنني أفضل انتشار الطريقة الرفاعية»^(١).

وصرح الشيخ محمد الحامد كما ذكر الأخ غالب المصري بحبه له صراحة قال: «لقيته مرة في منطقة البئر الارتوازي في حماة عندما كان البئر منطقة مزدهرة يرتاده الناس للاستشفاء بمياهه المعدنية، وللتنزه فيه قبل أن يؤول أمره إلى الإهمال، فابتدرني بالسلام - وكانت هذه لفئة طيبة وكريمة من الشيخ، وتواضعاً منه ورفعة لمعنوية من يلقاه - ثم سألني عن الشيخ محمد أديب كلكل، وقال لي: إنني أحب هذا الرجل. وكررها ثلاثاً»^(٢).

وكان من شأن الشيخ - رعاه الله - أن يرسل نسخة من المؤلف الذي يصدره إلى السادة العلماء في بقية المحافظات جرياً على العادة المتبعة بينهم، فيأتيه الرد مشفوعاً بعبارات الشئ والتقدير، من ذلك ما كتبه الشيخ الفاضل أحمد الشامي مفتي دوما على غلاف المظروف إذ سجل ما نصه: «إلى فضيلة التقي الصالح سيدي الأستاذ محمد أديب كلكل المحترم»^(٣) وكتب بجانب ذلك «الخادم أحمد بن صالح بوبس الشامي يهديكم السلام، شاكر إحسانكم على ما تكرمتم به من بحر علمكم وهو (الحج والعمرة)»^(٤).

(١) تجربتي مع الشيخ ١٠.

(٢) تجربتي مع الشيخ ١٠.

(٣) انظر الملحق رقم ٣.

(٤) انظر الملحق رقم ٣.

* - وثمة رسالة أرسلها الشيخ محمد أديب إلى الشيخ أحمد أيضاً رحمه الله تعالى يسأله فيها عن الأوراق النقدية أهى عروض تجارة أم نقود؟ وهل يجوز بيع بعضها... إلخ؟ فأجابه فضيلة الشيخ أحمد مصدراً جوابه بما نصه: «إلى صاحب الفضيلة سيدي الشيخ محمد أديب لكل حفظه الله وأدامه ذخراً للفقهاء وأهله»^(١).

* - وحول هذا السؤال أيضاً كاتب الشيخ - أيده الله - مفتي الجمهورية العربية السورية فضيلة الشيخ أحمد كفتارو - رحمه الله - فأجابه مؤكداً رأيه فيما ذهب إليه وهو: أن هذه الأوراق حكمها حكم الذهب والفضة سواء بسواء. وكان الشيخ قد ناقش هذه القضية مناقشة علمية مورداً أقوال الفقهاء القدماء والمحدثين، وانتهى إلى ما ذكرناه^(٢).

* - ومن مراسلاته العلمية تلك المراسلة التي تمت بينه وبين الشيخ عبد الفتاح أبو غدة العالم المشهور - رحمه الله - بعد قراءته لكتاب تنبيه الفكر بقوله: «فالله في عونكم وهو المرجو أن يجل لكم الأجر، ويحسن لكم الذكر بمعنييه سمعة وتعبداً... شكر الله لكم حسن صنيعكم وعظمت اعتنائكم بالتسديد إلى السديد، وتجنب الأخطاء لكل مسترشد ورشيد»^(٣).

* - ومنها أيضاً مراسلته للشيخ عيسى الخطيب العالم المعروف في قرية إعزاز القرية من حلب، فقد أثنى الشيخ عيسى على الشيخ وكتابه تنبيه الفكر، ودعا جميع شيوخ الطرق الصوفية في سائر الأقطار الإسلامية إلى الاطلاع على هذا المؤلف حتى يلقنوا مريديهم وأتباعهم الذكر الخالي من التحريف والتشويه^(٤).

(١) انظر الملحق رقم ١.

(٢) إنحاف السائل ١ / ١٩ وراجع مبحث تواضعه العلمي لتري مكاتبات أخرى حول هذا الموضوع مع علماء آخرين خارج مدينة حماة.

(٣) انظر الملحق ٤.

(٤) انظر الملحق ٧.

* - أما الشيخ رشيد الراشد التاذفي النقشبندي طريقة، فقد عبّر عن تقديره وحبّه فيما كتبه على غلاف إحدى رسائله إذ كتب: «يحظى بلثم أنامل الأستاذ الفاضل الشيخ محمد لكل، فتح الله علينا وعليه فتوح العارفين»^(١).

لله دره، سما خلقا وتواضعا فسما قدراً، والشيخ رشيد واحد من المبرزين في الطريقة النقشبندية، أخذها عن الشيخ عيسى البيانوني عن الشيخ أبي نصر خلف الحمصي - وهو شيخ الشيخ محمد الحامد عليهم الرحمة والرضوان -.

والظاهر أن فضيلة الشيخ رشيد الراشد التاذفي - عطر الله قبره - ما كتب هذه العبارات السامية الدالة على رفعة الشيخ محمد أديب - حفظه الله - إلا بعد أن أدرك أن لواء مشهور عند العلماء وفضله منشور عند الأولياء، لذا فهو يستحق مثل هذه العبارات الراقية، وهو كما يبدو جرّبه وعرف مقامه، قال الأستاذ غالب المصري: «وكان - أي الشيخ محمد أديب رعاه الله - على علاقة طيبة بالعلماء والصالحين، ومن هؤلاء الشيخ رشيد الراشد التاذفي وكان من علماء حلب الذين عليهم سيماء العلم والصلاح، وله كثير من المؤلفات، فكان يقدّمه في الصلاة، وفي إلقاء الدروس في معظم الأوقات التي كان يحضر فيها، إلا مرة كان يلقي فيها درسه الصباحي في شهر رمضان في الجامع الشرقي، وكان لتلك الدروس برنامج منهجي وضعه لتكتمل الفائدة، وكان حريصاً على متابعة برنامجه ومنهجه دون تغيير للأسلوب، أو انقطاع فيه حتى لا تضعف الفائدة، ويتقطع تسلسل الموضوعات، ولعل ذلك أثار حفيظة الشيخ رشيد وعكّر قلبه قليلاً، وظن أن الشيخ محمد أديب فعل ذلك اعتداداً بنفسه وإهمالاً للضيف، أو تعالياً عليه، فحاول من خلال التوجه القلبي والروحي عليه أن يوقفه عن الدرس، ويصبيه بالعجز عن الاستمرار فيستغلق عليه الكلام، وتضيع منه

(١) انظر الملحق ٥.

الأفكار، وصارح الشيخ محمد أديب بذلك، وأخبره بأنه فعل ذلك مع كثيرين قبله فلم يقدروا على متابعة الكلام إلا أنت، وهذا دليل إخلاصك وتمكنك وثقتك بنفسك وتأيد الله لك»^(١).

* - ومن هذا القبيل تلك المراسلة التي تمت بين الشيخ محمد أديب والشيخ عبد الغني حمادة عالم إديب المشهور، فقد أرسل له الشيخ محمد أديب (بداية السؤل في تفضيل سيدنا الرسول ﷺ المعظم لسلطان العلماء العز بن عبد السلام تحقيق ودراسة) و(كتاب الحج والعمرة من تأليف الشيخ محمد أديب كلكل) والمهم أن الشيخ عبد الغني حمادة أجابه برسالة ضمّنها الكثير من الإعجاب، فمما قاله حول تحقيق كتاب بداية السؤل: «إن المؤلف حين ألفه أشار إلى أحاديث رسول الله ﷺ التي لها تعلق في أبحاث رسالته ولم يذكرها بتمامها، وهذه الكرامة العظيمة هي أن الله أطلعه أنكم ستطبعون رسالته فترك لكم ذكر ووضع الأحاديث بتمامها وهو أشار إليها فقط ليكون لكم فضل عظيم ومنزلة عالية ومنقبة عظيمة عند الله بخدمتكم لمؤلف هذا... وإن هذا العمل منكم زاد الرسالة جمالاً وزينة وإعظماً وتوضيحاً لأبحاثها العلمية ومحاسن.... فجزاكم الله تعالى خير الجزاء و جعلكم من سادة العلماء العاملين لله المخلصين في حب رسول الله ﷺ»^(٢).

وأثنى عليه حين قرأ كتابه الثاني (الحج والعمرة) قائلاً: «أيها الأخ الكريم الفاضل زادك الله علماً وتقياً وصلاًحاً وورعاً، كنت في العلم هلالاً فالآن صرت بدرّاً كاملاً، وقد أتاك هذا العلم النافع من مدرسة قوله تعالى ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ فهنيئاً لكم لهذا التوفيق من الله تعالى، قال العلماء: إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك، فانظر فيما أقامك،

(١) تجربتي مع الشيخ ١٥-١٦.

(٢) انظر الملحق ٢.

فنشكر الله على وجود أمثالكم في هذا الزمان الذي انتشر فيه الفساد، وسيطر على أكثر العباد، فالعلماء العاملون أمثالكم ورثوا من سيدنا رسول الله ﷺ شيئين:

١ - العلم ٢ - والرحمة»^(١).

والظاهر أن هذه المكاتبات العلمية بين الشيخين لم تنقطع ففي كتاب إتحاف السائل ذكر الشيخ محمد أديب أن الشيخ عبد الغني حمادة أرسل إليه رسالة يستفسر فيها عن عبارة وردت في كتاب الشيخ محمد أديب (الحج والعمرة) في الصفحة ١٧١ وهي أن الحديث الضعيف إذا تلقته الأمة بالقبول كان ملحقاً بالصحيح في صحة الاحتجاج به، بل منهم من ألحقه بالمتواتر^(٢). فردّ الشيخ محمد أديب قائلاً: «إن تلك العبارة وجدت في كتابكم (نور الإسلام في زيارة خير الأنام) حيث وردت في الصفحة ١٤ في السطر الثالث منها، وهي عبارة محكمة لا مجال لردها أو التشكيك بها»^(٣) وراح يسرد أقوال العلماء في ذلك مقوياً هذا الرأي.

والظاهر أيضاً أن العلاقة الطيبة التي تمت بين الشيخين الفاضلين تمت بعد أن أرسل الشيخ محمد الحامد - عطر الله قبره بشأبيب رحماته - نسخة من كتاب تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر للشيخ محمد أديب إلى الشيخ عبد الغني فأعجب بهذا الكتاب أيما إعجاب، وأرسل للشيخ محمد الحامد رسالة معها كتاب له بعنوان

(صحح صلاتك) طالباً من الشيخ محمد أن يقدمها هدية للشيخ محمد أديب، فكتب الشيخ محمد الحامد على غلاف الرسالة ما نصه: «هدية لك يا أخي الشيخ محمد أديب لكل

(١) انظر الملحق ٢.

(٢) إتحاف السائل ١ / ١٢٣.

(٣) إتحاف السائل ١ / ١٢٤ - وانظر ٢ / ٤٦ - ٤٨.

من المؤلف، وهو يطلب مني ترجمتك ليضعك في سجل العلماء العاملين، إذ قرأ كتابك الشريف الذي ألفته وهو تنبيه الفكر وقد كان معجباً به جداً، فابعث إلي بترجمتك مع ذكر شيوخك وطريقتك كي أبعث بها إليه»

محمد الحامد^(١)

ولعمري إن مخاطبة الشيخ محمد الحامد لتلميذه محمد أديب بقوله «يا أخي الشيخ محمد...» لهي دلالة على منزلة خاصة تبوأها التلميذ عند أستاذه، أستاذ الأساتيد وشيخ العلماء، ثم إن وصفه كتاب تنبيه الفكر بالكتاب الشريف هو دليل أيضاً على قيمته العلمية، ومنزلته عند الشيخ رحمه الله وبَلِّ ثراه، وهكذا قطعت جبهة قول كل خطيب.

* - ولا ننسى ونحن نتحدث عن منزلة الشيخ العلمية عند العلماء الكمل من الالتفات إلى ما أنشده بعض الشعراء في مدحه وتبجيله وتعداد شئائله، فقد أهدى الشيخ محمد أديب نسخة من كتابه (الفقه المبسط) إلى الشاعر المشهور عبد الوهاب الشيخ خليل الشعراني، فكتب إليه رسالة رقيقة بدأها بالسلام ثم قال:

«سيدي الأستاذ الأجل الشيخ محمد أديب لكل الموقر وبعد: أشكر الله الكريم الذي وفقني بمعرفتكم المربحة عن طريق السماع من الأصدقاء أولاً، ثم قراءة كتابكم القيم «وأضاف قائلاً» ثم اسمح يا سيدي أن أضع بين يديكم الكريمتين هذه المقطوعة المتواضعة التي فاض بها الخاطر «ثم كتب في أعلاها ما نصه: «بكل تواضع أجعلها بين يدي العالم الجليل الأستاذ محمد أديب لكل الموقر»^(٢) وقد ضمنها كثيراً من عبارات الثناء والإعجاب بالشيخ وعلومه، ووصفه بأنه ركن الدين، وأنه شيخ فاضل عمّ فضله، وأنه المنهل العذب في

(١) انظر الملحق ٩.

(٢) انظر الملحق ٨.

صحراء مجدبة، وأنه جبل وصل لمن انقطع... إلخ ما أتخفه به من عبارات التقدير والحب والوفاء.

بكل تواضع أجعلها بين يدي العالم الجليل الأستاذ محمد أديب لكلل الموقر:

أمل

لأجلك ما يُتلى قصيدٌ وما يجلو
بلغت مقاماً في الصلاح وشأوه
فأصبحت ركن الدين فقهاً وخشيةً
وسرت على درب الحقيقة قاصداً
فأحببتُ فيك الصدق والصدقُ سيد
إليك فؤادي إن قلبي حمامةٌ
أعزني جناحاً من نداك لعلي
سلخت سنيناً من حياتي طويلاً
وأصبحتُ أجري والحقيقة بارق
فأمسيت أعدو مثل الظليم بمهمه
لجأت لشعري أغمس الحرف في دمي
كتبت لسلمي ثم ليلي قصائد
وغنيتُ للأوطان الحانَ عاشق
وأتخفت صحتي في حسان نواعس
فلم يشف نفسي كلُّ هذا ومثله
أتيتُ لشيخ فاضل عمِّ فضله
أتيت وشعري بين جنبي راعش
أروم شعاعاً من بريق هداية

فشأنك باسم الله بين الوري يعلو
تجاوز ما صام التقاة وما صلوا
من الله حيث القول يثبت الفعل
رضى الله حقاً لا تهون ولا تغلو
وحكم رجال الصدق يا سيدي عدل
تحاول ما يسمو ويثقلها الغل
أطير طليقاً لا يكبلني العقل
وحاولت أن أحظى وقد فاتني الظل
تراود كشف السر طوراً ولا تجلو
تناءت به الصحراء وانقطع الوصل
لعلي بشرب الخمر من خافقي أسلو
تهادت بها الأعطاف والأعين النجل
فهام بها البستان واخضوضر الحقل
وكنت إذا أنشدت من خمرتي علو
وظل بقلبي هاجس الفكر يعتل
أداوي فؤادي من أوام الأولى ضلوا
وأوزار عمري في كياني لها ثقل
أحل بها كربى ويبهجنى الحل

أنىخ قلوصى فى رحاب ابن كلكل
ولكن أتىست الصالحين أزورهم
فإنى علىه اليوم فى حىرتى كلُّ
فعدت وغنچى من طوب الهدى جُلُّ

حماة فى ٥ / ٦ / ٩٩٣
الفقىر جداً إلهى تعالى

عبد الوهاب الشىخ خليل الشىعرانى

وقد قدّم له - عبد الوهاب الشىخ خليل - ديوانه المسمى «مناجاة الشموع» وكتب له
عليه:

الأستاذ الجليل محمد أديب كلكل الموقر:
إلى العالم النحرير أهدي تحيةً
أحملها ما تحمل الروح للذى
فإن كنت ما أرجوه من ظن بسيدى
تضمن شرحى للمديح ومجملى
براها لتبقى صورة الفيض من عل
بلغت، وإلا جئت زلفى لكلكل

حماة فى ١٩ / ٦ / ١٩٩٣
عبد الوهاب الشىخ خليل

* - وأفرد له تلميذه الأستاذ غالب المصرى أربع قصائد:

الأولى عنوانها «مدينة العلم» أتى فيها على ذكر علماء حماة البارزين من أمثال سعيد
الجابى ومصطفى الحداد وفارس الشقفة ومحمود الشقفة الكبير وتوفيق الصباغ ومحمود
الشقفة الصغير وخالد الشقفة وآل المراد حتى وصل إلى أستاذنا فضيلة الشىخ محمد أديب -
زاده الله جلالاً - فأبرز مكانته العلمية وعلو شأنه، قال:

مدينة العلماء:

أبكى على هذى المدينة أفقرتُ
كم مات من علامة لم يتلّه
من خيرة العلماء والفقهاء
مثلُ وغاض العلم مثل الماء
عبّر الزمان ومصدر الأضواء
كانوا منارة أمتى فى دربها

ف «لمصطفى الحداد» ذكرٌ عاطرٌ
كم كان يمشي وهو يذكر ربّه
ويذاكر العلم المفيد بذهنه
وإذا استفاض بدرس تفسيرٍ أتى
عرضوا عليه قضاءً سوريا فلم
لم يخش في حكم سوى رب الورى
والشيخ «فارس»^(١) شفقة له
ربى وعلم مصطفى الحداد إذ
و «محمد الطرين» صاحبُ حكمةٍ
من علمه نهل العلوم تلامذ
و«سعيد الجابي»^(٢) عابٌ زاحرٌ
أعلى لواء العلم دون تخاذلٍ
ولقد تصدى للفرنسيين إذ
زعموا مزاعم كي يحيلوه إلى
و«سعيد النعسان» مفت جهبذ
والشيخ «محمود» الكبير^(٣) منارة
«توفيق صباغ»^(٤) فقيه شافعي
والشيخ «محمود» الصغير^(٥) مبرز

بلغ الذرى بعلومه الغراء
ويراجع القرآن في الآناء
هذا لعمرك ديدنُ العلماء
بجميع ما قالوا بالاستقصاء
يربح حماةً بها استوى بقضاء
لم يربح غير محجة بيضاء
علم غزير واسع الأرجاء
ظهرت له منه فنونٌ ذكاء
فحلّ من الفقهاء والصلحاء
خلفوه في علم وفي إفتاء
بالعلم نورٌ في دنا الظلماء
ومضى يجاهد سطوة الأعداء
همّوا بجامعها الكبير بداء
ملك الكنيسة فانبى بمضاء
وبقية الحكماء في العلماء
للعلم والتبليغ والإفتاء
لودعيٌّ محكم الآراء
بعلومه وتقاه بحرٌ ذكاء

(١) الشيخ فارس الشقفة أستاذ الشيخ مصطفى الحداد المعروف بـ مصطفى حنون رحمه الله.

(٢) الشيخ سعيد الجابي رحمه الله.

(٣) الشيخ محمود الشقفة الكبير وهو أكبر سنّاً من الشيخ محمود الشقفة المعروف الأصغر سنّاً، ولذلك أطلق عليه محمود الصغير.

(٤) الشيخ توفيق الصباغ رحمه الله.

(٥) انظر ٣.

كم مرة أمضى الشهور مفسراً
وأعاد تشييد «التكية» بالتقى
ومحقق العلماء جهبذ عصره
هو فخر من أفتى ومن بعلمه
ورع أبي صادق ومجدد
ربي الشباب بعلمه وبحاله
ومضى شهيد العلم والهلم الذي
ما قصر يوماً بنصح مقصر
متواضع ومحبب كم مرة
والشيخ «خالد شقفة» من علمه
في الفقه والإرشاد أدل دلوه
و «بنو مراد» أهل علم ساهموا
شهدت لهم أم الفداء وغيرها
ومضى لهم شهداء في درب الهدى
و «أديب الكيلان» داعية الهدى
أثرى الشباب بعلمه وبوعظه
كانت جموع الناس تقصد درسه
حمل اللواء معلماً ومحققاً
وقضوا جميعاً بعد أن نفعوا الورى
رحم الإله شهيدهم وفقيدهم
ومضوا ليحمل راية العلم الذي
لكنه جعل «الخفاء» لباسه

أيّاً من القرآن دون نهاء^(١)
وبعلمه ومضى مع الشهداء
شيخ «محمد حامد» الآلاء
وجهاده أحيا العقول كماء
شهد العدو بفضله بثناء
حتى غدوا من خيرة العلماء
أضناه من حرص على السمعاء
وبردع مبتدع من الجهلاء
بدأ الصغار مسلماً برضاء
نفع الجميع بهمة وبلاء
شأن الخيار السادة النجباء
ببناء صرح العلم أيّ بناء
بالعلم والتقوى وبالإفتاء
وبقية من صفوة العلماء
وسليل أشراف شهيد فداء
ومضى يبلغ علمه بمضاء
فيغص جامعه كفيض الماء
ومبلغاً ومجاهداً بإباء
بالعلم والإرشاد والإفتاء
نرجوه تعويضاً لذي العلماء
تركوه شيخ خيرة العلماء
ونأى عن الإغراء والأضواء

(١) نهاء: جمع نهى وهو الحد والحاجز أو النهاية.

جعلَ الإلهَ حسيبه وحييه	فتراه يذكره بلا إبطاء
جمعت محاسنُ علمه متفرقاً	فيمن مضى من صالح الفقهاء
فإذا أتى لقضية شرعية	تلقاه يوردها بالاستقصاء
يأتيك بالفتيا إذا استفتيته	فيصوغ فيها زبدَ الآراء
أثنى عليه شيوخنا وأحبه	من يعرفون الفضلَ للفضلاء
هو شيخنا العلمُ المربي من له	فضل المعلم والأب المعطاء
أستاذنا الشيخ الجليل «محمد»	وهو «الأديب» و«كلكل» ^(١) الأدباء
يرعاك ربُّ العرش يا أستاذنا	بالحفظ والإنعام والآلاء
وجزاك عنا كل خيرٍ سابغ	وكفأك شرَّ الخلق والأرزاء ^(٢)

غالب

٢٨ جمادى الأولى ١٤٢٤ هـ الموافق ٢٨ تموز ٢٠٠٣ م

* - أما القصيدة الثانية فهي في مدح كتابه «قرة عين رسول الله ﷺ» ضمنها منهج

الشيخ في الدرس العلمي والبحث الفقهي، مورداً خصائصه ومزاياه ومناقبه ونصها:

قرة عين رسول الله ﷺ

جوهرة أخرى تأتلق	من درر الشيخ لها ألق
عن قرة عين رسول الله	له أجاد وأتحف من سبقوا
أستاذ جهبذ أتحفنا	من قبل بعلم يندفق
كتب فيها علم ثر	أودعها فكراً يتسق
قد أثبت فيها أحكاماً	فيه العلماء اتفقوا

(١) كلكل الأدباء: صدرهم ومقدمتهم: وهي إشارة أيضاً إلى كنية الشيخ حفظه الله.

(٢) تجربتي ٢٢.

منهجه وسطٌ متزنٌ بالحكمة والحسنى عبّق
أقوالٌ ونصوصٌ درستُ فيها فكرٌ فيها عمّق
جربنا وسمعنا كثيراً من أهل العلم ومن صدقوا
فوجدنا عندك مجتمعاً ما كان لديهم يفترق
هذا من فضل الله لكم فالفضل يطالع من صدقوا

غالب مصري

الأحد الموافق ٢ / ٥ / ٢٠٠٠ م

٢٤ / ٢ / ١٤٢١ هـ

* - وأما الثالثة: فهي من الشعر الحر الراقي بعنوان «يا سيدي علمتنا» وعنوانها يدل على مضمونها، أتى فيها على مناقب الشيخ ومواهبه، موضحاً شأله الأحمديّة، وأخلاقه المصطفوية، ومبرزاً صفاته العلمية، ومعارفه وعلومه الدينية والدنيوية، مما جعله - حفظه الله - مقصداً للطلاب، وموثلاً للأحباب، وهي:

يا سيدي علمتنا

يا سيدي...

علمتنا خيرَ العلوم

حفظتنا خيرَ المتون

درّستنا شتى الفنون

أرشدتنا ودللتنا النهجَ القويم

ربيتنا أدبتنا بهدى الكريم

ورعيتنا بيد الحنان ورحمة الأم الرؤوم
وغرستنا كفسائل في تربة الهدى العظيم
وتعاهدت يدك الكريمة نشأنا
فجزاك عنا ربنا الخير العميم

يا سيدي...
من علمك الفياض كم نهلت عقول
من هديك السمح اكتسبنا نعمة الخلق النبيل
من نهجك السامي تعلمنا الشمول
أورثتنا هدى الرسول
صلى الإله على الرسول

يا سيدي...
علمتنا
أن الرجال بفعلها وسلوكها تتمثل
والحق يحكم ما نقول ونفعل
والعلم شرط لا يصح بدونه ما نعمل
أن الغلو خطيئة لا تجمل

وكذلك التفريط جرم أَرذُلُ

علمتنا

أن الأدبُ

صنُو الطلبُ

للدارسين ذوي الأربُ

والصدق والإخلاصُ روحُ للطلبُ

إن فارقا عملاً فأبشر بالعطب

أن التواضعَ سنة مرضيةٌ

من دون هدر للكرامةِ

أو قنوعٍ بالأقلِ

أن العقيدة في القلوب ككهرباءٍ

إن خلا منها الفؤاد فلا ضياء ولا عملُ

بتواضع..

وبقدوة مثلى لنا

كنت المعلمَ والملقنَ للفضائلِ

ووقارك المعهودُ دون ترفعٍ خلقُ الأفاضلِ

سيماك سيم الصالحين المخبئين
وردائك الإيمان والرأي الرصين
وحياؤك المألوف دون مذلة خلقٍ ثمين
فيك الحياءُ سجيّةٌ، خلقٌ مكين

وبذلت علمك للجميع
لم تبخلن يوماً بعلم أو صنيع
وسرتُ بمن علّمت حال الصالحين
فالعلم عندك بُلغةٌ للعاملين
حتى ترى في الحاضرين
أثر القبولِ وشأن قومٍ مؤمنين

وعزّزت بالإرث العظيم...
إرث الدعاة المرسلين...
وبذلته للطالين
بذل الأسخياء المكرمين
حاكيت حال المصطفى
باليتم والسمت الرزين

وبطيّب الأخلاق والعلم الثمين
حتى رأى بعض الثقة لديك سيما الصالحين
وصحابة الحبّ الأمين

بالحب نذكر شيخنا..
بالفخر نرفع رأسنا
بمعلم أحيّا أموات قلوبنا
بالخير ندعو ربنا
أن يجزّل الإحسان للشيخ الكريم
ويثيبه عنا ثواب المحسنين
وينيله أعلى مقامات الدعاة المصلحين

* - أما القصيدة الرابعة فعنوانها «رسالة» أفرغ فيها تلميذه الشاعر ما يعتلج في قلبه
وقلوب إخوانه من طلاب الشيخ، من حب وتقدير لأستاذهم وشيخهم، لقد رأوه صاحب
أوصاف عطرة، وآداب مشتهرة، بحر معارف، ومنهل محامد، رفع الله شأنه وهي:

رسالة

الحمد لله رب العالمين على	نبيه منه تسليم به العظم
ثم الصلاة على شيخي ومرحمته	من الإله ولإخوان كلهم
ما خلف الرسل من صفر ولا ورق	ميراثهم مشعل تحى به الظلم

أضَاءَ نُورُ هِدَاهِمُ كُلِّ مَظْلَمَةٍ
مِيرَاثُهُ مِنْهُلُ الْإِيمَانِ يَرْفُدُهُ
وَمَا سَرَى كَهْرُبُ الْإِيمَانِ فِي بَشَرٍ
وَإِذْ وَرِثَتْ فَنَعَمُ الْإِرْثُ مَا بُعِثَتْ
نَعَمُ التَّقَى وَالْغِنَى عَنْ كُلِّ بَارِقَةٍ
نَعَمُ الْهَدَايَةُ لَمْ تَعْدُلْ بِهَا عَرْضاً
نَعَمُ التَّوَاضُّعُ لَا تَعْرُوهُ شَائِبَةٌ
نَعَمُ الْجِهَادُ لِرَفْعِ الْحَقِّ رَايَتُهُ
نَعَمُ الصُّمُودُ وَلِلنِّيرَانِ أَلْسِنَةٌ
فِي غَمْرَةِ الْفَتَنِ السُّودَاءِ لَيْسَ لَنَا
وَأَنْتَ يَا سَيِّدِي إِنْ تَحْتَدِمُ ظُلْمٌ
اللَّهُ أَوْصَى بِأَهْلِ الصَّدَقِ نَلْزِمُهُمْ
مَهْمَا عَلِمْنَا فَتَزُرُّ مِنْ فُضَائِلِكُمْ
وَإِنْ تَدَنَّتْ لَدَيْنَا هِمَّةٌ فَلَنَا
اللَّهُ يُولِي عِبَاداً مِنْ شِفَاعَتِهِ
وَنَعَمُ شَيْخاً لَنَا يَرْعَى طَلَائِعَنَا
أَكْرَمُ إِلَهِي بِحِفْظِ شَيْخَانَا وَبِهِ
وَتَحْتَ رَايَةِ خَيْرِ الرُّسُلِ سَيِّدِنَا
وَعَافِهِمْ مِنْ مَضَلَاتِ الْهَوَى وَقَهُمْ
وَأَخِيراً سَيِّدِي أَهْدِي لَكُمْ عَطِراً
وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعْطِيَ لَنَا مَدداً
وَلِلْأَحِبَّةِ إِخْوَانِي أَصَافِحَهُمْ
وَأَعْلِينَ رَبَّنَا بِالْدِّينِ قَدْرَهُمْ

وَأَضْرَمَ السَّرِجَ الْغَرَاءَ خَلْفَهُمْ
عِلْمٌ وَيَصْدُرُ عَنْهُ عَالَمٌ فَهَمُّ
إِلَّا سَعَى نُورُهُ فَالْلَّيْلُ مِنْهَزَمٌ
بِهِ النَّبِيُّونَ نِعَمَ الْعِلْمُ وَالْحُكْمُ
مِنْ الْكُوَاذِبِ نِعَمَ الْحِلْمُ وَالْكَرَمُ
وَنَالَ مِنْكُمْ فِي إِعْلَائِهَا الْأَلَمُ
مِنْ التَّكْبِيرِ نَعَمَ الْعِزُّ عِزُّكُمْ
فِي سَاحَةِ حَيْثُ نَارُ الْكُفْرِ تَحْتَدِمُ
تَمْدَحُهَا الْفِتْنَةُ الْعَمِيَاءُ تَقْتَحِمُ
إِلَّا كِرَامٌ بِحَبْلِ الْقَادِرِ اعْتَصَمُوا
نَلْزِمُ جَوَارِكُمْ اللَّهُ دَرَكُمْ
فِي ظِلِّهِمْ رَاحَةُ الْإِيمَانِ وَالسَّلَامُ
لَا يَعْلَمُ الْفَضْلَ فِيكُمْ غَيْرُ رَبِّكُمْ
فِيكُمْ كَبِيرٌ رَجَاءُ خَيْرِكُمْ عَمَمٌ
وَيَرْحَمُ الْقَوْمَ إِكْرَاماً لِشَيْخِهِمْ
أَبُو عَلِيٍّ لَدَيْهِ تَعْظُمُ الْحُرْمُ
أَكْرَمُ شَبَاباً إِلَيْكَ بِحُدُودِهِ قَدَمُوا
مُحَمَّدٌ أَكْرَمَنْ بِالْحَشْرِ جَمْعُهُمْ
مِنْ فِتْنَةِ الْكُفْرِ وَاعْفِرْ رَبُّ ذَنْبَهُمْ
مِنْ السَّلَامِ أَحْيِي الْفَضْلَ عِنْدَكُمْ
يَعِينُنَا أَنْ نَجَازِيَ بَعْضَ سَعْيِكُمْ
بِسَاعِدِ الرُّوحِ نَعَمَ الرُّوحُ رَوْحُهُمْ
وَهَبْهُمْ الْعِلْمَ وَافْتَحْ بِالتَّقَى لَهُمْ

ثم السلام عليكم من إلهكم ——— ورحمةً منه والتبريك حقكم ———

١٩٧٢م

* - وقد أثنت عليه أخت فاضلة مربية فكتبت تقول:

ترب الندى والجود أصل بطبعه

سمح كريم، يبذل العلم لكل قاص ودان

لعياله نعم الرفيق الوالد الحاني

تراه مكباً على أوراقه والعلم خير صاحب

يُرجى انتفاع عطائه على مدى الأزمان

باع الدنا عن طيب نفس واشترى

خيراً وأبقى جنة الرضوان

ربح البيع أبا علي إنما

نرجو لكم طول المقام في حمى الرحمن

تتضاءل الكلمات أمام مقامكم

فعذرا شيخنا الجليل وعفوكم^(١)

* - وأثنت عليه سيدة فاضلة أخرى بقولها: «هو الأستاذ الفاضل والأديب الكامل

نور الله سره بأنوار اليقين، ورفع قدره في ملئه المقربين، ووهبه لسان صدق ومقام الصديقين

(١) ملحقات اللوحة ٢٩.

وأعز بوجوده الإسلام والمسلمين، لا زال الزهد شعاره والورع وقاره، والذكر أنيسه والتفكير جليسه»^(١).

أخيراً لا بد أن نشير إلى تلك المنزلة التي حباها الله للشيخ عند أهل حيه خاصة، وبلدته - حماة - عامة، لقد رأوا فيه الشيخ الكامل، والمربي الفاضل، والقُدوة الحسنة، قولاً وفعلًا وحالاً، فأنزلوه قلوبهم، وأحلّوه أفئدتهم - زاده الله عزاً - ولعل أوضح دليل على ذلك احتفال أهل الحية بمقدمه من الحج مع بعض طلابه، فقد كان يوماً مشهوداً عبّر فيه أهل الحية عن حبهم للشيخ وتقديرهم بما لا يمكن وصفه.

وهو الآن موضع تقدير قل أن يحظى به غيره، فقد آلى على نفسه أن لا يخرج من البلدة مهما ضاق به الحال، مؤكداً دائماً على لصوقه بهذه البلدة الطيبة، مع أن فرصاً كثيرة سنحت له للعمل في بعض دول الخليج العربي، وفي الثمانينات وما بعد ذلك سد فراغاً كبيراً في غياب علماء البلدة، بعد فقد عدد منهم - رحمهم الله تعالى - أو سفرهم إلى الخارج، فأصبحوا في حكم النادر، وانتشر الجهل والتصوف المنحرف، وراحت الفتاوى الخاطئة والضعيفة من أنصاف المتعلمين، فكان - زاده الله منعة ومكانة - للناس مرجعاً موثقاً، فتراه يتلقى باستمرار المكالمات الهاتفية يستفتيه الناس عن أمور دينية، ومشكلات دنيوية يريدون حلاً لها.

وقد خصص ما بعد الظهر إلى العصر من كل يوم للخروج من منزله إلى دكانه في الحاضر لاستقبال الناس هناك إن لم يستطع السائل شرح حالته عن طريق الهاتف، مع أن الشيخ مريض جداً، أما الهاتف فقد خصص ساعات يومية لكي يتصل الناس به، ولقد أخبرني في مكالمة هاتفية معه دَعَوْتُهُ فيها إلى العمرة فقال لي: «لقد تركنا النفل من أجل المسلمين هنا».

(١) ملحقات اللمحة ٢٩.

حفظ الله الشيخ، لقد أدرك الناس في حماة منزلته العالية ومقامه السامي، وإخلاصه النادر، لذا فهو عندهم كبير مقدم، ورئيس مفخم، وعالم موثق، أحبه الخلق جميعاً خاصتهم وعامتهم، وما ذلك إلا دلالة على القبول، وإشارة إلى الوصول، وحقا لو أني رجعت إلى معاجم اللغة أجمع منها كل عبارات الثناء والمدح والتبجيل وسجلت أبيات المديح من دواوين العرب وأضفيت ذلك كله على الشيخ لما وفيته حقه، وما أبرزت فضله ومناقبه، فهو كما قال الشاعر:

ولو أن ثوباً حيك في نسج تسعة وعشرين حرفاً في علاه قصير

حفظ الله الشيخ وأعلى مقامه، فهو كما قال الرواس:

كذلك مَنْ قامتْ حقيقةُ روحه	إلى الله بالإخلاص والزهد والصدق
يَمُنُّ عليه اللهُ جَلَّ جلاله	ويفرغ فيه نقطة الوصل في الخلق
فيزكو بإذن الله في الخلق خُلُقُهُ	ويلوي عن الدنيا كمالية البرق
شؤونُ أفاض اللهُ للخلق سرَّها	فجاءت لأهل الحق من قِبَلِ الحق

الفصل الثامن

أقوال الشيخ ونصائحه وحكمه

إن الناظر في كتب الشيخ يقف على كثير من النصائح السامية والحكم الراقية، التي تفيد طلاب العلم وأهله، فللشيخ خبرة طويلة في التربية والتزكية والسلوك، وعنده بُصُر بأمراض القلوب وأحوال المريدين، ولديه تمكّن علمي امتد إلى عدد من العلوم والفنون، فهو يشبه حديقة غنّاء امتلأت بأنواع الرياحين والورود، تسر العين، وتسعد الروح، وتبهج القلب، حاولنا اقتطاف بعض من هذه الورود العبقّة ليعمّ أريجها، ويسعد الناس بها، وهذه المختارات وردة من الورود، وقطرة من بحور، وقليل من كثير، فهي لا تغني عن الرجوع إلى كتب الشيخ ليقطف القارئ منها المزيد، ويستفيد منها الخاص والمريد، ولا شك أن كل قارئ أخذ منها بنصيب، وقد علم كل أناس مشربهم، والكل يسقى من ماء واحد، فمما اخترته:

أولاً: من نصائحه لطلبة العلم:

* - على طالب العلم أن يستوعب الحكم أولاً، ويمحصه ثانياً، ويتعقله ثالثاً، ثم يرجع إلى مصادره الأصلية رابعاً، ثم يعطي بعد ذلك الجواب، حتى يكون منضبطاً بالأصول والقواعد، وليحذر التسرع والتصلب الفكري، وإلا وقع في الخطأ الفاحش الذي يجعله لا يُعتد بقوله مهما كان صواباً^(١).

(١) إتحاف السائل ٢ / ٢٠٢.

* - المؤمن الحق يدور في فلك الجمهور، ويعلم أن يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار، ولا يتتبع أقوالاً شاذة، ولا يتصيد أباطيل وترهات ليثير من ورائها مفاصد خطيرة، ويتخذها ذريعة لارتكاب الحرام^(١).

* - على الطالب أن يتقي وينتقي، وليعلم أن من قرأ على شخص لا بد أن يسرق طباعه وطريقته وإصلاحه، فإن لم تكن كلها كان بعضها^(٢).

* - إن فهم الأحكام إنما يعود إلى التمكن من أساليب اللغة العربية في التعبير والبيان^(٣).

* - لا يلزم من اختلاف الرأي اختلاف القلوب^(٤).

* - هناك كلام يقال في السر، ولا يصلح أن يكون في العلانية، وكذلك هناك كلام لا يصلح له إلا الإعلان به^(٥).

* - أيها المؤمن البلبل الذي لم يعرف قسوة الخريف لا يحسن استقبال الربيع^(٦).

* - لا تفسيق ولا تضليل مع الاجتهاد والتأويل، غريب أمر المتعصين والغلاة الجافين، تراهم سراعاً إلى التكفير والتضليل والتفسيق والتبديع^(٧).

* - إن علماء الشريعة وضعوا موازين وقوانين وضوابط، يُرجع إليها في كل ما يستجد

(١) إتحاف السائل ١ / ٥.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٤٨.

(٣) إتحاف السائل ١ / ٨٩.

(٤) إتحاف السائل ٢ / ٢٠٨.

(٥) إتحاف السائل ٢ / .

(٦) إتحاف السائل ٣ / ٢٤٢.

(٧) إتحاف السائل ٢ / ٢٠٩.

في هذه الحياة^(١).

* - من الواجب احترام العلماء وإكرامهم وإجلالهم، والاعتراف بفضلهم ومكانتهم، فالأدب معهم مطلوب، والقيام بواجبهم مرغوب، والمعلم بالنسبة للتلميذ بمنزلة الأب لولده، قال يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله تعالى - : العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم، قيل له: كيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة، وبهذا صار حق المعلم كما يقول الغزالي أعظم من حق الوالدين، ولقد صدق من قال:

أفضل أستاذي على نفس والدي وإن نالني من والدي الفضل
فهذا مربى الروح والروح جوهر وهذا مربى الجسم والجسم

* - اعلم أن برّ التلامذة للشيخ يجب أن يكون أكثر من برّهم لوالديهم، لأن الوالدين يحفظانه من آفات الدنيا، والشيخ يحفظه من آفات الآخرة، فالأب يربيه بنعمته، والشيخ يربيه بهمّته^(٣).

* - فليعرف المؤمن الرجال بالحق، فإن ذلك هو الرشاد والهدى، وقصد السبيل، وليحذر من معرفة الحق بالرجال، وذلك عين المقت والطرد والبعد والضلال، فالمقصد الله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٤).

* - على المرء أن يتجنب القول هذا حلال وهذا حرام من غير تبصر ولا دراية ولا فهم صحيح، لأن في ذلك خطورة لا تنكر، ووقوع في محذور لا تحمد عقباه، ولا حرج على المؤمن

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٨٨ .

(٢) إتحاف السائل ٢ / ١٧٦ .

(٣) تنبيه الفكر ١٦٨ .

(٤) تنبيه الفكر ٨٦ .

أن يقلد أي إمام من الأئمة الأربعة، بل ومن غيرهم، متى صح النقل واستفاض وثبت الدليل، وما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما^(١).

* - ينبغي لطالب العلم أن لا يضيق على الناس بسوء فهمه وعصية فكره، وعدم تبصره، ويصدر الأحكام جزافاً حسب مزاجه، أو ينقلها كما هي دون أن يخضعها لموازين العلم وضوابطه، ويقتلها بحثاً وتحقيقاً وتمحيصاً، وإلا كان كالبيغاء يردد ما سمع، ويحكي ما قرأ، وما أكثر البيغاوات في عصرنا ممن قيل لهم فقالوا^(٢).

* - من تجمد في فكره، وعاش بزمان غير زمنه فقد ركد، والركود جهود، والجمود موت^(٣).

* - العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر^(٤).

* - إن إدخال العبادة على العادة وارد وغير مستنكر، أما إدخال العادة على العبادة فممنوع، فليحفظ هذا، فقد غلط فيه كثيرون^(٥).

* - إن لدي مفهومًا خاصاً للعلم والحمد لله، وقد عاهدت الله على أن أكون ضمن دائرة ذلك المفهوم ولو سفت التراب، وتناولت ورق الأشجار.

إن العلم لا ينبغي أن يُتخذ طريقاً للكسب، وأن يكون صاحبه متزلفاً منافقاً يسكت عن الحق، ويؤيد أهل الباطل ابتغاء عرض من الدنيا، أو خوفاً من عزلٍ أو إيقاف مرتب كما

(١) إتحاف السائل ١ / ٤٣ وانظر الفقه المبسط ٢ / ٣٣.

(٢) الفقه المبسط ٢ / ٣٣ المعاملات وإتحاف السائل ١ / ٤٣.

(٣) إتحاف السائل ١ / ٦٩.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ١٤٦.

(٥) تنبيه الفكر ١٢٢.

فعل الأكثرون في مثل هذا العصر.

إذا نحن لم نعمل بمقتضى العلم الذي ذكره ربنا في كتابه ووضحه الرسول ﷺ في سنته، والعلماء المخلصون في تطبيقاتهم السلوكية والعملية، والراسخون في مؤلفاتهم، كالغزالي في إحيائه، والمكي في قوته، والقشيري في رسالته، والطوسي في لمعه، والمحاسبي في رعايته، والمقدسي في منهاجه، والشعراني في تنبيهه ولطائفه وعهوده وميزانه، وابن العربي في فتوحاته، وابن رجب الحنبلي في جامعته، والرفاعي في برهانه، والرواس في بوارقه وفذلكته، وأبو الهدى الصيادي في كثير من كتبه. فالأحسن ألا نقرؤه ولا نتعلمه^(١).

* - كم قدم الصغير للكبير، وكم استدرك الأواخر على الأوائل مع حفظ مرتبة كل شخص ومراعاة مكانة كل فرد «أصابت امرأة وأخطأ عمر». ﴿وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ إلى قوله: ﴿أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين﴾.

إن من مهمة القائد أن يتفقد أحوال أفراد، وأن يرفع شؤون جنوده ويستمع لشكواهم. والأستاذ أن يسأل عن تلامذته، وعلى الفرد مهما صغر شأنه أن يبدي رأياً ويقدم نفعاً ونقداً، لأن لكل فرد مهمته وله اطلاعه الخاص، وقد يطلع الصغير على ما لا يطلع عليه الكبير، وكم من خصلة توجد في المفضل لا توجد في الفاضل، فما من أحد بدون إلا أن يعين، ولا بفوق إلا أن يعان.

يعجبني ما قاله أحد إخواني حيث تمثل هذا المعنى فقال:

حظُّ الكريم سماعُ نصحك شاكراً لا يشمئزُّ من استبانة سوددٍ
مهما سموتَ بحكمة فنيهاً ما ساءه أن يستجيبَ لهدد^(٢)

(١) المقالة ١٠ مع تصرف يسير.

(٢) المقالة ٩.

* - لا أريد من طالب العلم أن يكون شريط تسجيل أو ببغاء يردد ما يسمع، من غير إدراك لما أودع في شريطه، وفهم لما يقرؤه ويردده، لأن الكلام المقدس الذي لا يعتريه خبط أو خلط ولا يشوبه انحراف وتكدير كلام الله عز وجل، وكلام رسوله ﷺ، وما عداهما فيحتمل الخطأ والصواب، وكل كلام يؤخذ منه ويترك إلا كلام الله وكلام رسوله ﷺ^(١).

* - لقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في آرائهم، واختلف التابعون والأئمة المجتهدون من بعدهم في اجتهاداتهم، وما تدابروا، وما تقاطعوا، وما طعن بعضهم في بعض، وما جرح بعضهم بعضاً في اجتهادٍ أو رأي، وتجادلوا فيما بينهم في أمهات المسائل والقضايا ولكنهم ما تخاصموا، بل كانوا أوفياء يتبادلون النصيحة والنقد وهم على سرر المحبة متقابلين، وشعار كل واحد منهم: علينا أن نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه^(٢).

* - فهم الدليل أهم من الدليل^(٣).

* - على طالب العلم الصبر وعدم اليأس إذا صعبت عليه غوامضه^(٤).

* - أريد من طالب العلم أن يكون نسرا بين النسور محلقا في الفضاء ولكن بشرط أن يرى النسر نسراً والقزم قزماً^(٥).

(١) قرأه عين رسول الله ﷺ ٨٨.

(٢) تنبيه الفكر ١٣٢.

(٣) الشيخ ٨.

(٤) الشيخ ٨.

(٥) الشيخ ٨.

ثانياً: من أقواله حول المرأة:

* - إن للمرأة حقاً شرعياً في أن يكون لها بيت مستقل، تأمن فيه على نفسها ومالها، وتأخذ فيه راحتها، وتخلو لشأنها، ولا تجبر على أن تسكن مع والديه، ولا مع الإخوة الكبار، فإن سكنت باختيارها مع وجود غرفة خاصة لها في البيت فلا بأس، وقد يسرت على زوجها، وإن لم ترض فلا تجبر على ذلك^(١).

* - إن المرأة في الإسلام لها شخصية حقوقية كاملة، تملك المال وتبيع وتشترى وتوصي وتهب لمن تشاء، وتنفق كيفما تشاء ضمن قيود الشريعة وضوابطها...

فالآباء والإخوة والأزواج الذين يتسلطون على أموال بناتهم أو أخواتهم أو زوجاتهم من غير مبرر شرعي ظالمون، وآكلون لأموال الناس بالباطل^(٢).

* - إن برّ الأم لا يجوز أن يطغى على حقوق الزوجة، فهذه لها حقوق وهذه لها حقوق، وإذا كان من الظلم أن تكلف الزوجة بخدمة الأم فإنه لا يجب إلزامها بتلك الخدمة طلباً لبر الأمهات، لأن الظلم حرام، والأم إذا طلبت منع الزوجة من حقها، فقد طالبت بما ليس لها، وبما لا ترضاه لابنتها، فلا تجاب إلى طلبها، وعلى الولد أن يترفق في صرفها عن هذا الطلب غير الشرعي^(٣).

* - لا يجب على الزوجة خدمة بيت زوجها، ولا خدمة أحد من أهله من أب أو أم أو أخ أو أخت، فلا يكلفها بالأعمال المنزلية كالطبخ والكنس والغسل وخياطة الملابس وما أشبه ذلك، فإن تبرعت هي من تلقاء نفسها من غير إكراه بالإنفاق على شيء من ذلك، أو فعلت

(١) إتحاف السائل ١ / ٩٧.

(٢) إتحاف السائل ٢ / ١٩٩.

(٣) إتحاف السائل ١ / ٩٩.

بيدها شيئاً منه صح تبرعها، وبرهنت على حسن أخلاقها ومروءتها^(١).

* - لا اختلاطاً بريئاً مهذباً كما يقولون، ولا نظرات عابرة بريئة، ولا خلوة أمينة كما يدعون، وما من جسمين متجاذبين إذا اقترب أحدهما من الآخر إلا ويلتقيان، أو يلقي بهما في نار الشهوة دون أن يحترقا

نظرةً فابتسامة فسلام فكلامٌ فموعدٌ فلقاء

.... وهنا حقيقة ثابتة لا تخفى على عاقل، وهي أن الرجل والمرأة حيث التقيا وكيفما اجتمعوا، معلماً وتلميذة، طبيباً وممرضة، مديراً وسكرتيرة، شيخاً ومريدة، فإنهما يقيان رجلاً وامرأة^(٢).

* - أيتها المرأة، أيتها الفتاة: اعلمي أن العبء الأكبر ملقى على عاتقك، فاجعلي من نفسك قدوة صالحة، ومثلاً أعلى يُحتذى، وكوني محتشمة في ثيابك، معتدلة في زينتك، لئلا تستعبدك وتكوني أسيرة اللذة والمتعة حيث استولت على قلبك وكل تصرفاتك، فأنتسك الله والدار الآخرة، لأن المؤمنة الكاملة إنما هي أمة خالصة لله تبارك وتعالى، وقد تجردت عن كل ما يقطعها عن الحق جلّ وعلا.

أيتها المرأة، أيتها الفتاة: صوني محاسنك، واجعليها مقيدة ضمن إطار الشريعة ليقتبس منك الأبناء الفضيلة، ويستمدوا من سلوكك الطيب، وأخلاقك الحسنة، وحشمتك الكاملة معاني التربية الصالحة، والسير الطاهر المبارك، لأنك مرآة صادقة للأبناء، فأريهم من نفسك صفاء السريرة، ونقاء العلانية، وصالح الأعمال، وصادق الأقوال والأحوال، والتقيد بالأمر الإلهي، والنهي الرباني، واعلمي أن الجمال والزينة مصيرهما إلى التراب، وسيمحوهما الموت،

(١) إتحاف السائل ١ / ٩٨ - ٩٩.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ٢٢٠.

ويبددهما الدود، في بيت الظلمة، بيت الوحشة، بيت الغربة، بيت الحجارة، وكم من وجه مليح، ولسان فصيح، غدا بين طبقات النار يصيح.

اعمل بمقتضى قول الله عز وجل حيث خاطب المؤمنات عامة بشخص أمهات المؤمنين من باب: «إياك أعني واسمعي يا جارة»: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله﴾ [الأحزاب: ٣٣] (١).

ثالثاً: ومن أقواله في الفقه والمذاهب الفقهية:

* - المذهب الشافعي بالنسبة للاعتماد على الحديث في القمة التي لا ينازعه فيها أحد (٢).

* - أنا شافعي ما حييت ولكن لا أفرض على الناس أن يتشيعوا (٣).

* - المذهب الحنبلي - على تشدده - ميسر كل التيسير في المعاملات المالية والعقود وشروطها، فكل شيء مباح حتى يقام دليل الحظر والتحريم (٤).

* - الأحكام الشرعية قد أنيطت بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني (٥).

* - الأمر - أي صيغ الأمر - يقتضي الوجوب ما لم تكن هناك قرينة تصرفه عنه (٦).

* - العمل المحظور في الشرع بمنزلة المعدوم (٧).

(١) حكم الإسلام في النظر ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) إتحاف السائل ٢ / ٢٠٤.

(٣) أخبرني بذلك هاتفياً.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ٢٥٣.

(٥) إتحاف السائل ٢ / ٨١ وانظر ١ / ٩١.

(٦) إتحاف السائل ١ / ١٢٩.

(٧) إتحاف السائل ٢ / ٢٢٢.

- * - الألفاظ لم تقصد لذواتها وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم^(١).
- * - من اضطر إلى إيداع مال في مصرف ربوي سواء أكان في الداخل أو في الخارج، فلا يترك الفائدة له، بل يأخذها ويصرفها في المصالح العامة، ولا يستفد منها بشيء من وجوه الاستفادة مهما كانت ضئيلة^(٢).
- * - إدخال العبادة على العادة غير مستنكر ولا مذموم دون العكس^(٣).
- * - الضرر إن كان ظنياً فيكون مكروهاً، وإن كان قطعياً فهو حرام^(٤).
- * - تعليق العقود والفسوخ والتبرعات والالتزامات وغيرها بالشروط أمر تدعو إليه الضرورة أو الحاجة أو المصلحة، والمصالح التي اعتبرتها الشريعة ترجع إلى المحافظة على الكليات الخمس وهي: حفظ النفس، والدين، والنسل، والمال، والعقل^(٥).
- * - لا يصح بيع كتب الكفر والدعارة وما إلى ذلك من الصور المحرمة، ولا يجوز شراء السلع المصادرة إذا علم أنها مصادرة^(٦).
- * - بيع الدخان المعروف لا يجوز بيعه ولا شراؤه، لأنه لا منفعة فيه، بل يحرم استعماله لأن فيه ضرراً كبيراً اتفق عليه عند أهل الاختصاص والخبرة^(٧).
- * - جرت العادة بين الناس بإرسال الصغار لشراء بعض الحوائج المنزلية وغيرها من

(١) إتحاف السائل ١ / ٩٠ وانظر ٣ / ٢٥٦.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ٢٤٤.

(٣) تنبيه الفكر ١١٨.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ١٩٠.

(٥) إتحاف السائل ٢ / ٢١٦.

(٦) الفقه المبسط ٢ / ١٩.

(٧) الفقه المبسط ٢ / ١٩.

الحوانيت المحلية، فيكون ذلك الشراء صحيحاً لما جرت به العادة في سائر البلدان، لأن ذلك مما عمّت به البلوى، وقد تدعو الضرورة إلى ذلك، وأصبح ذلك عرفاً سائداً بين الناس^(١).

* - الأحكام العرفية تتبدل بتبدل الزمان والمكان والحال، بخلاف الأحكام المبنية على النصوص الصحيحة والصريحة الثابتة^(٢).

* - إن الربا هو الربا، وتغيير اسمه وتصويره بغير صورته وإلباسه لباس البيع والشراء لا يغيّر من مضمونه شيئاً، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن بعض المحرمات في آخر الزمان تُسمّى بغير أسائها، فالله ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر : ١٩]^(٣).

* - الفقيه الحق من ينظر إلى الأحكام نظرة عامة وشاملة بعين ظاهرة وعين باطنة، وينظر بالعين الظاهرة إلى الأحكام المتعلقة بالظاهر من حيث الهيكل والشكل، وينظر بعين باطنة من حيث الحكمة والمضمون والغاية، فالوقوف عند حرفية الألفاظ والمباني، والإعراض عن المقاصد والمعاني خطأ كبير، وطمس لمعالم الحقيقة والبيان الذي أراده الله عز وجل لعباده أن يفهموه ويدركوه...

ولذلك ينبغي للفقيه أن يكون ذا نظر كامل شامل وواسع حتى يستطيع بناء أمة، وإحياء تشريع، وبعث حضارة، وتكوين مجتمع فاضل يعرف مرامي هذه الحياة، وكيف يتابع مسيرته فيها^(٤).

* - نعلم أن جماهير العلماء - إن لم نقل كلهم - يشبتون أنه إذا روي الهلال في مكان لزم

(١) الفقه المبسط ٢ / ١٠ (المعاملات).

(٢) الفقه المبسط ٢ / ٣٣ (المعاملات).

(٣) إتحاف السائل ١ / ٢٦.

(٤) قرّة عين رسول الله ﷺ ٨٧ - ٨٨.

الصوم جميع المسلمين في أي مكان، بُعد المكان أو قُرب، سواء كان متفقاً في مطلعه أو مختلفاً، وسواء كان غربي بلد الرؤية أو شرقيها، فلماذا لا يوحد المسلمون صيامهم؟ وهذه أقوال علماء مذاهبيهم، ولم ينفرد في ذلك إلا بعض علماء الشافعية لا كلهم^(١).

* - خلاف الفقهاء في القضايا الفرعية فيه رحمة وسعة وشمول، وذلك دليل على مرونة التشريع ويُسرّه، وقد نص كثير من الفقهاء على أنه يجوز للمرء أن يعمل بالقول الضعيف والمرجوح في خاصة نفسه إذا اقتنع أنه أوفق وأرق، وأما الفتوى فينبغي أن تكون ضمن الأقوال الصحيحة^(٢).

* - الحديث الضعيف إذا خالف الحديث الثابت فلا حاجة إلى التأويل بل يُعمل بالثابت، ويُترك الضعيف^(٣).

رابعاً: من أقواله ونصائحه في الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب:

* - إن التصوف الإسلامي قائم على أسس قوية من كتاب الله وهدى نبيه عليه الصلاة والسلام وهو تخلية وتحلية^(٤)...

وهو أحد الأمور الثلاثة التي يتألف منها الدين وهي العقيدة والعبادة والمراقبة لله سبحانه وتعالى، فالعقيدة ممثلة بالإيمان، والعبادة ممثلة بالإسلام، والمراقبة والتزكية ممثلة بالإحسان، ولا مشاحة في الأسماء بعد الاتفاق على المسمى^(٥).

(١) إتحاف السائل ١ / ٧٤.

(٢) إتحاف السائل ١ / ١١٣.

(٣) إتحاف السائل ٢ / ٢٢٢.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ١٦٧.

(٥) تنبيه الفكر ١٢٧.

* - إن التصوف قوامه الذكر والعبادة والتأمل والطاعة، وهو منضبط بضوابط صارمة من الكتاب والسنة، وثمرته التجلي والمحبة، وما ينتج عنهما من إلهام وصدق، وبين بدايته ونهايته أحوال ومقامات ومعارج ونفحات، سرها الترقى الدائم في صفاء القلب، وإلهامات الروح، وإشراقات الحس^(١).

* - أصوله - أي التصوف - مستمدة من لبّ الشريعة، ونابعة من جذورها، وصادرة عنها كتاباً وسنة، وكل ما خالف هذه الأصول والنقل الصحيح والمنطق السليم والتأويل الحسن فهو منها بريء، وإن ادعى ذلك من انتسب إليه، وتظاهر بأنه متمثل به، بهذا صرح شيوخه، ولذلك كثرت أقوالهم وتوصياتهم بالتزام المصدرين الأساسيين للشريعة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(٢).

* - التصوف الصادق: هو الجهاد في أعلى ذراه، وهو زهد وقناعة، وطاعة وعبادة، ومحبة وفداء.

التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء.

والصوفي الصادق: هو الذي يعيش في يقظة وجدانية حية قوية، وفي يقظة روحية مشرقة عالية، وفوق هذا وذاك هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص فقط لا غير^(٣).

* - الذكر: تحريك اللسان مع استحضار القلب بحمد الله والثناء عليه، وتسبيحه وتمجيده، وتلاوة كتابه، ليتحقق للذاكر الحضور الدائم مع الله تبارك وتعالى، مما يبعث في القلب حفظ حقوق الله وأداء واجباته ليحظى من وراء ذلك بالشرف والرفعة.

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٦٨.

(٢) تنبيه الفكر ١٢٧.

(٣) تنبيه الفكر ١٣١.

* - والذكر ثلاثة أنواع:

أ - ذكر الثناء: نحو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

ب - ذكر الدعاء: نحو: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [الأعراف ٢٣].

ج - ذكر الرعاية: مثل قول الذاكر: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي.... والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة^(١).

* - الاستغفار: علاج روحي عظيم، له أثره الفعال في طهارة القلوب وجلائها من صدئها، وحصن منيع، ودرع متين لصدّ سهام إبليس^(٢).

* - محبة رسول الله ﷺ هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العين، وهي الحياة، من حُرّمها فهو في عداد الأموات، وهي النور، فمن فقدّها ضرب في تيه الظلمات، وهي شفاء فمن عدمه حلت بقلبه ضروب الأسقام^(٣).

* - المكاشفة: ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي للعين، فلا يبقى معه شك، ولا ريب أصلاً، وهذا نهاية الإيثار، وهو مقام الإحسان^(٤).

* - من صدق في قول لا إله إلا الله لم يحبّ سواه، ولم يرجُ إلا إياه، ولم يخشَ أحداً إلا الله و لم يبقَ له بقية من آثار نفسه وهواه، ومع هذا فلا تظنوا أن المحب مطالب بالعصمة،

(١) تنبيه الفكر ٣٣ - ٣٤.

(٢) تنبيه الفكر ١٨٠.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ٢٤٢.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ١٦٢.

وإنما هو مطالب كلما زلَّ أن يتلافى تلك الزلة بالتوبة الصادقة النصوح^(١).

* - الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ من أعظم القربات شأناً، وأرفعها مقاماً^(٢).

* - من علامات صلاة الله على عبده أن يزيّنه بأنوار الإيمان، ويحليه بحلية التوفيق، ويتوجه بتاج الصدق، ويسقط عن نفسه الأهواء والإرادات الباطلة، ويبدله بها الرضا بالمقدور^(٣).

* - الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من غير الوجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود^(٤).

* - السعيد من أخذ من دنياه لآخرته، واستقام على أمر الله حتى يلقاه، راضياً مرضياً إن شاء الله تعالى^(٥).

* - الصلة بعباد الله الصالحين هي امتداد للصلة برسول الله ﷺ، والصلة برسول الله ﷺ امتداد للصلة بالله عز وجل^(٦).

* - اعلم أن ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحدثه - أي الاسترسال

(١) تنبيه الفكر ١٩١.

(٢) تنبيه الفكر ٢٠٧-٢٠٨.

(٣) تنبيه الفكر ٢٠٨.

(٤) تنبيه الفكر ٦١.

(٥) إتحاف السائل ١ / ١٥٠.

(٦) قرّة عين رسول الله ﷺ ٦٠.

فيه - (١).

* - إن المقاصد الحسنة مهما نُبِلَتْ غاياتها، وسمتْ أهدافها، لن تكون صحيحة ومقبولة إلا إذا كانت موزونة بميزان الشرع إصداراً وإيراداً^(٢).

* - الحياء: هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وزهابه ذهاب الخير أجمعه^(٣).

* - الكرامة: هي أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح، ملتزم بمتابعة النبي ﷺ^(٤).

* - البر: كلمة جامعة لكل خير، وهو لا يأتي إلا من العطف والحنو وإرادة الخير^(٥).

* - إن هناك من يغتر بظهور بعض الخوارق على يديه، ويرى نفسه فوق كثير من الناس، وما علم المسكين أن الأولياء من الصالحين يستترون من الكرامة كاستتار المرأة من دم الحيض، لأنهم يخافون على أنفسهم الانحراف، أو قد يكون ذلك الخارق استدراجاً، فهم دائماً خائفون وجلون، ويعتبرون أن الكرامة العظيمة هي الاستقامة على أمر الله، والالتزام بمقتضيات الكتاب والسنة في سائر الأعمال^(٦).

* - ليس الزهد خلواً اليد، وإنما الزهد فراغ القلب من حب الدنيا^(٧).

* - إن الكشف الحقيقي النوراني لن يتصادم مع الشريعة أبداً، ولم يكن الكشف

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٨٠.

(٢) تنبيه الفكر ٩١.

(٣) حكم الإسلام في النظر ١٤٠.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ١٣٢.

(٥) إتحاف السائل ١ / ١٤٠.

(٦) إتحاف السائل ٣ / ١٣٢.

(٧) إتحاف السائل ٣ / ١٤٤.

والذوق والتجربة في يوم مصدراً من مصادر التشريع، لضمان العصمة في الكتاب والسنة والإجماع، وعدم ضمانها في غير ذلك^(١).

* - اليقين: هو روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره^(٢).

* - اليقين أول خطوة للخاصة، وهو مبدأ لسلوكهم، ومنزلة اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وتنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون.....

متى وصل اليقين إلى القلب امتلاً نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم، فامتلاً محبة لله وخوفاً منه، ورضى به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات، والحامل لها^(٣).

* - أساس الإيمان القلب الذكي، وأساس الإخلاص الفؤاد التقي، وأساس الحماسة الشعور القوي، وأساس العمل العزم الفتى^(٤).

* - لقد قرر علماء الشريعة في المشارق والمغرب أن مصادر التشريع: الكتاب والسنة والقياس والإجماع، ولم يذكروا مصدراً خامساً هو الكشف أو الإلهام^(٥).

* - معرفة أسماء الله وصفاته من أهم أمور العقيدة و لذا وجب على كل مسلم أن يعرفها ويؤمن بها، ويسعى جاهداً لتمثل دالاتها فيما بينه وبين ربه عز وجل، وبينه وبين عباد

(١) تنبيه الفكر ٩٩.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٦٣.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ١٦٣.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ٢٤٣.

(٥) تنبيه الفكر ٩٩.

الله ليفوز بسعادة الدارين.

فهي ينابيع الحياة الروحية في القلوب ومشرق أنوار المعارف الإلهية على العقول، ومنها استمد الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية، والكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه، والأدعية والقصائد في حبه ومناجاته^(١).

* - هنيئاً لأقوام امتلأت قلوبهم بذكر الله، واستنارت بنوره، ولهجت ألسنتهم به فأشرق نور الذكر على وجوههم، فكانوا كالشجرة الخضراء وسط الصحراء، وكالمصباح في البيت المظلم^(٢).

* - رحم الله امرأ عرف حدّه فوقف عنده، وراقب الله في سرّه وعلمه، وتمثل قول الله عز وجل دائماً: ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ [الشعراء: ٢١٩]^(٣).

* - لا تحتقر دعاء المظلوم وإن تأخر الوقت، قوسه قلبه المقروح، ووتره سواد الليل، وأستاذه صاحب «لأنصرتك ولو بعد حين» وقد رأيت ولكن لا تعتبر^(٤).

* - المعجزة: أمر خارق للعادة، تظهر على يد مدعي النبوة مقرونة بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة، وهي بمثابة قول الله سبحانه وتعالى: «صدق عبدي فيما يبلغ عني» فهي أمر خارق لنواميس الكون، خارج عن سنن الوجود التي عرفها الناس، واصطلح عليها الخلق، يجريها الله على يد رسوله تصديقاً لدعوته وإقناعاً للمرتابين في رسالته.

(١) تنبيه الفكر ١٤٦.

(٢) تنبيه الفكر ٢٤.

(٣) تنبيه الفكر ٦١.

(٤) إتحاف السائل ٣ / ٢٤٩.

والأساس فيها أن تكون غير خاضعة لناموس معروف أو مقيد بنظام مألوف، ومخطئ من يحاول تقريبها للأذهان بأن يدخلها تحت قانون، أو يخضعها لسنن الوجود، لأنه بذلك يبطل حقيقتها ويسقط حجة حاملها، ويردها إلى الظواهر العلمية، أو يلحقها بأعمال السحرة أو حيل المشعوذين^(١).

* - إن التواجد الحق لا يصدر إلا عن الكاملين المتمكنين بحقائق الشريعة، الذين اهتموا بهديها، واستناروا بنورها، وسلب اختيارهم بوجدتهم^(٢).

* - الروح من طبعها السمو والتعالي عن صفات البشرية، بل هي من مرافقات الملائ الأعلى، فمن صفت روحه من شوائب الأغيار، وطهرت من دنس الأوزار كان قريباً إلى العالم الروحاني الذي لا يغفل عن ربه، ولا يلتفت إلا إليه^(٣).

خامساً: من أقواله في الحياة الاجتماعية، مظاهرها ومفاسدها، وتدبير شؤونها:

* - الترف مفسد للأخلاق، وهادم لكيان المجتمع، ومن مظاهر الترف المهلك للأفراد والجماعات الإغراق في الكماليات، والأخذ بزخارف الدنيا، وهما يجبران إلى الوقوع في الحرام، وقد يوقعان في أزمات اقتصادية، وفوضى اجتماعية^(٤).

* - يستحيل أن تنتصر أمة أعظم ما يشغلها لعب الكرة، وأهم ما يملأ صحفها المقروءة وإذاعتها المسموعة والمرئية هو الغناء والرقص والتمثيل، وأشهر نجوم المجتمع ليسوا العلماء ولا الأدباء ولا المفكرين، بل المطربون والمطربات، والراقصون والراقصات،

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٣١.

(٢) تنبيه الفكر ٥٩.

(٣) تنبيه الفكر ٥١.

(٤) إتحاف السائل ١ / ١٥٨.

والممثلون والممثلات، الأحياء منهم والأموات^(١).

* - ما أحوج الإنسان في هذا الخضم المادي الزاخر بأن تؤسس له جمعيات (الرفق بالإنسان) بدلاً عن جمعيات (الرفق بالحيوان) حتى يحيا الحياة الحرة الكريمة، ويتخلص من ثالوثه السرطاني (المرض والجهل والفقر)^(٢).

* - الصبر مرٌّ ولا يتجرعه إلا حرٌّ^(٣).

* - رحم الله والدًا أعان ولده على برِّه^(٤).

* - ويل لأمة تلبس مما لا تنسج، ويل لأمة صناعتها الترقيع، ويل لأمة عاقلها أبكم، وقويها أعمى، ويل لأمة كل قبيلة فيها أمة^(٥).

* - إن الأمة بحاجة إلى حركة، وصدع بالحق، وتوجيه وإرشاد، فالإيمان والحمد لله مستقر في القلوب، ولكنه كالجمرة الخامدة بحاجة إلى من يثير وهجها، ويزيل الرماد عنها^(٦).

* - العدل: هو الحياة، وعلى المسلم أن يلتزمه التزاماً صادقاً في كل مجالات حياته^(٧).

* - اتفق العلماء على أن الضرورات التي جاء الشرع لتحقيقها خمسة: (حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ المال، وحفظ العقل)^(٨).

(١) إتحاف السائل ٣ / ٢٦٤.

(٢) الأضحية والعقيقة ١٢٦.

(٣) سمعت هذه العبارة منه في مكالمة هاتفية مساء يوم الأحد ٢٩ / ١٠ / ١٤٢٨ هـ وهو يشكو فيها زمانه.

(٤) إتحاف السائل ١ / ١٣٠.

(٥) إتحاف السائل ٣ / ٢٥٣.

(٦) المقالة ١٢.

(٧) إتحاف السائل ١ / ١٢٧.

(٨) إتحاف السائل ٣ / ٢٤٥.

* - الجمعيات الخيرية عمل مبرور ومشكور، وفيه تراحم وتعاون، وقضاء للحوائج، وهذه أمور مقررة شرعاً ومرغب فيها لأنها من مكارم الأخلاق^(١).

* - علينا أن نكون متمسكين بأحكام وآداب ديننا، حين تقوم لنا علاقات اجتماعية بيننا وبين غير المسلمين، وأن لا نصحب إلا الملتزمين بدينهم، والمحافظين على الآداب العامة، والأخلاق الكريمة سواء كان منا أو منهم، ومعلوم أثر الجليس الصالح في النفس وفي السلوك، وعلينا اجتناب من يتتهك حرمة الأخلاق، ويخترق أسوار المحرمات، سواء كان منا أو منهم، وأن لا ندوب في بوتقة الآخرين، أو نجامل ونداهن على حساب ديننا وكرامتنا وأخلاقنا، وإلا فقد وقعنا ضمن التحذير الإلهي من موالاتهم، وحينئذ يتضح لنا معنى قوله ﷺ: [يحشر المرء مع من أحب]^(٢).

* - بالأغنية قد نلهب شعوراً يكاد يخبو، وقد نثير نخوة توشك أن تموت فتقلب الهزيمة نصراً، وبالأغنية يمكن أن يمكن أن نخدر إحساساً، وقد نثير شهوة محرمة، ونسمم ضميراً، ونلهي شعباً بأكمله عن التفكير بأقرب خطر منه يتهده، وهذا ما يلجأ إليه أهل التخطيط لهدم القيم والمكارم، وقتل الروح المعنوية في النفوس، وأهل التغيب الذهني، والحث على نهب اللذات واستعمالها، إنه تخطيط دقيق وعميق عقب كل نكبة ونكسة وهزيمة^(٣).

* - إن من الثابت تاريخياً بما لا مجال لرده أو مناقشته أن من أسباب انقراض الدول واندحارها هو تردي شعوبها في حمأة الترف والفسق والفجور والرذيلة، بعد أن نشأت سليمة

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٠٦.

(٢) إتحاف السائل ١ / ١٤٢.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ٢٣٣.

قوية متمسكة بأهداب الفضائل والأخلاق الكريمة، وتاريخ اليونان والرومان والفرس والعرب بالذات خير دليل على ذلك.

فما مصير الأمة العربية في عصرها الحاضر، حيث بدأت رأساً بالتجرد من الفضائل والقيم، والانغماس في حمأة الفسق والفجور؟

ولماذا تستورد التحلل الخلقي؟ وتشيع الفاحشة بين أبنائها؟ وهي تريد أن تأخذ مكانتها بين الأمم، وتستعيد مجدها المضاع؟ إن الأمة التي لا تثبت وجودها لا تكون حرة بتقدير الأمم واحترامها، ما لم تتمسك بمبادئ الخلق القويم.

لقد امتد نشاط دعاة التحلل الخلقي إلى الصحف والمجلات والكتب وسائر وسائل الإعلام، وتغلغل هذا النشاط إلى داخل البيوت، وإسرائيل في قلب الأمة العربية يدعمها الاستعمار الشرقي والغربي، فهل سنقاوم أعداءنا بالتهتك والخلاعة وإشاعة الفاحشة؟ وهل يقوى المخشون على القتال؟^(١)

سادساً: من أقواله في العلماء والشيوخ الكمل وأوصافهم:

* - الرجل الصادق يجمع الناس على الله، ويوقفهم على بابه، لا يجمعهم على شخصه، ويصدّهم عن غيره، ويغتر بكثرة الأتباع، فإن ذلك الهلاك المحتم^(٢).

* - إن المرشد ربّاني النزعة قد فرّغ قلبه من محبة الدنيا بكل مظاهرها، فاستوى عنده إقبالها وإدبارها، واستوى عنده المدح والقذح، منضبط بأحكام الشرع وقيوده من منطلق دراية وعلم، لا بدعوى حديث القلب وإلهام النفس^(٣).

(١) حكم الإسلام في النظر والعورة ١٤٠ - ١٤١.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٤٥.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ١٤٧.

* - الرجل الكامل يربي بحاله أكثر من مقاله، ولسان الحال أفصح وأصدق من لسان المقال^(١).

* - الكَمَل من المرشدين من يربي تلاميذه بالنظر^(٢).

* - الولي: هو العارف بالله تعالى، وبصفاته حسب الإمكان، المواظب على الطاعة، المجتنب للمعاصي، بمعنى أنه لا يرتكب معصية بدون توبة، وليس المراد أنه لا تقع منه معصية بالكلية، إذ ليس معصوماً، المعرض عن الانهالك في اللذات والشهوات المباحة، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣ - ٦٤]^(٣).

* - رحم الله عالماً أعان الناس على بره واحترامه، وغرس في قلوبهم محبته عن طريق صدقه وإخلاصه ووقاره وورعه، وكان قدوة صالحة في سلوكه قولاً وفعلاً^(٤).

* - العلماء العاملون المخلصون الحاملون لواء الشرع، الذابون عنه والمنافحون عن تعاليمه هم ورثة الأنبياء، فهم أئمة الهدى، ونبراس الرشاد في كل زمان ومكان، ومثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، فإذا طمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة، وهم أولياء الله تبارك وتعالى لأنهم قد تولوا شريعة الله دراسة وتبليغاً وعملاً وصدقاً وإخلاصاً، فتولاهم الله سبحانه، فكانوا محلّ عنايته ورعايته، فالأدب معهم لازم، وصيانة حرمتهم متحتمة، واحترامهم واجب، ليس منا من يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه بهم يحفظ الله شريعته، وتظهر أحكامه ولذلك كانت إهانتهم إهانة للدين، والاستخفاف بهم استخفاف

(١) إتحاف السائل ٣ / ١٤٤.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٥٨.

(٣) إتحاف السائل ٣ / ١٣٢.

(٤) تنبيه الفكر ١٣٣.

بالشريعة، وسببهم فسق وضلال، إن لم يكن كفراً وهلاكاً ووبالاً^(١).

* - المجدد: هو كل من أحيا معالم الدين بعد طموسها، وجدد مناهجه الواضحة بعد انحرافها.

والتجديد في حقيقته عبارة عن تطهير الشريعة من أدناس الجاهلية القديمة والحديثة، وجلاء حقائقها حتى تشرق كالشمس ليس دونها غمام.

والتجديد لا يكون في الأصول وإنما في عرضها عرضاً يتناسب وطبيعة القرن الذي يحدث التجديد فيه، وكذلك الفروع لتوافق المستجدات فيه، وتقدم الحلول الصحيحة المتطابقة مع روح التشريع^(٢).

* - صدق من قال: بأن أرواح الكمّل من الوارثين المتمكنين الصالحين تنفع مريدتها، وتمد تلامذتها بالمعاني الروحية الصحيحة السامية بعد وفاة صاحبها أكثر من إمدادها أثناء حياته^(٣).

سابعاً: أقواله في التصوف المنحرف والمتصوفة الجهلة:

* - طغام الصوفية يفسدون أكثر مما يفسد غيرهم من أهل اللهو، إن أهل اللهو قد يعترفون بخطئهم أو مخالفتهم ويقرون بأنهم مذنبون، ويطلبون منه سبحانه العفو والغفران، أما طغام الصوفية وراعاهم يعصون ويظنون المعصية طاعة، ويخالفون ويظنون المخالفة قربة، وهل يتوب أو يستغفر من كان يظن نفسه على شيء، ولكنه في الحقيقة ❀ كسراب بقيعة

(١) تنبيه الفكر ١٣٣.

(٢) إتحاف السائل ٣ / ١٤١.

(٣) حسن الشريعة ١٠.

يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ﴿[النور: ٣٩]﴾^(١).

* - المنكرون على التصوف إنها ينكرون الدجل الذي دخل عليه، والشبهات والخرافات التي تسلت إليه، وإنكارهم هذا المقصود منه نصره الشرع، لا إنكار أصله، وقد تخون المنكر العبارة، ويجانبه التوفيق في اتباع الحكمة، ويخونه الأسلوب العلمي المبني على الحقائق فيقسو في إنكاره^(٢).

* - مسكينة رقصة الحبشة، لقد أصبحت على مفترق الطرق، وأضحت لقمة سائغة لذوي المجون واللهو الآثم، حيث يستشهدون ويستدلون بها على جواز الرقص في الإسلام بكل صوره وأشكاله، وأصبحت ذريعة لذوي التنطع والانحراف من بعض فرق التصوف حيث يثبتون بها جواز تلك الحركات المذمومة التي خرجت عن النطاق المشروع والمأذون به، نعم مسكينة رقصة الحبشة^(٣).

* - إن الأحكام الشرعية تعم الجميع، والتزام الكتاب والسنة واجب على الكل، فلا خصوص ولا عموم ولا استثناءات، ولا تبني أفكاراً مسبقة ثم محاولة التفتيش عن أقوال تدعمها، وتأويلات فاسدة تنصرها، فالمؤمن لا يتبع هوى نفسه، بل هو أسير الدليل متى صحّ، والنقل متى وافق النصّ، ومن الذي قال إنه لا يوجد بين الصوفية طغام ورعاع؟ ومن الذي حكم أنهم بريئون من كل مخالفة، ومن التمسك بما هو مبتدع^(٤).

* - إن المشكلة التي يعاني منها المصلحون تتمثل في تمسك كثير من المريدين بأقوال شيوخهم، وانتصارهم لها سواء كانت حقاً أم باطلاً، وسواء خالفت صريح الكتاب والسنة

(١) تنبيه الفكر ١٢٣.

(٢) تنبيه الفكر ١٣٢.

(٣) تنبيه الفكر ١٢٠.

(٤) تنبيه الفكر ١٢٣.

والجمهور أم لا؟ من غير وقوف على دليل سليم ومنطق مستقيم، فكانوا كالبيغاوات يرددون ما يسمعون، ومن قيل لهم فقالوا، وكفروا بعقولهم والنقل الصحيح، وسلموا لذوق فلان ووجد فلان وحال فلان وفعل فلان^(١).

* - ينبغي لجماعة المنشدين أن يبدلوا بعض القصائد والأناشيد التي هي موقوفة على قائلها في أحوالهم الخاصة، حال كونهم مسلوبي الاختيار، ولا يتابعون عليها.
نعم ينبغي أن يبدلوها بقصائد وأناشيد أخرى تتضمن مواعظ وآداباً وحكماً ودعوة إلى الله ورسوله لتكون درساً وعظيماً مقترناً بذكر الله تبارك وتعالى^(٢).

* - ما يدعيه بعضهم من إثبات الأحاديث عن طريق المنام ويسميها الأحاديث المنامية، فإن ذلك غاية في الضلال والإضلال والانحراف عن منهج الحق^(٣).

* - لقد رضي الله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن دستوراً، وبمحمد ﷺ قائداً ومربياً وهادياً ودليلاً، وبهدي السلف الصالح طريقاً، وبمنهج الرفاعي سلوكاً وعملاً، نحارب كل بدعة، ونعادي كل شقشقة وشعوذة، ونمحق كل ما لا يمت إلى ذلك بصلة، نحق الحق وننصر أهله، ونبطل الباطل ونخذل شيعته، على ذلك نحيا ونموت إن شاء الله تعالى مهما كلفنا ذلك من متاعب ومهما تحمّلنا من صعاب، وسنكون بعون الله تعالى صاعقة على ذوي البدع والخرافات حتى ينجلي وجه الحقيقة، ويتخلص التصوف الشرعي النقي مما علق به من شوائب، ولا بد للفجر أن يسطع مهما طال الليل واشتد الظلام، وللشمس أن

(١) تنبيه الفكر ٨٣.

(٢) تنبيه الفكر ١٢٧.

(٣) إتحاف السائل ٢ / ٥٣.

تشرق ولو بعد حين^(١).

* - إذا لم يكن إعطاء الطريق مدعوماً بالتوجيه والإرشاد ورسم المعالم وإيضاح سبل النجاة ليكون المريد على علم وبصيرة ليفرق بين حديث النفس وحديث الحق، ولمة الملك ولمة الشيطان، ويفرق بين الواقع والخيال، ويؤدي العبادات على ضوء العلم ومنهج الفقه، فقد تنقلب عليه الأوراد وتجّره إلى أسوأ العواقب، وهذا ما أتوقعه إذا لم يكن هناك تأنّ وتوجيه، وهناك الطامة الكبرى، وكان من غير سلوك الطريق خير له من سلوك الطريق على غير هدى.

فقد قالوا: لقد دخل الجنة كثيرون من غير طريق، وما دخل أحد الجنة من غير إيمان، فلنربّ الإيمان في قلب النشء أولاً، ونمسح عن قلوبهم غبار الشكوك بضوء الأدلة الواضحة والبراهين النظرية القاطعة، ثم نقيمهم على الطريق، والعلم مقدّم حتى على التوحيد، وهل ينفع التوحيد من غير علم؟ ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ والفقه قبل التصوف، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق^(٢).

* - نحن في معركة مصيرية مع قوى الشر والطغيان والإباحية من جهة، ومع بعض المتسلمين والمتصوفين والأدعياء من جهة ثانية، أليس من المؤسف جداً أن نلاقي العداء المرّ والمعاكسة والتشهير ممن ينتسبون إلى العلم وإلى التصوف والسلوك أكثر من غيرهم من ذوي الانحلال، لمجرّد انسياقهم مع العواطف والصلات الشخصية^(٣).

* - إدخال الرقص مهما كانت كلفيته في ذكر الله تعالى إقحام لما هو مكروه أو محرم في

(١) المقالة ١١ - ١٢.

(٢) المقالة ١٣.

(٣) المقالة ١١.

عبادة مشروعة^(١).

* - أصول الدين أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس المعتبر، وما خالف هذه الأربعة فهو بدعة، ومرتكبه مبتدع يتعين اجتنابه وزجره. وأما من كان مسلوباً عقله أو مغلوباً عليه كالمجاذيب فنسلم لهم، ونفوض إلى الله شأنهم مع وجوب إنكار ما يقع منهم مخالفاً لظاهر الأمر حفظاً لقوانين الشرع^(٢).

ثامناً: من أقواله في بعض العلماء:

* - حجة الإسلام الغزالي - رحمه الله تعالى - : هو حجة الإسلام حقاً وصدقاً، وفكره العجيب يستولي على القلب فيستجيب لما ينتج عنه، وهو أحد عظماء الفكر الإسلامي الخمسة وهم: الجاحظ، وأبو حيان التوحيدي، وابن خلدون، ومحيي الدين بن عربي، وتصوف الغزالي أقرب إلى المنهج العلمي وإن كان رحمه الله تعالى له آراء موقوفة عليه في الزهد والتوكل وغير ذلك^(٣).

* - الشيخ عبد الوهاب الشعراني - رحمه الله تعالى - : له وقع خاص في نفسي، وقد دُسَّ عليه الكثير في حياته وبعد وفاته، وله آراء في بعض مراحل السلوك موقوفة عليه لا أوافقها ولا أرتضيها، و﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾^(٤).

* - الشيخ محيي الدين بن عربي - رحمه الله تعالى - : له اصطلاحات خاصة في مدارج السلوك، وقد ثبت عنه أنه قد أحدث لغة خاصة به كما أشار إلى ذلك مصطفى صادق الرافعي

(١) تنبيه الفكر ١١٢.

(٢) قرّة عين رسول الله ﷺ ١٤٢.

(٣) اللمحة ٥.

(٤) اللمحة ٥.

في كتابه تاريخ آداب العرب، ولذلك قال رحمه الله تعالى: تحرم القراءة في كتبنا لمن لم يكن عارفاً باصطلاحنا^(١).

* - ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله تعالى - : هما من أعظم فلاسفة الفقه والحديث الشريف، وإن كانت لهما بعض السقطات والهفوات، فهي إلى جانب حسناتها لا تُعدّ شيئاً، ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، وإن كان ابن القيم أهدأ نفساً، وألين عريكة، فهو صاحب القلم السيال والسحر الحلال^(٢).

* - الشيخ الناصر اللقاني: شيخ مشايخ عصره، من أهل التخريج والترجيح بشهادة علماء عصره، واشتهر اشتهاً لا خفاء معه بذلك، وقد أطبق من وُجد بعده على متابعتة فيما يفتي به^(٣).

* - أبو الحسن الندوي - رحمه الله تعالى - : أحبته حباً شديداً، وقرأت الكثير من كتبه، وكم رأيته في عالم المنام، وقد أهداني في إحدى الرؤى جهاز تسجيل ضخم هو ومجموعة من علماء الهند الصالحين^(٤).

* - الشيخ محمود بن عبد الرحمن الشقفة - رحمه الله تعالى - :

- كان رحمه الله تعالى منذ طفولته مضرب المثل في التقوى والصلاح، وفي شبابه مثال الاستقامة والبر والإحسان، وقد ربى نفسه وجاهد لها حق الجهاد حتى صفت وارتقت، فكان روحاني المظهر والمخبر، وكانت أنوار الصلاح تتلأأ في وجهه المشرق، كان محباً للعلم فنشره

(١) اللمحة ٥.

(٢) اللمحة ٦.

(٣) الفقه المبسط ٢ / ٩٠ (المعاملات).

(٤) اللمحة ٦.

بين الناس في وقت كانت الجهالة متفشية فيه ومنتشرة.

- كانت خطبه تبكي القلوب قبل العيون، لا يسمعها أحد إلا وأحسّ تغييراً جذرياً في سلوكه، واستقامة على طريق الهداية والتقوى، فكان كأنه البركان الثائر يتفجّر بينابيع الحكمة والموعظة الحسنة، يدخل إلى القلوب فيصلحها، وإلى النفوس فيطهرها ويقومها، ويمدها بطاقة روحية عجيبة وغريبة.

- إن الشيخ لم يفارق ذهني يوماً واحداً، نعم يوماً واحداً منذ استشهاده وإلى يومنا هذا، فإني أقدره حق قدره، وله وقع خاص في نفسي سلوكاً وقولاً وعملاً، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه، وأن صلتي الروحية به قائمة وقوية ومستمرة إلى أن ألقى الله عز وجل.

- واعتقادي فيه أنه وليّ زمانه، وإن لم يكن من أولياء الله تعالى فليس هناك وليّ بعد، ولا يشترط في الولي أن يكون معصوماً عن الخطأ، وإنما له الحفظ بحيث لو أخطأ عاد إلى الصواب^(١).

- وكانت مجالس الذكر عنده أقرب إلى الشرعية من غيرها من المجالس، يبتدئ الذاكرون بلفظ «الله الله» ثم بـ «الله جليل» ثم بـ «الله الله دائم» وإن كان يصحبها كثير من الصراخ واللفظ والغلط، مما جعل الشيخ يصّرّح أمام جماعة من أصحابه منهم الأخ الحبيب وصديق العمر الأستاذ مظهر قيمة - رحمه الله تعالى - : بأن هذا الذكر الذي تذكرونه كأنكم تطعنوني بسكين في قلبي، وهذا يدل على كثرة تألمه من أولئك الذين يحرفون لفظ الجلالة، ولا ينطقونه نطقاً صريحاً صحيحاً من غير خبط ولا غلط^(٢).

* - الشيخ محمد الحامد - رحمه الله تعالى - : كان شيخنا الشيخ محمد الحامد - رحمه الله

(١) المقالة ٢ - ٣.

(٢) اللوحة ٦.

تعالى - إذا كتب شيئاً يختمه بقوله: «الفقير إليه تعالى محمد الحامد» مجرداً من كلمة شيخ، مع أنه رحمه الله تعالى شيخ حماة وعالمها الأوحد بلا منازع باعتراف أهل الفضل جميعاً^(١).

لقد استفدت من أسلوبه العلمي الذي يعتمد على التمهيد والتحقيق والتدقيق^(٢).

وهو رجل كما قال لي في مكالمته هاتفية أعز دين الله فأعزه الله وخلد ذكره.

* - الشيخ يوسف النبهاني - رحمه الله تعالى - : شخصية نادرة، فنيت في الحب، واحترقت بناره، واستنارت بنوره. وقد قامت مقام المربي والمعلم والمرشد، فأثرت في نفسي وصنعتني صنعاً آخر وفتحت لي آفاقاً من الذوق الصحيح والروحانية الخالصة التي لا يعرفها إلا من جربها، ولا يحس بها إلا من كابدها وخبرها^(٣).

- لقد فني في حب الرسول الكريم ﷺ ومؤلفاته تعبر عن هذا الحب الصادق، والذي

يطالع في مبشرات المنامية يعلم مدى حبه وكثرة مرائيه لرسول الله ﷺ.

- إن الشيخ يوسف النبهاني هو شيعي الأول الذي تأثرت به روحاً وسلوكاً وعملاً،

كنت أستشعر ذلك في كل مراحل تكويني، فهو والدي في حياتي الخاصة والعامة^(٤).

* - الشيخ بشير الشقفة - حفظه الله تعالى - : جندي من جنود الله، وهو كالغيث أينما

وقع نفع^(٥).

(١) تطيب المرأة ١٢.

(٢) اللوحة ٣.

(٣) حسن الشريعة ١٠.

(٤) ذكر لي ذلك في مكالمته هاتفية جرت في شهر شعبان سنة ١٤٢٦ هـ.

(٥) من اللوحة ٥.

* - أخيراً لقد أتخفني الشيخ برسالة مسجلة على شريط تسجيل وأنا في حال الغربة
ملأها بالنصائح والإرشادات وبين فيها سيرنا في هذه الحياة والحكمة من ورائها تصلح أن
تكون خطاباً لكل تلميذ تتلمذ على شيخ وأسوقها لفوائدها ومنافعها، ونصها:

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا مولانا محمد وعلى آله
وأصحابه وتابعيه إلى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

أخي الحبيب يا أبا عماد: إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأستفتح بالذي هو
خير.

يا أخي يا أبا عماد يا جزءاً من كياني ويا قطعة من روحي عرفتك برعماً من براعم
الإيمان، حيث انشق وتفتح من زهرة زاهية يعبق أريجها ويسر منظرها، وتبعث في النفس
معاني الطفولة البريئة المهدبة الطاهرة.

يا أخي يا أبا عماد: يا أيها اللحن الشجي الذي هز النفوس بنغمه وخالط الأرواح
بجمال إيقاعه.

يا أخي الحبيب: لقد كنت زهرة لا كالأزهار، زهرة نضرة حلوة تضمنت أكثر من
معنى، وقديماً قلت فيك: إنك روضة في زهرة وزهرة في رياض، ولكن لا بد من رياح تهب
وتعصف لتكوّن ثمرة فكانت تلك رياح المحنة والمنحة، «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين
منكم والصابرين ونبلوا أخباركم» «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات وبشر الصابرين».

من هم الصابرون؟ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فالمحنة

هي شيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، ولكن فما هي المنحة؟
﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ لقد آتت المحنة أكلها بإذن
ربها وكذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون.

أي أخي: لقد علمت أن طريق الإيمان طريق التضحية والفداء ليس مذللاً ومعبداً
ومفروشاً بالورد والرياحين بل ملؤه العقبات والأشواك، ولن يجتازه إلا أولوا العزم من
الرجال، إن القمم السامقة والمعاريج الرفيعة الصادقة لن يرتقيها الضعاف والخوارون.

إن أجواء الصفاء وأفلاك الوفاء لن يخلق فيها البغاث من الطيور دون النسور، إن هذه
الحياة بحلوها ومرها وصفوها وكدرها قنطرة عبور ومتعة فانية ولذة منغصة وما هي إلا متاع
الغرور، ولقد كنت أقول قديماً فيما أظن إن لكل منا أموراً يسير عليها ومناهج يخطط طريقها
وسياتي ذلك اليوم الذي لا يرى فيه أحداً صاحبه إلا بعد فترة زمنية الله وحده هو الذي يعلم
مقدارها، ولكن لا بد من التربية والفهم لمعاني الصفاء أولاً وبعد التحقق بحقائق الوفاء ثانياً
وبعد إدراك شوارق بوارق سنى الإخاء الزاهر نوره والساطع ضياؤه ثالثاً، لأن الإخاء
الصادق عروة وثقى لا يعتريها انفصام، ونفحة إيمانية عظيمة لا يقاربها انصرام، واشراقة
فياضة في سماء القلب ساطعة، وينتهي وقت الخسوف ويظهر القمر المنير الزاهر باتصال
وتلاق ووثام، وينجلي وقت الكسوف وترى مزناً الحياة قد ملأت أرضاً بفجاج الحياة، فأنبئت
من كل زوج بهيج، ودكدكت أحوالها وأخرجت أثقالها فترى فيها من كل صنف عجيب،
وأرعدت وأبرقت فإذا الروابي والهضاب سندس والسهول عسجد والمياه سلسيل، وغردت
أطيارها وازدهت أشجارها وتاه فيها العندليب، وانقضى عهد الجفاء والنحيب، باتصال
ووثام، وارتباط الروح فيها سر إشراق، وفيض زاخر يا مستهام كن ذاكرةً مقعد الصدق في
دار اسمها سينٌ ولام..

أي أخي: الله يعلم أنك في القلب بل في شغافه وأنت كما قال القائل:
خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيبُ
أي أخي الحبيب: إنك على علم بأن هذه الحياة مدرسةٌ أساتذتها الأنبياء والعلماء
ومقرّرُ الدراسة فيها كتاب الله وسنة رسوله، والفحص أمام لجنةٍ في باطن الأرض، والأسئلة
مكشوفة معلومة غير مخفية ولا مكتومة إنها أسئلة ثلاث فقط لا غير..

الأول: عن العقيدة الصحيحة المتمثلة بمن ربك؟

والثاني: عن منهج السلوك في هذه الحياة والنظام المتمثل بما دينك؟

والثالث: عن القيادة المحمدية المتمثلة بمن نبيك؟ ويثبت الله الذين آمنوا بالقول
الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فعلينا أن نعد العدة ونحمل الزاد فإن السفر بعيد والعقبة
كؤود.

أي أخي: ما العمر إلا ذكريات قد توارت بحجاب الماضي البعيد أو كطيف حل
فانسل خلف آكام الحياة ولم يبق منها إلا صورة ضبابية قائمة في الذهن، فحاولت إعادة
الذكريات والإمساك بالطيف فلم أرجع إلا بحسراتٍ وزفراتٍ وآهاتٍ، ما مضى فات ولكن
أحصاه الله ونسوه، وعدت الكرة تلو الكرة فإذا البون شاسع بين كنا وحيث أصبحنا
فاقتنعت بأن لي الساعة التي أنا فيها، وتوالت الأصباح وما فيها من آلامٍ وآمالٍ فكرتُ عليها
العشي فنسفتها نسفاً وجعلتها قاعاً صفصفاً وهشياً تذروه الرياح، فإذا الجميع في قبضته
﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ ولم يبق منها إلا آثار تدل عليها
ورسوم تشير إليها لتعطيها واقعاً ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة لمن الملك اليوم لله
الواحد القهار﴾ وإذا الناس فريقان أهل الحقيقة وأهل السراب.

وبعدُ فهذه هي فلسفة الحياة التي حيرت العقول وخرت الأفكار ساجدةً أما قصتها

عاجزةً عن تصور معنى الخلود ومعنى الفناء.

أي أخي: لقد عرفتكَ مجالسُ العلم في الدار ومجالس العباداة والذكر في المسجد، فكنت واحدها وها هو صوتك الطاهر البريء يشدو في تلك المجالس العطرة:

هذه آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثارِ

وها هو صوتك يصدح في مجالس الإيمان، تلك المجالس التي تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة وتنزل عليها السكينة ويذكر الله أهلها فيمن عنده، يبعث في النفس ذكريات مضت وانقضت، ولكنها بقيت تمد الروح بطاقةً علوية سماوية، وتعين على متابعة السير حتى نهاية المطاف.

أخي الحبيب: إنك في جوار بيت الله وحرمة الآمن، أرجو منك دعوةً صالحة، لعلها تجمع الشمل وتلم الشعث وتوحد الصف، وتبعث في النفوس الأمن والإيمان والأمان.

وإلى لقاء قادم إن شاء الله والسلام عليك وعلى من حولك من الصالحين الصادقين ورحمة الله تعالى وبركاته.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الماتعة مع سيرة الشيخ لا بد من القول: إن ما قدمناه هو قطرة من بحور فضائله، وسطر من صحائف علومه ومعارفه، لقد رأيناه من العلماء العاملين الذين توسعت دائرة معارفهم فبدا مجتهداً، وأدركناه من الأولياء العارفين فظهر كاملاً مبجلاً، فاجتمعت به وتحققت فيه الشريعة والحقيقة، لذا ندر ريادة وعز نظيراً، وما أحوج الأمة إلى أمثاله، وما أنفع السير على منواله، فهو بحق من العلماء الأبرار الأخيار الذين قال عنهم الرواس رحمه الله:

فاضت على الأبواب منكم لمعة	دلت على سريانها الأنوار
شهدت لكم بعلو كل مزية	أبد المدى الأخلاق والأطوار
منكم تُنال المكرمات وعندكم	همم الكبار كبارهن صغار
وعلوكم عمّت وقد عمّ الورى	من كل فج فيضها المدرار
ونوالكم هدرت سواكبه وقد	ملأ النواحي بحره الزخار
قد ساعدتكم في جميع شؤونكم	رغماً لحاسد عزها الأقدار
أبصارنا شخصت لكم فتركّموا	ليحف منكم حالنا الأنظار
وتحتنوا بعناية تحيا بكم	موتى غرام في هواكم حاروا
لا زال منكم للأحبة هاطلاً	مدد تمّد بفيضه الأقطار

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يشفي شيخنا المفضل من الأسقام والأوصاب والعلل، وأن يجزل له الأجر والثوبة لقاء ما قدم، وأن يحشرنا معه تحت راية رسولنا ﷺ والنبين

والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

تم الفراغ من تحريره مساء يوم الاثنين غرة ذي الحجة عام ألف وأربع مئة وثمان
وعشرين للهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

والحمد لله أولاً وآخراً

ملاحق الكتاب والصور

ملحق (١)

يتضمن رسالة الشيخ أحمد صالح الشامي - رحمه الله -

الى الشيخ محمد أديب - رعاه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

وزارة الأوقاف

إدارة الافتاء العام

والدريين الديني

افتاء محافظة - منطقة دوما

الرقم ٤٠٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
إلى صاحب الفضيلة سيد الشيخ محمد أديب حفظه الله وأدام ذكراً للفقه وأهل
عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . وبعد : لقد تناهت ضائتي في بعض
هل الأوراق النقدية عرضت نقدود ؟ وهل تجب الزكاة فيها ؟ وهل يجوز بيع بعضها
تفاضلاً لا جلاً ؟ أذاً ينبغي أهلاً لذلك والمسؤول بأعلم من السائل لكني على
جراكم الله عن خير أذاً ينبغي أهلاً لذلك والمسؤول بأعلم من السائل لكني على
سبيل الاستئصال والتفصيل قول الحمد لله تعالى

بالنظر لفقد الذهب والفضة قوله العقل بها أصحت الأوراق النقدية بحكمها
لأنها مال مضمون . إذ أن ما بين التجارة والصناعة والزراعة وسائر المعاملات الإدارية والدوائر
الرسمية . في الاقطار الإسلامية وغيرها يعتمدون على نقدود في تأمين مصالحهم . فعلى
هذا تجب الزكاة فيها ما بالركن الديني وحفظاً لحقوق الفقراء وتوفيراً للمسؤولين الإخوة
ولقد حرم العلماء والعاملون اقتراضها واستقرضها بالزيادة لدجل . لأنه محض ربا
لقول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين :
فإن لم تفعلوا فأنذروا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا
تظلمون . ٤ - ٥٧٩) ولا روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه أنهم أجمعوا الله عن ابن
مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « لعن الله آكل الربا وموكله وشاكه
وكاتبه : وفي رواية وهم يظلمون »

وما من علم من علماء المسلمين يخشى الله واليوم الآخر . إلا تفرغ عن القول بأنظر عرض
ولا تجب الزكاة فيها لما في ذلك من هضم حقوق الفقراء ومخالفة حكم الشرع . ومن يقول
بخلاف ذلك أسأل الله لي وله المصائب والرياء . وغشاً ما أهدى الله ولكم وإن سبقتنا
على القول الحق وبوقضا ما فيه الصواب . ١٤٠١ هـ صفر ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م

كتبه الفقهاء السجاني



ملحق (٢)

يتضمن رسالة الشيخ أحمد صالح الشامي - رحمه الله -
الى الشيخ محمد أديب - رعاه الله -

بالتحية

محرم الرسول الفاضل والشيخ الفاضل السيد الشيخ محمد أديب الشامي طاب الله ثراه
السلام عليكم ورحمة تعالى وبعد فقد وصلني الكتاب (١) بداية السبيل في تفصيل سيرة الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم
(٢) كتاب الحج والعمرة اذ الكتاب الأول فهو فرة عليه السلام بهجج نفوس المؤمنين واني قرأته كله فوجدت فيه كرامة ظاهرة
سيرة المؤلف الطاهر الغزير عبد السلام بن عبد الله عنه طاب ثراه مؤلف هذه اللغة اشار الى احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي
انقلتها في اجازات رسالة ولم يذكرها بتمامها وهذه الكرامة العظيمة هي ان الله تعالى اطلعنا على انكم من طبعه رسالة فزال لكم
كرو وخلق الاحاديث بتمامها وهذا ما اشار اليه فقط ليكون لكم فضل عظيم ومنزلة عالية ومنقبة عظيمة عند الله تعالى بجزء منكم
وقد اهدى الخبر الطاهر الطاهر ونشره ليكون له الله عنه التي لكم مجالاً تستعملون به رسالة الشريفة بوضع وكاتب الاحاديث الشريفة
بما يتعارفوا والله هذا العمل منكم زاد الرسالة جمالاً وزينة واعطاهم وتوضيحاً لدرجات العلية ومجاسن ورفع به المؤلف الذي
زال لكم المجال في كتابة الاحاديث بتمامها كما نرفع به المسحون فغنى انكم بهذا العمل الجليل النافع لرضي الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
اسمائه فجزاكم الله تعالى خير الجزاء وجعلكم من ائمة العلماء الفاضلة الخ ليعيهم في حب رسول الله صلى الله عليه وسلم
اذ ان كتابكم الثاني وهو الحج والعمرة فقد ترقى في تأليفه توجهاً علمياً نافعاً فصار شبه كتاباً بدرة معارف فيه كل شيء
نظير بالحج والعمرة يحتاج اليها الطالب الراغبون ولا يستغني عن العلم بالعلوم ينزول الطالب منه علماً ومعرفة بالمنازل
نفاً لا واحطها منه فشيء به كجاء على ضوء تعاليم كانه علم صحيحاً ومقبولاً عند الله تعالى وصبر ورأياً وشكراً وطلباً عزاً
منه كما اخبرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ايا الذين الكرم الفاضل زاد الله علماً وتقى وصلاً وورعاً كنت في العلم
هؤلاء قالوا صرت بديراً طاهراً وقد اتانا هذه العلم النافع فيه مدرسته قوله تعالى [واتقوا الله ويعلمكم الله] فغنى انكم
هذا التوفيق من الله تعالى قال العلماء اذ المردت انه يعرف عند الله فاعلم اننا نعرفنا افعالكم فشاركنا الله تعالى على وجودنا انكم
بهذه الزمان الذي نشر فيه الفساد وكسر على الرعايا فاعلموا انكم ورثوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم
شيئاً (١) العلم (٢) والرحمة طاب الله تعالى رسله بنيت على الله عليه وسلم رحمة كماله وفي انكم اسأل المولى تعالى لكم ولجميع
بن البقاء ودوام الأثر لقاء الرضا وتفتت الله تعالى رايكم والسلم لاهل طاعة والعمل برضاة الله امين
سنة ١٢٧١ هـ
خادم العلم الشريف عبد الغني حماد بن اديب

عبد الغني

ملحق (٣)

غلاف رسالة الشيخ أحمد صالح الشامي - رحمه الله - الى الشيخ محمد أديب نفع الله به
وبجانبه خط الشيخ محمد أديب - رعاه الله -

حماة

لقد أهدى السيد الشيخ
أحمد إلى في حفلة دونا
محمد لم يفلح وحسنا
محمد حتى لا أريد أن يكون له
صلى الله عليه وسلم

الى فضيلة الشيخ الشيخ سيدي الاستاذ محمد اديب الختم



الحمد لله الذي جعل في الدنيا طيعة العلم
شكرنا لكم على ما تقدمت به من عملكم ومروا بالمرور (مكرر)
مولا سبحانه ان ينفعكم الله تعالى ويزيدكم من فضله وان يعيدكم
وعلى سركم العظيمة عيدهم ونعم بآتم الله العزة والكرامات

دونا

دمشق

ملحق (٤)

يتضمن رسالة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة - رحمه الله -
الى الشيخ محمد أديب - رعاه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الشيخ الكريم الأستاذ الشيخ محمد أديب طه كل سلام الله تعالى ورعا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فأرجو ان تكونوا بحمد الله ونعمته ،
ومنتى هديتكم المحبة المحبوبة ، فحسب الله لكم حسنة ضياعكم وعظيم اعتنائكم بالتدبير الى
الديب وتجنب الأخطاء لكل مترشد ورشيد ، والله في عونه العبد مآطه العبد في عون
أخيه ، فالله في عونكم وهو المرجو انه يحزل لكم الأجر ويحبه لكم الذكر بمغيبه بحمة وتبدا
نظرت في أكتاب هذه أيام قريته وأنا على سفر وفي سفر ، فلهذا ^{هنا} تأخر كتابي هذا
بانكم حتى أكونه شاكراً ذاكرم ربه شاد الله . والله يا أخي

لوالصف الناس استماع القاضي وبان كلامه أخيه راتب

والله حبنا الله ونعم الوكيل وكفى .

السلام ارنا الحمد حقاً دارر قنا اتباعه وحبنا فيه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا
اجتنابه وكرهنا فيه ، اللهم عيب البنا الإيانه وزينه في قلوبنا ، وكره البنا الكفر والعنونه
والنصيانه .

قرأت أكثر كتابك ، وسررت فيه جداً ، راحك على التأديب مع ذكر اسم الله تعالى
وتدبيره قلباً ولساناً وحالاً ومظهر ، فالله الذي يجزيه من يدافع عنه هو قد قال في
كريم كلامه ربه الله يدافع عنه الذين آمنوا ، فلهذا هم وبأسعادتهم ، لهم الله وكفى .
وختاماً أخط لك عنه الكلمات ومندى ضيوق أنا منهم استأذنتهم بذلك فأذلو ،
ثأستودعك الله تعالى ، راجياً دعواتك المؤمن لك على صلح وأكرم ربه شاد الله ، والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته . تحياتي للأخ العزيز المحبوب الأستاذ ^{الرحمن} والله يرعاكم جميعاً .
والسلام عليكم وعلى كافة الأشخاص المحبوسين والمحبوسين عندكم ورحمة الله وبركاته .

حلب ١٣٨٧ / ٢٠ / ٥٠

ملحق (٥)

هماه الحاضر
محلة الشرقية جامع الشرقي
يحفظ بلىم اناس الاستاذ الفاضل الشيخ محمد كل كل فتح
الله علينا وعليه فتوح العارفيه
آمين

وهذه صورة ليدعى مكاتبات شيخنا الشيخ محمد الراسد القاذبي
الحلبي (الذي أخذت عنه الطريقة لنفسه) شيخنا الشيخ محمد الراسد القاذبي
شيخنا الشيخ أبي النصر خلف الحصري وهو شيخ شيخنا الشيخ محمد الحاضر
عليهم الرحمة أجمعين

ملحق (٦)

يتضمن ما تضمنته رسالة الشيخ صالح موسى شرف - رحمه الله -
الى الشيخ محمد الحامد - رحمه الله - حول كتاب تنبيه الفكر الى حقيقة الذكر

وقد اني في فضيلة شيخنا الشيخ محمد الحامد رسالة من العالم الفاضل الشيخ صالح
موسى شرف وهو من جملة كبار العلماء الرحمة في عصره وعظم مرآته
وسكرته جامع لذكره سابقا قبل ان يحال على التقاعد وهو من المؤلفين ايضا
هذه الرسالة وصلت الى سيدي الشيخ محمد الحامد وفي حملتها :
بالحق كتاب (تنبيه الفكر) تدل على النباية ، وبداية تدل على قيمة العلمية
وارادوا التذكير به الى حقيقة الذكر الربوي والقيمة التي ينبغي العمل بها والله الموفق --
وهذا مما اخذه الشيخ صبيح للتشجيع على متابعة السيرة العلمية رحمهم الله جميعا وحسنا
مع حق لواء سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام

محمد الحامد

ملحق (٧)

يتضمن رسالة من الشيخ عيسى الخطيب - رحمه الله -
الى الشيخ محمد أديب - رعاه الله -

الرقم الموضوع
التاريخ ١٩٦١ / ١١ / ١٩٦١
الى حقه الشيخ محمد أديب

حفظه الله ورعا ، وأنا له في الدارين مطلوبه ومبتغاه آمين .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فقد تفضلتم بأهديتي في نسخة من كتاب
القيم (تبيين الفكر ، الى حقيقة الذكر) الذي حملته الى البريد وارسلته الى بيتي
أشياء علة تحتها البعض ضواحي قصة اعزاز ، ولم كانه سروري به عند ما علة
الى البيت فوجدته باشتغاري على الميضية ، فذكره الله تعالى على قدراته
منه برأيه في نهضة ، فوجدته من التزيين والبناء ، جامعة لما أتت في
سنة الكتب العلمية ، ومبنيها الى فوائد الذكر وشروطه وآثاره التي لا يبرهنها
عكف على باب مولاه واراد ان يقرب الى ذاته العلية . ونوري انه بطابع
جميع شيوخ الطرق الصوفية في سائر الاقطار الاسلامية ، حتى يلقوا
صنع الذكر لمريهم واتباعهم سالمة به التعريف والتسوية ليتبعوا النفع
ويظلموا الأجر ، ويظلموا البلا الغلب ، ونشره لولا الصدق والعجب هذا
ما اردتموه منه تقبلوه على الفتوى المسوية الى العادلة الفقه الاسلامي
فجره لكم ، وما أظن ان الايدوسه عليه ، لما اشتهر عنه رحمه من محاربة البدع
واظهار المنكرات والباطل ، والافادات والفضائل ، وانني اذا شكرتم على هذه
الهدية لبيت العاليه ، أسأله تعالى انه يحرككم عن غيرا وأنه يحزل لكم الأجر
على ما قدتم للائحة الاسلامية من نفع ، وما بذلتم في تصنيفكم من جهد ، وفي الختام
أهديكم فضيلة أخي الحبيب الشيخ محمد الحامد حفظه الله ورعا ، عالمنا في روافد
أمدانكم انه لا تنو في منه دعواتكم الصالحة ، في أوقاتكم الراحه
ودائم خير وصحة وصلاح والهدى .
أهولكم في الله طاب الدعاء
عيسى الخطيب
اعزاز في ١٤١١ / ١١ / ١٩٦١ هـ
١٧١٠ / ١١ / ١٩٦١ هـ

ملحق (٨)

يتضمن رسالة من الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل - رحمه الله -
الى الشيخ محمد أديب - رعاه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته سيدي الأستاذ الأجل
الشيخ محمد أديب كفل الحرر
ربنا : اشكر الله الكريم الذي وفقني ببرفتكم المبركة عنه طرية سعاد
منه المصدقنا وأورد
ثم قرارة كتابكم القيم (النفس المبطل) وأشكر سيادتكم على هديتكم
القيمة وأبين لكم اللطيفة الصادقة التي لا أستحوذ منها ولا كلمة واحدة
ركنه كرمكم وعطفكم ألباني جليلاً وأمساً من الكرم كرمكم الله
ومننا بيمينكم الغالية وجعلنا به المتفقيه بأحكام وأديبكم
إنه على كل شيء قدير
ثم أسمح يا سيدي أنه أضع بين يديكم الكبريتية هذه المفطوعة
النواضة التي تأسى بها الخاطر حال قرأتها إحدائكم الكرم
فإنه شيء لا يسوع راحل وسؤال الله أنه ينفع قلوب الخائر
ببركتكم

تفضلوا بقبول فائقه احترابي ومحبي

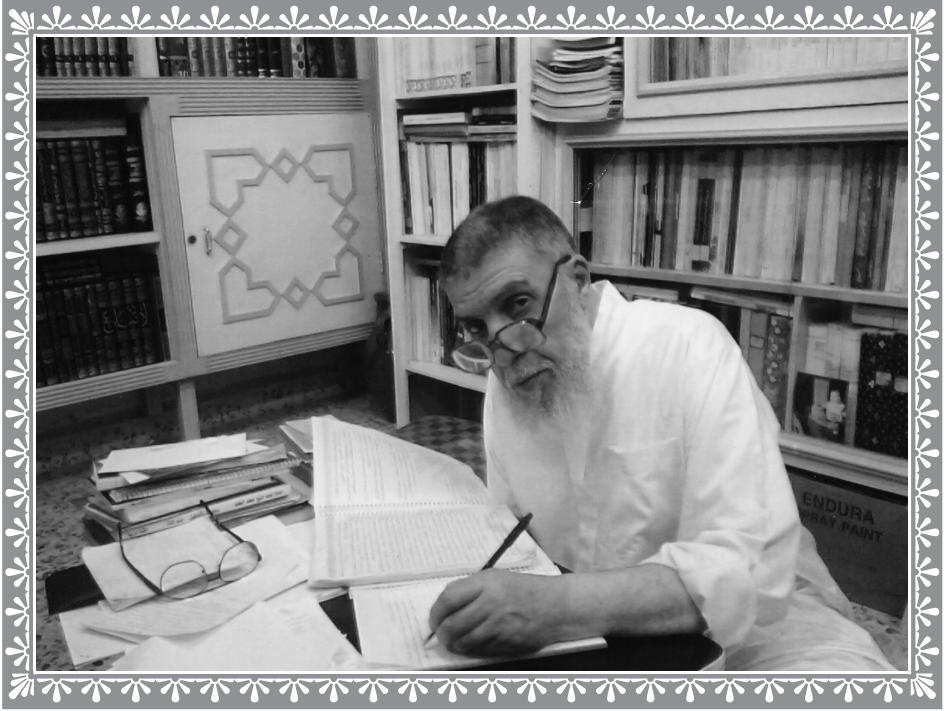
عواء بني هاشم
الفقر جدياً إليه تعالى
عبد الوهاب الشيخ خليل بشرفي

يظهر منه خط الشيخ محمد الحامد - رحمه الله - وطلب الشيخ عبد الغني حمادة - رحمه الله - ترجمة ذاتية عن الشيخ محمد أديب - رعاه الله -

١٠
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

تأليف
الأستاذ عبد الغني صمداه
سوريا - ادب
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م
الذي ألفه
كتابك الشريف
(تنبه الفكر)
وقد كان محققاً

طبعة ثانية فيها زيادات كثيرة لا سيما في المحاوره
منشورات مكتبة البلاغة حلب - هاتف : ٢٣٣٧٤
مطبعة الاصيل - حلب



الشيخ في منزله (المكتبة)





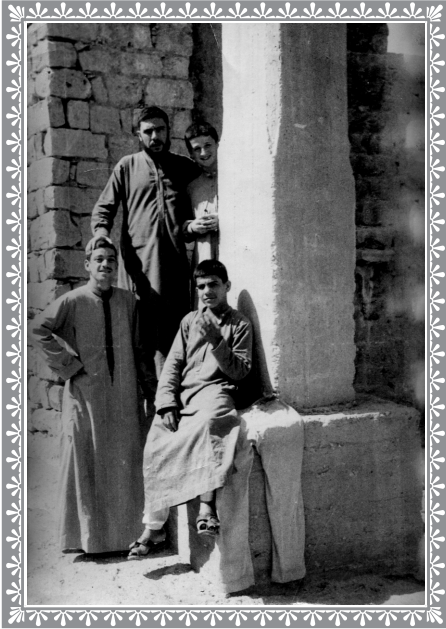
الشيخ مع طلابه في المدرسة المحمدية الشرعية



الشيخ مع بعض طلابه



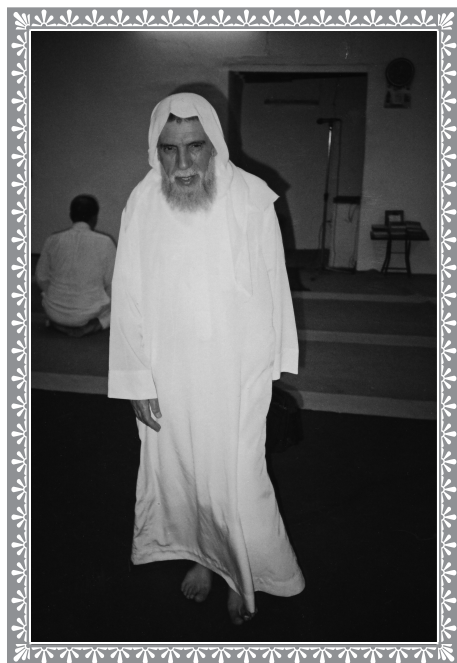
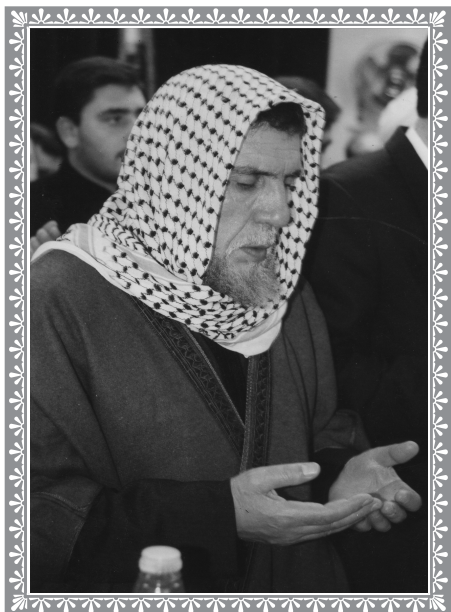
الشيخ مع بعض طلابه في بعض المتنزهات



الشيخ مع بعض طلابه في
منطقة البشريات

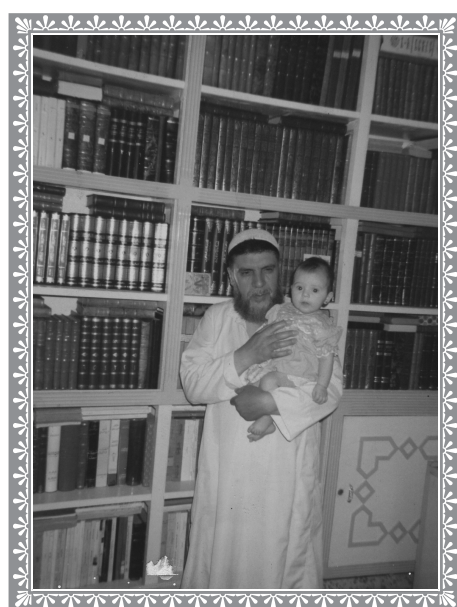
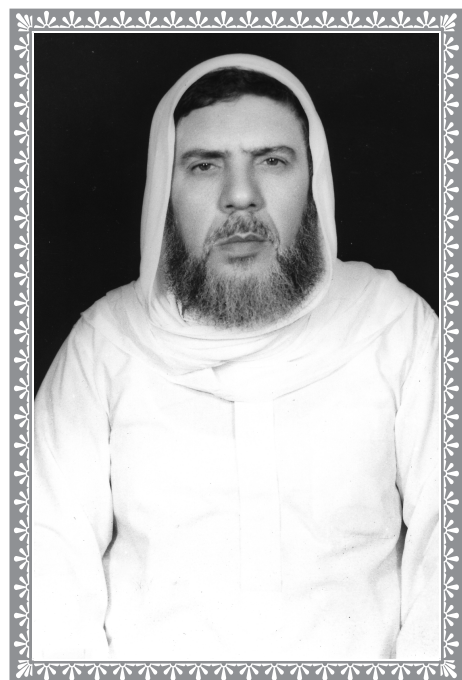


الشيخ في المدرسة المحمدية
الشرعية



الشيخ في حفلات زفاف طلابه وأبنائه

صورة الشيخ في السعودية



صورة الشيخ مع إحدى حفيداته
في مكتبته



الشيخ مع بعض طلابه



الشيخ مع طلابه في المدرسة المحمدية الشرعية



الشيخ أمام لوحة كتبها بخطه الجميل

فهرس أهم المصادر والمراجع

- ١ - الأستاذ الشيخ محمد أديب كلكل كما عرفته للدكتور مرهف بن عبد الجبار سقا.
- ٢ - تجربتي مع الشيخ، للأستاذ غالب المصري.
- ٣ - الشيخ الذي عرفت ذاتي عندما عرفته للأستاذ عماد مفيد زغرات.
- ٤ - العالم الشيخ محمود الشقفة، حياته وآثاره للمؤلف.
- ٥ - اللوحة للشيخ محمد أديب كلكل مخطوط.
- ٦ - مقالة عن الشيخ محمود الشقفة، مخطوطة.
- ٧ - من ذكرياتي مع الشيخ، للأستاذ عوض بن محيي الدين قناني.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة.....	٧
الفصل الأول: اسمه وأسرته ونشأته.....	١٣
اسمه ونسبه.....	١٣
نشأته.....	١٥
الفصل الثاني: صفاته وأخلاقه ومنهجه في الحياة.....	٢١
منهج الشيخ في هذه الحياة.....	٣١
الفصل الثالث: تكوينه العلمي وثقافته.....	٤٣
شيوخه وأساتذته وقرائه.....	٤٣
الفصل الرابع: النشاط العلمي والتربوي.....	٧٩
دروسه العامة والخاصة.....	٧٩
المنهج التعليمي والتربوي عند الشيخ.....	٨٤
مؤلفات الشيخ ومظاهر منهجه العلمي.....	١٠٠
شعر الشيخ ونثره.....	١٩١
السمات الفنية لأشعار الشيخ ونثره.....	٢١٥

الموضوع	رقم
الصفحة	
الفصل الخامس: مناقب الشيخ وما وقع له.....	٢٣٣
الفصل السادس: تلامذة الشيخ.....	٢٤٧
الفصل السابع: ثناء العلماء على الشيخ وصلاته العلمية.....	٢٦٣
الفصل الثامن: أقوال الشيخ ونصائحه وحكمه.....	٢٨٥
الخاتمة.....	٣٢١
ملاحق الكتاب.....	٣٢٣
فهرس أهم المصادر والمراجع.....	٣٤١
الفهرس.....	٣٤٣